

47

کتابی



رابطہ دریافت تاغور

قلوب ضالہ

Looloo

www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

بناية رقم ١٠٠٠ شارع الملك فيصل - القاهرة - مصر

مہدی زاد



قلوب ضالة

رابندرانات تاغور



Looloo

www.dvd4arab.com

الفصل الأول

● ما ارتاب أحد لحظة في أن (رامش) سيجتاز امتحانه التثاق في القانون بنجاح .. فقد اعتادت ربة العلم التي ترعى الجامعات ، أن تغدق عليه أوراق زهرتها الذهبية — زهرة (اللوتس) — وأن تمطره بالجواهر العلمية ، وتغرقه في الشهادات من رأسه إلى قدميه ! .. وكان من المرتقب أن يعود (رامش) من (كلكتا) إلى موطن أهله عقب الامتحان ، ولكنه لم يبد أي تجل في حزم متاعه . وكتب له أبوه يأمره بالعودة فوراً ، فرد بأنه سيعود بمجرد أن تعلن نتائج الامتحان .

وكان (جوجندرا) بن (أنادا بابو) ^(١) زميلاً لرامش في الدراسة ، وجاراً له في السكن . وكان (أنادا بابو) ينتمي إلى ملة (البراهمة) ، وله ابنة تدعى (هناليني) ، تقدمت أخيراً إلى امتحان السنة الأولى في الآداب . واعتاد (رامش) أن يزور الأسرة دوماً ، وأن يظهر في دارها في موعد تناول الشاي ، بانتظام . على أن الشاي لم يكن الإغراء الوحيد : إذ أن (رامش) كان يتردد على الدار في ساعات أخرى . كذلك اعتادت (هناليني) أن تتمشى على سطح الدار ، لتجفف شعرها بعد الامتحان ، وهي تقرأ أثناء سيرها .. واعتاد (رامش) أن يجلس على سطح داره — عند رأس السلم — ممسكاً بكتاب ، ليخلو إلى الاستدكار في هذا المكان المنعزل الذي يصلح للاستغراق في القراءة في هدوء . ومع ذلك ، كانت ثمة أمور بسيطة تصرفه عن القراءة

ناغور

إذا كان القدر قد اعتاد أن يختار الفلاسفة والفكرين من الفقراء والمستضعفين ، إلا أن الهند شهدت مناسبتين ، حاد فيهما القدر عن هذه العادة : وكانت أولى المناسبتين ، يوم اختار القدر « بوذا » من قصر أحد الأمراء المالكن في الهند ، ليكون مبشراً بالحكمة والفلسفة .. ثم كانت المرة الثانية ، حين اختار « رابنتراتات ناغور » حفيد الأمير « دواركاناث ناغور » ليكون من رسل الأدب والحكمة ..

ولد « ناغور » في (كلكتا) في ٦ مايو سنة ١٨٦١ .. وبعد أن درس في إحدى المدارس الخاصة بالهند ، رحل إلى انجلترا وهو في السابعة عشرة من عمره ليدرس القانون . ولكنه لم يستغ هذا اللون من الدراسة ، فعاد إلى بلاده ، ونوفر على الكتابة في مجلات (البنغال) وصحفها ، وما لبث اهتمامه أن اتجه إلى أحوال بلاده ومواطنيه ، فراح يسعى لرفع مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية في الهند ، وأنشأ في سنة ١٩٠١ مدرسة فذة في نوعها ورسالتها ، تنكب فيها برامج التربية المألوفة ، ليعنى بالنواحي الروحية والإنسانية والقومية . ونوفر على الإنتاج الأدبي في تلك المرحلة ، ففاز في سنة ١٩١٣ بجائزة « نوبل » للآداب . وقام بعد ذلك بعدة رحلات في أوروبا ، كما زار اليابان والولايات المتحدة . وقد وضع ناغور مؤلفاته — من أشعار وتمثيلات وروايات — بوحى من جمال الكون ، وأدراك وجود الله ، وحُب الأطفال ، والبساطة . وتبدو هذه المعاني في أجلى صورها في كل ما كتب .

وعندما بلغ الثامنة والخمسين — وهي سن تقتر فيها هم الكثيرين — وجد في مجال الفنون ناحية جديدة لنشأته ، فتنف بالرسيم والتلوين ، وأقبل على ممارستها . وفي ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ مات « ناغور » عن ثمانين عاماً .

(١) « بابو » لقب احترام يقابل

هناك ، كما يمكن أن نستبين إذا فكرنا في الأمر ملياً !.. بيد أنه لم يكن قد دار أى حديث عن الزواج بين الطرفين ، إذ كان لدى (أنادا بابو) من الأسباب ما يقعد به عن إثارة الموضوع . فقد كان له صديق شاب يدرس القانون في إنجلترا ، وكان السيد الكهل يضع عينه على هذا الشاب كمرشح للزواج من ابنته !

وفي عصر ذات يوم ، دار على مائدة الشاي نقاش محترم ، في حضور شاب آخر من أصدقاء الأسرة يدعى (أكشاي) لم يكن موقفاً في اجتياز امتحاناته ، إلا أنه لم يكن يقل عن أن شاب مثقف تعطشاً إلى الشاي وغيره من المكيفات غير الضارة ؟ .. ومن ثم كان يكثر من الظهور على مائدة الشاي في دار (هناليني) . وقد قال في ذلك اليوم أن ذكاء الذكور كالسيف ، وأن ثقله كقيل بأن يجعله سلاحاً بئراً ، ولو لم يكن حده مشحوداً ، في حين أن ذكاء المرأة كالمليرة ، لا يمكن — مهما تشحذا — أن تؤدي مهمة خطيرة !

وأوشكت (هناليني) أن تتقبل في صمت هذا الزعم البعيد عن الصواب ، لولا أن أخاها (جوجندرا) أضمن في الحظ من قدر الذكاء الأنثوي ، مما اجتذب (رامش) إلى معمة الجدول ، فانتزع نفسه من صمته ، وأخذ يتغنى بمديح المرأة ! .. وكان قد احتسى كوبيين من الشاي ، فوق ما اعتاد ، في غمرة حماسه للأنوثة ، حين أحضر الخادم رسالة موجهة إليه بخط أبيه ، فما هو أن تأملها ، حتى ارتضى المزيجة ، بينما كان النقاش في أوجه ، وتأهب مسرعاً للانصراف . وانبعث عاصفة من الاحتجاج ، فاضطر إلى أن يوضح لم أن أباه قد وصل لتوه

فادماً من البلدة ، فقالت (هناليني) لجوجندرا : « سل والد رامش بابو أن يأتي لتقدم له قديماً من الشاي » .. فبادر (رامش) غاتلاً : « أرجو أن لا تتعبوا أنفسكم ، إذ يحسن بي أن ألحق به في الحال » . واغتبط (أكشاي) في نفسه ، وقال : « قد يأتي السيد الشيخ أن يتناول شيئاً هنا ! .. وكان يشير بذلك إلى أن (أنادا بابو) كان براهياً ، في حين أن والد (رامش) كان من غلاة الهندوكيين !

● استقبل (براجا موهان بابو) — والد (رامش) — ابنه بقوله : « يجب أن تعود معي إلى البلدة بقطار الصباح غداً ؟ » .. فحلت (رامش) رأسه ، وتساءل : « هل من سبب للمعجزة ؟ » .. فأجابه (براجا موهان) : « ليس هناك سبب معين بالذات » .. وتطلع (رامش) إلى أبيه بنظرة متسائلة ، وهو يعجب من سر تعجله في هذه الظروف ، بيد أن (براجا موهان) لم ير ثمة ضرورة لأن يشبع فضول ابنه !

وإذا خرج الأب في المساء لزيارة أصدقاء له في (كلتكا) ، جلس (رامش) يكتب له خطاباً . وبدأ بالاستهلال التقليدي الذي يليق بمقام الأب : « إلى قدمكم القوتسية (١) الموقرة » .. بيد أن قلمه أبي أن يخفى بعد هذه العبارة ، رغم أن الشاب راح يحدث نفسه بأنه مرتبط به (هناليني) بعهد صامت ، فمن الخطأ أن يخفى هذا العهد المكتمل عن أبيه بعد اليوم . وأخيراً ، كتب عدة خطابات بأساليب مختلفة ، ولكنه انتهى إلى تمزيقها جميعاً .

(١) ازهرة « اللوتس »

وفي تلك الليلة « أوى (براجا موهان) إلى مخدعه بعد العشاء مباشرة ، فبعد (رامش) إلى سطح الدار ، وراح يذره قلقاً — كطيف من أطياف الليل — وبصره لا يتحول عن بيت جيرانه . ورأى (أكشاي) يخرج في الساعة التاسعة ، كعادته ، إذ كان يتلصق في الانصراف ! .. ولم تكن الساعة التاسعة والنصف ، حتى أغلق الباب الخارجى للدار . وفي الساعة العاشرة ، انطلق ضوء غرفة الجلوس في مسكن (أنادا بابو) . وما حانت الساعة العاشرة والنصف ، حتى غرق البيت كله في النعاس ! واضطر (رامش) إلى أن يغادر (كلكتا) في ساعة مبكرة من الصباح التالي ، إذ حرص أبوه على أن لا يدع له فرصة للتجاذب على نفوت الفطار !

الفصل الثاني

■ عندما بلغ (رامش) البلدة ، تبين أن ثمة عروساً اختيرت له ، وإن تاريخاً حدد للزواج ! .. إذ كان (براجا موهان) قد تعرض في شبابه لأيام سوء وضيق ، وكان مديناً بما أحرز — بعد ذلك — من ثراء ، إلى محام يدعى (إيشان) ، من زملاء صباه . وقد قضى (إيشان) نحيبه في سن مبكرة ، وظهر بعد وفاته أنه لم يخلف سوى ديون ، فألفت أرملته نفسها وابنتها الوحيدة ، في فقر مدقع . وكانت هذه الابنة — التي بلغت في هذه الأثناء سن الزواج — هي العروس التي اختارها (براجا موهان) لرامش . ولقد اعترض بعض المشفقين على الشاب ، قائلين أن الفتاة — كما علموا — لم تكن جميلة ، ولكن (براجا موهان) لم يكن

يجب بغير قوله : « لست أرى رأيكم ، ففي وسعكم أن تحكموا على زهرة أو فراشة من مظهرها ، ولكن هذا لا ينطبق على الإنسان . » وخلق (رامش) أن يعتبر نفسه محظوظاً « إذا أثبت الفتاة أنها زوجة صالحة . » كما كانت أمها ! :

وغاص قلب (رامش) بين جنبه ، حين سمع الأقاويل عن زواجه المقبل ، فراح فكره يهيم على غير هدى ، محاولاً أن يبتكر وسيلة للتبر ، ولكنه لم يهتد إلى وسيلة ما . وأخيراً ، استجمع شجاعته ليقول لأبيه : « ليس بوسعي — في الواقع — أن أتزوج من هذه الفتاة يا أبي ، فأنا مرتبط بوعدهم فتاة أخرى ! » :

براجا موهان : « ما هذا القول ؟ هل بينكما خطبة رسمية ؟ »
رامش : « لا .. ليست خطبة بالمعنى الصحيح .. ولكن .. »
براجا موهان : « هل قاضت أهل الفتاة ؟ .. وهل اتفقت ؟ »
رامش : « الواقع أنني لم أتحدث في الموضوع ، وإنما .. »
براجا موهان : « إذن ، فلم تتكلم ؟ .. ليبدأ بالك ، ما دمت لم تقل شيئاً حتى الآن ! »
وألقى (رامش) قذيفته الأخيرة ، بعد صحت قصير ، إذ قال : « لسوف آسى إلى الفتاة التي أعنيها ، إذا أنا تزوجت من سواها ! .. » فأجاب (براجا موهان) : « ولكن ذنبك يكون أكبر ، إذا أنت رفضت الزواج من العروس التي اخترتها لك ! » :

● ولم يشأ (رامش) أن يخفى في الجدل ، فقد أيقن بأنه لم تعد أمامه

سوى فرصة واحدة .. تلك هي أن يقع حادث ما يحول دون هذا الزواج . وكان العام الذي يعقب تاريخ القران (منجوساً) ، لا تعقد فيه زينات - وفقاً لتنبؤات الفلكيين - فعمل النفس بأن يقع ما يمنع الزواجه في اليوم المحدد له ، فيتحتم تأجيله عاماً على الأقل !

وكانت هذه العروس تقيم في بلد ناء ، لاسبيل إليه إلا عن طريق النهر ، في رحلة تستغرق ثلاثة أيام أو أربعة ، إذا سلك المرء أقصر السبل . وخلال المسالك المائية (الترع) التي تربط بين القنوات الرئيسية ، فيبعد أن حسب (براجا موهان) حساب أى طارئ قد يعترض جماعته في رحلتها ، اختار يوماً للبدء بها ، يسبق موعد القران بأسبوع كامل .

وظلت الريح مواتية طوال الطريق ، فقطعوا المسافة إلى (سيمولغانا) في أقل من ثلاثة أيام . ومن ثم كانت أمامهم أيام أربعة قبل موعد الزواج والواقع أن السيد الشيخ كان يسعى إلى غاية أخرى من وراء الوصول المبكر . فقد كانت أم العروس تعيش في شظف ، وطالما رغب في أن يرحل موطنها وتنتقل إلى قريته ، حيث يستطيع أن يكفل لها عيشاً رغيداً ، فبسد بذلك ما كان لصديق صباه من دين في عنقه . إلا أن العرف كان يمنع من أن يعرض على السيدة مثل هذا الاقتراح ، إذ لم تكن بينهما أية رابطة من روابط النسب ، أما الآن ، ولزاء الزواج المرتقب ، فقد سعى ليعرض عليها الأمر ، آملاً في قبولها . ولما لم يكن قد يق من أسرته سوى ابنتها الوحيدة هذه ، فقد وافقت أم العروس على ما عرض عليها من أن تشغل مكان الأم لزواج ابنتها الذي حرم أمه

في صغره ، بل لقد تثبتت بالفرصة قائلة : « لنقل الشائعات ما تقول ، فإن مكافئ الطبيعي يجوار ابنتي وزوجها ! »

وقضى (براجا موهان) الأيام السابقة على الزواج في تدبير الإجراءات لنقل آنات السيدة إلى مقرها الجديد . وكان قد اصطحب معه بعض قريباته ليماعدنها « رغبة منه في أن ترافق القوم عند عودتهم بالعروس »

● وعقد القران في الموعد الذي حدد له . غير أن (رامس) تعتمد أن لا يردد الصيغة الشرعية كما ينبغي أن تردد في مثل هذه المناسبة !

وعندما حانت اللحظة التي يحل فيها لكل من العروسين أن يرى الآخر للمرة الأولى ، أغمض عينيه « ونكس رأسه ، وظل صامتاً عندما خلا إلى عروسه في غرفة العرس ، بل إنه رقد طيلة الليل مولى ظهره للثقة .. حتى إذا تنفس الصباح ، بادر إلى مغادرة الحجرة !

وإذا انتهى الاحتفال ، بادر القوم إلى الرحيل ، فأقرد للنساء قارب ، وولشيوخ آخر ، وللعروسين والشبان ثالث ، كما خصص قارب للموسيقين الذين عزفوا في حفلة الزفاف ، والذين أخذوا بغالبون السأم بعزف بعض المقطوعات من آن لآخر خلال الرحلة !

وكان الحر لا يطلق في ذلك اليوم ، والسما صافية ، ولكن ضباباً كثيباً أخذ يرين على الأفق ، وبدأت الأشجار على الشاطئ ساكنة ، لا تكاد تهتز ورقة منها : وسبح المخذفون في عرقهم .. وقبل أن تغيب الشمس ، قالوا لبراجا موهان : « لا بد لنا من أن نقتلوا برب الآن

الفصل الثالث

■ انقشع الضباب المعتم ، وأسبح ضوء القمر على البطاح الرملية ، المترامية ، غلالة ناصعة البياض : ولم يظهر على صفحة النهر أثر لأي قارب ، بل ولا لأية موجة ! : وساد النهر والشاطئ هدوء كتلك السكينة الشاملة التي يملأها الموت على شخص أضناه العذاب !

وعندما استعاد (رامش) رشده ، ألقى نفسه ملقى على حافة جزيرة رملية . وانقضى بعض الوقت قبل أن يتذكر ما حدث ، وإذا ذلك عاودته رؤى النكبة كلها - وكأنه في حلم محموم - وقفز واقفاً على قدميه . وكان أول ما ساوره ، هو أن يستبين ما أصاب أباه وأصدقائه : فراح يحلق فيما حوله ، ولكنه لم ير أي أثر لإنسان حي ، في أي مكان : وأخذ يسير على حافة الماء باحثاً ، دون جدوى : وبدأت الجزيرة في بياض الجليد ، وقد استلقت بين فرعين من نهر (بادما) العظيم - أحد روافد (الجانج) - كما يستلقي الطفل بين ذراعي أمه . واجتاز (رامش) الجزيرة من أحد جانبيها إلى الجانب الآخر : وما أن شرع في البحث ، حتى لمح شيئاً يشبه الغلالة الحمراء ، فغذ الخطى إليه ، وإذا فتاة شابة ترقد كالميتة على الرمال ، وقد التفت في ثوب عرس قرمزي !

وكان (رامش) على دراية بوسائل إسعاف الغرق ، فأخذ يبدل قساري جهده - فترة طويلة - ليرد تنفس الفتاة إلى طبيعته ، رافعاً ذراعيها إلى ما فوق رأسها ، ثم مخفضاً إياهما إلى جانبيها ، حتى تنفست أخيراً ، وفتحت عينيها . وكان الإتهالك قد استبد برامش في هذه الأثناء ، فظل بضغ دقائق عاجزاً عن التقاط أنفاسه ، وبالتالي : صرح سؤال

إلى الشاطئ يا سيدى ، فليس ثمة مكان نرسو فيه لعدة أميال بعد هذه البقعة ! .. ولكن (براجا موهان) كان تواقاً إلى أن يتقطع الرحلة في أقصر مدة ممكنة ، فقال : « لا داعي لأن نتق هنا ، فلنستوف يظل القمر مشرقاً طيلة النصف الأول من هذا المساء .. فلنذهب إلى (بالو هاتا) ونرسو هناك .. وسوف أجزل لكم العطاء ! .. ومن ثم وأصل الرجال التجديف .

وكانت ثمة منطقة رملية إلى أحد جانبي النهر : يتصاعد منها هواء مشبع بالحرارة التي اكتسبتها الرمال طيلة النهار .. وإلى الجانب الآخر ، فضاء غير مأهول . وأشرق القمر خلال الضباب الداكن ، وقد احتقن لونه حتى بدا كعيني رجل ثمل ! .. ولم يكن في صفحة السماء أثر للسحب ، حين بدد السكون الشامل فجأة ، ودون ما إنذار ، هزيم كصف الرعد .. وانفث المسافرون حلقهم ، فإذا عمود من الأغصان المهشمة ، والأعشاب والقش ، والغبار ، والرمال ، ينتصب فجأة ، كما لو كانت تشير مكنتة هائلة خفية .. ثم يتدفع نحوهم في اجتياح . وتعالّت صرخات جزعة : « اهدأوا ! .. اسكنوا ! اثبتوا في أماكنكم ! اثبتوا ! الرحمة ! الغوث ! » .

ولن يقدر لأحد أن يعرف ما حدث بعد ذلك : فقد انقض على القوارب إعصار مدمر رفعها عن الماء ، وقلبها رأساً على عقب .. وإن هي إلا لحظة ، حتى كانت المراكب قد اختفت من الوجود !

الفتاة . كما أنها لم تكن قد استردت بعد وعيها كاملاً ، على ما لاح له ،
إذ أنها لم تكذب فتفتح عينيها حتى عادت تغمضهما في إعياء ، على أن
(رامش) اطمأن إلى أن أنفاسها أخذت تتابع في سر : وظل برهة
طويلة جالساً ، يتأملها في ضوء القمر الشاحب . كان المنظر المحيط
بهما أغرب منظر يشهده شابان عروسان في أول لقاء حقيقي لهما ! :
فقد كانت البقعة مفترقة ، معزولة بين الأرض والسما ، وكأنها تقوم
بين الحياة والموت !

وسأمل (رامش) نفسه : « من ذا الذي قال أن (سوسيليا)
- عروسه - لم تكن مليحة ! » .. وكان ضوء القمر قد غمر المكان
ببهاء زاه ، وبدت السماء كرقعة شاسعة لا حدود لها . عن أن كل روعة
الطبيعة بدت لعيني (رامش) مجرد إطار خلق ليحيط بالوجه الصغير ..
وجه النائمة ! .. ونسي كل شيء : وراح يقول لنفسه : « لشد ما أنا
مغتبط ، لأنني لم أحاول أن أنظر إليها في غمرة الزفاف وضجيج ..
ما كان يوسعي إذ ذاك أن أراها كما أراها الآن .. ثم إنني إذ رددتها
إلى الحياة . أصبحت ذا حق عليها يفوق كل الحقوق التي يكسبني إياها
ترديد الطفوس والصبح الماثورة لزاواج .. فإني بتريد هذه الطفوس
أجعلها زوجتي أمام الناس ، في حين أنني الآن قد فزت بها كهبة
عزيزة غالية من القدر الكريم ! »

❀ ❀ ❀

● وما لبثت الفتاة أن استردت رشدها : فاستوت حالة : وشفت
نوبها المتهدل حول جسمها ، وأرغفت فمها في وجع : وسألت



كح شيئا يشبه الغلالة الحمراء ، فلذ الغطى اليه ،
وإذا فتاة شابة ترقد كالتيه على الرمال ..

الذى كانت تشده ، في صدر (رامش) المتهلج ، الدافئ . ولم تكن الظروف ملائمة للاستحياء أو الدلال ، فاستكانت في اطمئنان إلى ذراعيه اللتين ضمتهما إليه .

وغابت نجمة الصباح ، ودب الشحوب في سماء الشرق خلف النهر ، ثم احمر لونها . وكان (رامش) يرقد على الرمال في نوم عميق ، بينما توسدت العروس الشابة ذراعه ، واستلقت إلى جواره غارقة في النعاس . وما لبثت شمس الصباح أن ثارت على أعينهما في رفق ، فنبضا من نوبتهما . وظلا برهة يحملقان فيما حولها بدهشة ، ثم تبينا فجأة أنهما وحيدان ، طرحهما الموج على الجزيرة المنزلة ، بعيداً عن موطنهما .

الفصل الرابع

■ لم يمض وقت طويل ، حتى انتشرت الأشعة البيضاء على صفحة النهر .. أشعة قوارب صيد السمك : ونادى (رامش) أحده هذه القوارب ، واستعان بمن كانوا فيه من صيادين على استئجار قارب للعودة به إلى قريته ، كما اتصل قبل الرحيل بالبوليس ، للبحث عن رفاقه الذين تخلى عنهم الخط .

وعندما بلغ مرساة السفن في قريته ، علم أن البوليس عثر على جثث : أبيه ، وحاته ، وعدد من أقاربه ، وأنه قدر لبعض التوتية أن ينجوا . أما من عدا هؤلاء ، فقد اعتبروا مفقودين . وكانت جسد (رامش) قد بقيت في بيت الأسرة ، فاستقبلت حفيدها وعروسه بالعويل ، كما ساد التحيب دور كل أولئك الذين كانوا في موكب

(رامش) : « أتعرفين ما الذى جرى لمن كانوا في القارب ؟ »
فهزت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة . وعاد (رامش) يقول : « هل لك في أن تبقى وحده بضع دقائق ريثما أذهب للبحث عنهم ؟ » .. ولم تجب الفتاة ، ولكن جسدها المنكمش قال في بيان أبلغ من الكلام : « لا تدعنى هنا وحدى ! » .. وفهم (رامش) ضراعتها الصامتة ، فوقف وأخذ يجيل النظر فيما حوله ، ولكنه لم يلمح ما يتم عن أثر الحياة فوق الرمال المتألثة ، المترامية . وراح ينادى كلا من أصحابه باسمه ، وبأعلى صوته ، دون أن يتلقى جواباً « فلما تبين أن لا ثمرة لجهوده ، جلس ثانية ، وكانت الفتاة قد دفنت وجهها في راحتها ، تحاول أن تكبح دموعها ، غير أن صدرها راح يعلو ويهبط منهجماً .

وأوحى إليه غريزة خفية بأن كلمات العزاء — في حد ذاتها — لن تجدى في الترسية عن الفتاة ، فاقرب منها ، وأخذ يربت رأسها وعنقها في لطف . ولم تعد تقوى على احتباس دموعها ، فأنفجر حزنها قوياً ، في سيل من الشبهات المتلاحقة . وتدفقت الدموع من عيني (رامش) إشفافاً عليها . وعندما تمالكا نفسيهما ، كان القصر قد اختفى : فبدت لها الصحراء المقفرة في الظلام كحلم رهيب ، ولاحت الرمال البيضاء كطيف مستلق في الدياجير . وأخذ النهر يلمع هنا وهناك — تحت ضوء النجوم الواهن — كجسد حية رقطاء ، فأمسك (رامش) يبدى الفتاة — وكانتا رخصتين ، أثلجهما الخوف — واحتواهما بين راحتيه ، واحتجبتها برفق إليه . ولم تقاوم ، إذ سلبها الخوف كل شعور عدا الرغبة في أن تأنس إلى حضبة إنسان : وفي الظلام الدامس ، وجدت الحمى

العرس ، فلم تطلق المقدوفات النارية : ولا تعالت الصيحات والهنافات
ترحيباً بالعروس عند وصولها .. ولا احتفل بها أحد ، بل إن القوم
كرهوا - في الواقع - رؤيتها !

وكان (رامش) قد عقد العزم على أن يبرح وزوجته القرية بمجرد
انتهاء مراسم دفن الموتى ، ولكنه لم يستطع أن ينقل قدماً . قبل أن يسوى
شئون أبيه . وسألته الفكالي من نساء الأسرة أن يسمح لهن بالحج ،
فاضطر إلى اتخاذ التدابير لذلك أيضاً . ولم يكن - في سويغات راحته
من هذه الأمور المخزنة - ليغفل مطالب الحب : فإن عروسته لم تكن
تلك الطفلة التي صورتها له الأتية والأقاويل . بل إن نساء القرية تجنبن
فرغم أنها تجاوزت سن الزواج المألوفة . ولم يجد حامل (اللباس) الشاب
عزناً في الكتب ، يبصره بأساليب الهوى ! - على أنه أحس
بشعور غريبة يدفعه إلى الحساء الصغيرة .. بل إن ذهنه الذي اعتاد أن
يفكر على أسس من المنطق لم يقو على مقاومة فتنها ! .. وتمثلها في
خياله زميلة المستقبل وشريكته . وتوالت أمام عينيه - في أحلامه -
الرؤى التي تظهرها في مختلف نواحي الحياة : عروساً عذراء ، وخلياة
معبودة . وأما فاضلة طاهرة لأولاده ! .. وكما يقيم الرسام للصورة
المثالية - أو الشاعر للتقصيدة الكاملة التي يبتدعها خياله - عرشاً في
قواده ، و يروح يضفي عليها كل إعزاز ، ويوقف عليها كل ولاء ، فإن
(رامش) بوا هذه الفتاة الهيفاء ، الصغيرة القدة ، عرش خياله : كبهجة
لقواده ، وبشير بالفرح والرخاء في داره !

الفصل الخامس

■ قضى (رامش) ثلاثة أشهر تقريباً في تسوية شئون أبيه ، وفي تدبير
كل الإجراءات للحج الذي رغب فيه عجائز الأسرة : وبدأ بعض
الجزيران - في تلك الأثناء - يقدمون تحياتهم للعروس الشابة . وأخذ
الرباط العاطفي - الذي كان يشدها إلى (رامش) - يزداد توتقاً على
مر الأيام ، فاعتاد الزوجان الشبان أن يبسطا الحصائر على سطح الدار ،
وأن ينفقا الأمسيات تحت السماء . وأصبح (رامش) يستحل لنفسه
بعض المذاعبات ، فيفاجئها من خلف ظهرها ، ويضع يديه على عينيها ،
ويجذب رأسها إلى صدره .. فإذا غلبها النعاس في أوائل الليل قبل العشاء ،
تعمد أن يوقفها بمقاجة مزعجة ، معرضاً نفسه لآوم والعتاب ! .. وفي
إحدى الأمسيات ، أمسك بشعرها المعقوص ، فثره في مداعبة ،
وقال : « لست أحب يا سوسيلاً هذا الشكل الذي عقصت عليه شعرك
اليوم ! » فاعتذلت الفتاة في جلستها قائلة : « اصنع .. لماذا تصرون
جميعاً على أن تدعوني سوسيلاً ؟ » .

وحلق فيها (رامش) مأخوذاً ، حائراً ، لا يدري ما الذي كانت
تعنيه بهذا السؤال ، بينما استرسلت هي قائلة : « إن تبديل اسمي لن يغير
من حظي . لقد كنت منحوسة مذ كنت طفلة ، وسأظل منحوسة
ما حييت ! » .. وانبثق في فؤاد (رامش) شعور من خيبة الأمل ،
وغاض الدم من وجهه . وتسلط عليه فجأة يقين بأن هنالك ثمة خطأ
جسيماً .. خطأ ما لم يكن يدركه . فقال : « لماذا تقولين إنني
سيتة الحظ طيلة عمرك ؟ » .

.. لقد مات أبي قبل أن أولد .. ولم أكن قد بلغت الشهر السادس من عمري حين لحقت به أمي .. ولقد قضيت وقتاً من أسوأ الأوقات في دار خالي .. ثم بوغت بأنك جئت من مكان ما .. وأعجبتني .. فلم ينقض يومان حتى تزوجنا .. ولأنك لتعلم ما جرى بعد ذلك ! واستلقي (رامش) على حشيته حائراً .. وكان القمر قد برز .. ولكن شعاعه بدا في عينيه فاقد البهاء .. وأوجس من أن يوجه إلى الفتاة سؤالاً آخر .. بل إنه حاول أن يطرح عن ذهنه ما سمع .. وأن يجبره حليماً .. أو وهماً ! .. وهبت نسمة دافئة من الجنوب .. لطيفة كزفرة المستيقظ من نعاس .. وشرع طائر من طيور (الوقواق) يصدر في ضوء القمر بأنغام رتيبة .. وانبعث من الثوارب الراسية في المرفأ القريب غشاء النوتية .. وإذا تبينت الفتاة سكون (رامش) لكزته في .. فت .. متسائلة : « هل نمت ؟ » .. فأجابها : « لا » .. ولكنه لم يزد .. وما لبثت الفتاة أن استسلمت للنوم في دعة !

وإذا ذلك استوى (رامش) جالساً .. وراح يتأملها .. ولكنه لم ير على جبينها أثرًا للسر الذي خطله القدر .. ترى .. كيف تسنى لمثل هذا الشخص البقيض -- الذي أشارت إليه .. أن يستر وراء حسن كهذا ؟

الفصل السادس

● وما لبث (رامش) أن أيقن أن الفتاة لم تكن الزوجة التي عفا عليها قرانه 1 على أنه لم يكن من السهل أن يكتشف من كانت قد افترت .. وعن له مرة أن يسألها في لياقة .. فقال : « ما الذي خطر لك حين رأيتني

للمرة الأولى عند عقد قراننا ؟ » .. فأجابته : « إنني لم أولد .. إذ لم أوجه إليك بصرى طفلة الوقت » ..

رامش : « أوم تسمى اسمي على الأكل ؟ » :

الفتاة : « نعم سمعت عنك للمرة الأولى في اليوم السابق لرفافسا ، فقد كانت زوجة خالي تتجمل الخلاص مني ، إلى درجة شغلها عن أن تذكر لي شيئاً .. ولو اسمك ! » :

رامش : « لقد علمت -- بهذه المناسبة -- أنك تعرفين القراءة والكتابة ، فهل تراك قادرة على كتابة حروف اسمك ؟ » .. وقدم لها ورقة وقلمًا ، فصاحت في استهجان : « لعلك تحسبن أجهل حروف اسمي ! .. إنه في الواقع سهل الفجاء » ، وكتبت بحروف كبيرة : « مريماني كمالا ديبى » ..

رامش : « والآن - اكتبى اسم خالك ! » :

وكتبت (كمال) : « مريخوكتا تاريني تشاران تشانوبادياي » .. ثم تساءلت : « أتراني أخطأت ؟ » .. فأجابها : « لا .. ولكن ، هلا كتبت اسم قوتك ؟ » .. فككت : « دوبابكور » .. وبمثل هذه الحيلة لم يابث (رامش) أن يجمع عدداً من البيانات عن حياة الفتاة .. على أنه ظل رغم ذلك أبعد ما يكون عن الغاية التي كان يسعى إليها من وراء أسئلته ، ومن ثم عكف على تدبير خطة يتصرف بمقتضاها في المستقبل .. كان الاحتمال الغالب أن زوجها غرق .. ولو أنه اهتدى إلى أهل هذا الزوج .. وأرسل إليهم (كمال) : « فمن المشكوك فيه أن يقولوا بينهم .. ولم يكن من الإنصاف أن ترد إلى دار خالها .. » ..

ما ظهر أنها كانت تقيم كل هذا الوقت مع رجل غير زوجها ، كزوجة له ؟ .. وأين إذن تجد المأوى والرعاية ؟ .. وألو اقترضا أن زوجها كان حياً ؟ فهل من المحتمل أن يرغب في استعادتها : أو أن يقدم على ذلك ؟ !

وشعر (رامش) بأنه إذا أقدم على أي تصرف من هذا القبيل ، لأتقى بالفاتنة في عرض بحر لا أول له ولا آخر ، وليس ضا فيه من هاد ولا دليل ! .. وما كان يوسعه أن يستيقظا معه بأى اعتبار ، سوى اعتبار أنها زوجته ، كما لم يكن يوسعه أن يسلمها إلى أى امرئ آخر . ومع ذلك ، فما كان له أن يعيش معها كزوج يعيش مع زوجته ! .. وأصبح من واجبه أن يمحو الصورة الفاتنة التي رسمها هذه الفتاة ، كثريرة لحياته المقبلة . رغم أنه أبدع في رسمها ، وأسبغ عليها ألواناً وضوءاً مزجها له الحب ! .. كذلك لم يعد في الإمكان أن يقيم معها في قريته . أما بين الحشد الزاخر من السكان الذين تكتنف بهم (كلكتا) ، فلن يكون أكثر من فرد مغمور .. ولعله يستطيع هناك أن يهتدى إلى حل . ومن ثم انتقل بكالا إلى (كلكتا) . وأقام معها في مسكن ناء عن ذلك الذي كان يشغله من قبل .

ووجدت (كالا) في الانتقال تجربة مغيرة .. فما أن استقرا في مسكنهما يوم وصولهما ، حتى لزمت الفاتنة ! .. كان السيل الأدبي الذي يندفق دون انقطاع تحت بصرها ، كقبلا بأن يثير في نفسها فضولا لا مبدل إلى إشباعه . وكان (رامش) قد استأجر لخدمتها امرأة ثيباً لم تكن طرقات (كلكتا) بالجديدة عليها ، ومن ثم أخذت ترمق عجب

(كالا) وكأنه يون من الترق : وما لبثت أن حققت بها : ما الذي يدهشك في هذا المنظر ؟ .. أو لن تنهض للاغتسال ؟ .. إن الوقت يضى سراعاً ! ..

وكانت المرأة مكلفة بخدمتها طيلة النهار . على أن تصرف في المساء إلى دارها . إذ عز عليها أن يبتدا خادماً ثابت معها . وقال (رامش) لنفسه : « لم أعد أملك أن أنام مع (كالا) : ولكن كيف تقضي الصغيرة لياليها وحيدة في مكان لم تألفه ؟ .. وما أن انصرفت الخادم عقب العشاء ، في الليلة الأولى — حتى قاد (رامش) (كالا) إلى مخدعها ، وقال : « حسن بك أن تأوى الآن إلى فراشك ، وسألتك بك بعد أن أفرغ من القراءة ! .. وفتح كتاباً ، وتظاهر بالقراءة .. وكانت (كالا) متعبة « فلم ثابت أن نامت .. وأفلحت الحيلة في الليلة الأولى ! وكذلك بعد (رامش) في الليلة التالية إلى إسلام (كالا) إلى السرير وحيدة . وكان الحر شديداً . ففشر ملاءة على أرض الشرفة المتصلة بالمخدع ، وقدر أن يقضى ليلته هناك . وظل فترة طويلة مستغرقاً في التفكير ، مستروحاً النسيان ، ولكنه ما لبث — حوالى منتصف الليل — أن استغرق في السبات . غير أنه انتبه من نومه في نحو للساعة الثانية أو الثالثة صباحاً ، على شعور أوحى إليه بأنه لم يكن وحيداً .. كان ثمة من يتطبل له النسيان بمروحة ! .. وفي شروذ النائم ، جذب للفتنة نحوه قائلاً بصوت أثقله النعاس : « ألا اذهبي فاني باسوسيل . ودعي الترويح عنك ! .. ولكن الخوف من الظلام زين لكالا أن تستكين إلى حضن (رامش) ، ومن ثم شعرت أن يوم عاشق

واستيقظ (رامش) مبكراً في الصباح : فأجفل مأخوذاً ، إذ كانت (كمالا) نائمة وقد ضوقت عنقه بذراعها اليمنى ! .. كانت قد فرضت نفسها عليه ، في ثقة عذبة مفعمة بالإغراء . فتوسدت صدره : واغرورت عنابه وهو يتأمل الفتاة النائمة .. كيف يجرؤ على أن يفك الأنشودة الناعمة التي طوقت بها الفتاة عنقه في اطمئنان ؟ .. وتذكر أنها تسالت إلى جواره في الليل ، لتروح مستجلبة له الهواء . وأرسل زفرة حارة ، وأخذ يتحايّل حتى تخلص من عناقها في رفق ، ثم نهض :

■ قرر (رامش) - بعد تفكير طويل ، قلق - أن يلجأ إلى حل مؤقت للمشكلة ، بأن يلحق (كمالا) بمدرسة داخلية للبنات . ومن ثم شرع يزين لها الفكرة « فسألها » هل تحب أن ترددي علماً يا كمالا ؟ .. فطلعت إليه الشابة بنظرة قالت بلغة أفصح من الكلام : « ما الذي ترى إليه ؟ » .. فأخذ يسهب في الحديث عن فوائد التعلم ، وما في الدراسة من متعة . وما كان أخراه بأن يوفر على نفسه الكلام : إذ كان كل ما قالته (كمالا) هو : « حسناً ، إذن فعلمني ! » .. فقال (رامش) : « سأخفك بمدرسة ! » ، فهتفت في عجب : « مدرسة ! ! » أو تذهب فتاة كبيرة مثلي إلى المدرسة ! ! .. وابتسم إذ أسندت احتجاجها إلى السن ، ثم قال : « إن من يذهبن إلى المدرسة من يكبرنك في السن كثيراً ! » .

ولم تجد (كمالا) ما تقوله بعد ذلك . وفي أحد الأيام « استقلت عربية مع (رامش) إلى المدرسة ، فإذا بها مؤسسة كبيرة ، لا يكاد

المرء يحصى من كنّ فيها من فتيات : مدين من يكبرن (كمالا) ومنهن من يصغرنها ! .. ووكلتها (رامش) إلى رعاية ناظرة المدرسة ، حتى إذا همّ بالانصراف ، تحركت وكأنها تبني أن تصحبه ، فقال لها : « إلى أين تنصرفين ؟ .. لسوف تمكثين هنا ! » .. فسألته في صسوت مرتجفة : « أولن تمكث أنت الآخر ؟ » .. قال : « لست أملك البقاء ! » : عند ذلك أمسكت (كمالا) بيده ، وقالت : « إذن ، فليس لي أن أبقى أنا الأخرى .. نخذي معك ! » .. فقال وهو يخلص يده من يدها : « لا تكوني غيبة يا كمالا ! » .. وأفحم هذا التائب (كمالا) ، فلم تحر كمالاً ، وبمرت في مكانها كالمأخوذة وقد بدا وجهها مسرّحاً لاختلاجات مؤثرة : وأسرع (رامش) إلى الخروج بقلب أقله الألم . على أنه - رغم تعجّله - لم يستطع أن ينسى منظر ذلك الوجه الجميل ، الصغير ، المرتاع !

الفصل السابع

■ اعترم (رامش) بعد ذلك أن ينصرف إلى ممارسة الحمامة أمام محاكم (آليور) في (كلكتا) . على أنه كان فاطر المهمة ، إذ كان ينقصه الحافز الذي يدفعه إلى العمل في سبيل غاية معينة ، وإلى تدليل كل العقبات التي تعترض طريق الحافز الناشئ . وبدأ يكثّر من المشي على غير هدى - أو لغير ما غاية - عند جسر (هوراه) ، أو حول (ميدان الكلية) . وكان قد شرع يفكر في القيام برحلة إلى المناطق الشمالية الغربية ، حين تلقى رسالة من (أنادا بابو) ، حوّلت إليه من يده . وكان الشيخ

الجليل قد كتب له : « طالعت في صحيفة (الجازيت) نبأ لنجاحك ، فأتيت أن لا أسمع هذا النبأ منك شخصياً . ولقد انقضى أمد طويل لم تحظ فيه بأخبارك . فن واجبك أن تخفف من قلق أصدفائك القدامى ، ولذا نرجو أن تكتب إلينا عن صحتك ، وعن موعد حضورك إلى كاكنا ! .. وما نراتنا نخرج عن الموضوع إذا ذكرنا هنا أن الشباب الأتخر الذي كان يدرس في إنجلترا - والذي كان (أنادا بابو) يضع - يته عليه كزوج لابنته - كان قد أتم دراسته . وسمح له بممارسة المرافعة أمام المحاكم . وعاد إلى الهند فتزوج من شابة ثرية !

وساور الشاك (رامش) - فترة طويلاً - فيما إذا كان من حقه ، بعد كل ما جرى - أن يحدد علاقته بهمناليني على النسق الذي قامت عليه في الماضي . إذ ما كان له ... في حاضره - أن يحيط الناس عن حقيقة علاقته بكالا . مهما تكن الظروف . فقد كان يشفق على الفتاة البريئة مما يعرضها له هذا التصرف من فضيحة وخزي في نظر المجتمع : ومع ذلك ، كان من واجبه ، إذا شاء أن يستأنف علاقته الأولى مع (همناليني) ، أن يبرح لها بكل شيء ١ .. على أنه - في أي الحالين - لم يجد من الكياسة أن يبطئ في الرد على خطاب (أنادا بابو) ، ومن ثم كتب له : « أرجو أن تغفروا لي عدم زيارتي لكم ، فقد حالت دون ذلك ظروف فوق إرادتي ! .. ونعمد لإغفال ذكر عنوانه الجديد . وفي اليوم التالي ، ابتاع الزى التقليدي للمحامين ، وظاهر لأول مرة في محكمة (آلبور) .

وفي ذات يوم ، راق لرامش أن يقص بعض الطريق على قدميه ،

وهو عائد من حي المحاكم . وإذ هم بأن يستأجر عربة لنقله إلى البيت ، سمع صوتاً مألوفاً لديه ، يهتف في عجب : « آيت .. هاهو ذا رامش بابو ! .. » وانبعث صوت رجل يصيح : « قف أيها الخوذي .. قف ! » . وقد وقفت عربة على مقربة من المكان الذي وقف فيه (رامش) . فقد كان (أنادا بابو) وابنته عائدتين من نزهة استغرقت نهارهما في حدائق حيوان (آلبور) ، ومن ثم كان هذا اللقاء . وما أن وقع بصر (رامش) على (همناليني) في العربة .. (همناليني) بوجهها السمع اللطيف ، وزينا ، وشعرها المنسق على ذلك الخط الذي ألفه ، والفرطين الكبيرين ، والأساور الذهبية المحيطة بمعصمها .. ما أن وقع بصر (رامش) على كل هذا : حتى اجتاحت صدره موجة من الانفعال العاطفي هزت كيانه جزاً !

وهتف (أنادا بابو) : « هذا إذن رامش ! .. أي حظ أتاح لنا أن نلقاك هكذا في الطريق ! .. لقد كشفت الآن عن الكتابة إلينا ، وحتى عندما كتبت لم تعطنا العنوان .. إلى أين أنت ذاهب الآن ؟ .. هل أنت ذاهب لتأدية مهمة خاصة ؟ .. فأجاب (رامش) : « لا .. إنما انصرفت لتوى من المحكمة » .

- إذن ، تعال فتناول الشاي معنا . وكان قلب (رامش) مفعماً بالشوق ، ولا مجال فيه للتردد ، فصعد إلى العربة ، وجلس وهو يغالب الحياء والإحجام بجهد جبار . وسأل (همناليني) عن صحتها . وبدلاً من أن تجيبه ، سألته : « لماذا لم تلبثي بنجاحك ؟ .. » ولم يسعه ذلك بحجاب ، فاكتمت بأن قال :

« لقد علمت أنك الأخرى نجيحت .. وضجكت (هناليقي) قائلة :
« إذن ، فأنت لم تنسنا تماماً ! حسناً . إن هذا يبشر بشيء من الطمأنينة ! » .
وسأله (أنادا بابو) : « وأين نقيم الآن ؟ » فقال (رامش) :
« في حي دارد جيبارا » .. وإذ ذلك قال الشيخ الحليل : « ولماذا ؟ »
إن مسكنك القديم في حي (كالوتولا) كان ملائماً ! » .. وحذقت
(هناليقي) في (رامش) باهتمام . مشوقة إلى سماع جوابه . ولم تغب
هذه النظرة عن (رامش) ، بل لقد أحس بالعتاب الذي تطوت عليه ،
فقال متلعثماً : « أجل .. لقد اعتزمت أن أعود إليه ! »

● وكان (رامش) موقناً بأن (هناليقي) قد أقامت من نفسها
حكماً عليه . ومن ثم وجد نفسه أمامها مذبذباً ، وكأنما كان تغيير مسكنه
جريمة خطيرة ! .. وأثار الشعور بالذنب في نفسه شجناً مؤلماً .. وعجز
ذهنه عن أن يلهمه حجة واحدة للدفاع عن تصرفه : على أن هذا
التحقيق دار في صمت .. مؤقتاً .. وتعمدت (هناليقي) أن تثبت بصرها
على الطريق مشبعة عنه . حتى إذا ثقل الصمت ولم يعد لرامش قبيل
باحتماله . تطوع لأن يذكر لها طرفة من سبب تغيير مسكنه ، قائلاً :
« إنني قريباً نقيم بالقرب من (هدوا) . ولذلك أقت في (دارد جيبارا)
حتى أكون على اتصال به ! .. ومع أن هذا لم يكن كذباً خالصاً ،
إلا أنه بدا تزيهراً ناقصاً ، يثير الاستنكار .. كأنما لم يكن حي (كالوتولا)
قريباً من حي (هدوا) بحيث يفتح له أن يطمئن من آن إلى آخر على
قريب له بعيد النسب !

وظلت (هناليقي) تتحدث في الطرق . فراح (رامش) المسكين
بعضر ذهنه بحثاً عن شيء يقال . وما ليث أن تسأل : « ما أخيار
جوجين ؟ » .. ولكن الجواب جاءه من (أنادا بابو) ، إذ قال :
« لقد أخفق في الامتحان النهائي للقانون . فذهب إلى الريف لتغيير
لهواء ! » .. وإذ بلغت العربية غايتها ، فعل المسكين المؤلف والأناث
فعل السحر في نفس (رامش) « فأرسل زفرة عميقة : امتزج فيها
الارتياح والحسرة بشكل عجيب ! .. وجلس دون أن يابس بينت
شفة . وفجأة . قال (أنادا بابو) : « لعلها أعمال هامة تلك التي حملتك
على البقاء طويلاً في قريبتكم ؟ » فقال (رامش) : « لقد مات أبي .. »
ولم يتم عبارته . إذ صاح الشيخ : « أحق هذا ؟ .. وكيف كان ذلك ؟ »

.. كان عائداً إلى القرية في قارب على نهر (بادما) ، حين هبت
عاصفة مبالغية . فاقبل به التيار . وكان من بين الذين غرقوا :

واكتسح هذا النباء ما كان بين (رامش) و (هناليقي) من فتور ..
كما تجرف الريح السحب من السماء ، فلا يابث أن يسودها العصور .
وقالت (هناليقي) لنفسها في أسف : « لكم أخطأت في حق رامش
بابو .. كان مشغولاً بحزنه على فقدان أبيه ، وبما ترتب على ذلك من
متاعب . ولعله لا يزال حزيناً حتى الآن .. ولكننا اعتبرناه مذبذباً ،
ولم ينظر لنا قط أن انشغاله عنا قد يكون راجعاً إلى متاعب عائلية
أو أعباء من هذا القبيل ! .. ومن ثم تحولت تغدق رعايتها على الشاب
اليتيم ! .. فلما لاحقت أنه لم يصب شيئاً مما كنا نرجو ، قالت :

« أرى أنك لست في صحة طيبة .. يجب أن تعني بصحتك ! » - ثم انتفتحت إلى (أنادا بابو) قائلة : « يجب أن يتناول رامش بابو عشاء الليلة معنا يا أبت ! .. فقال السيد الكهل : « بالتأكيد يا ابنتي ! »

● وفي تلك اللحظة - وصل (أكشاي) - وكان ظهور (رامش) غير المرتقب صدمة ساءته ، بعد أن ظل زمناً بغير مزاحم أو غريم على مائدة الشاي يدار (أنادا بابو) . بيد أنه تمالك نفسه ، وهتف في جوار : « ما هذا ؟ .. أأنت هنا يا رامش بابو ؟ .. ألا ترى أنك قد نيت وجودنا تماماً ؟ .. فاكنتي (رامش) بابتسامة واهنة . ولكن (أكشاي) مضى في حديثه : « عندما رأيت كيف حملك أبوك على الرحيل - أيقنت أنه ولا بد سيعتقلك إلى أن يتم تزويجك .. فهل استطعت أن تفر من هذا المصير ، بعد الذي جرى ؟ .. ورمقته (هناليني) بنظرة نائمة عقدت لسانه : « وإذ ذاك قال (أنادا بابو) : « ولقد رزئ رامش في أبيه يا أكشاي .. ونكس (رامش) رأسه ، ليخفي الاصفار للذي كسا وجهه فجأة ، عند ذكر الزواج . وسارعت (هناليني) تسرى عنه ، وهي محقة على (أكشاي) لتحرشه به . فقالت : « إنني لم أطلعك بعد على مجموعة صوري الجديدة » يا رامش بابو .. وأحضرت (الألبوم) فوضعتها على المائدة أمام (رامش) ، وشرعت تعادله عن الصور . وانتبهت الفرصة لتقول له بصوت خافت : « أظنك تقيم وحيداً في مسكنك الجديد يا رامش بابو ؟ » . فأجاب : « أجل .. وحدي » .

— حسناً . يجب أن تنتقل بأسرع ما تستطيع إلى مسكنك القديم الجاور !

— نعم . سأنتقل إليه يوم الاثنين القادم مهما حدث ! فاستدرت قائلة في تخابث : « الواقع انني سأحتاج إلى معونة منك . بين آن وآخر - في دراسة الفلسفة - لأحصل على « بكالوريوس الآداب » .. واغبط (رامش) لمده الفكرة !

الفصل الثامن

● وقبل أن يمضي وقت طويل عاد (رامش) إلى مسكنه القديم . ولم يبق أثر لغيره التي خيست على علاقته بهناليني . بل إنه اعتبر كأحد أسماء البيت . فكان يشترك في اندعابات العائلة ، ولم يفته قط الحضور في أية مناسبة من المناسبات التي كانت الأسرة تحفل بها . وكان منزل استغراق (هناليني) في الاستدكار قد شفى جسمها . حتى كانت المرة - يحال أن التسمي يوشك أن يتصف عودها !

وكانت (هناليني) - قبل عودة (رامش) - كثيرة التحفظ والصمت . حتى أن أصدقاءها كانوا ينجمون عن الإلحاح عليها بالحديث . خشية أن تردهم في جناء . على أن الأيام القلائل التي تلت عودة (رامش) إلى مسكنه القديم أحدثت تطوراً مدهشاً في مظهرها ومسلكتها .. فحلت محل صفة خديها حمرة خفيفة ، وأصبحت عيناها ترقصان طرباً مع كل كلمة تنطق بها : « ولقد مرت عليها فترة كانت ترى فيها أن من الطيش - بل من الإحجام - أن تدي اهتماماً كبيراً

بالتيباب . ولكن أحداً لم يقدر له أن يدرك سر ما طرأ عليها اليوم من تطور في هذا الصدد . فإ كانت لتضئ بدخيلة نفسها إلى أحد . أما (رامش) : فكان كالعهد به دائماً « مخرجاً » مرهف الضمير . كمن يخشى أن يصدر عنه ما يؤاخذ عليه ؟ .. كان الشعور بالمسئوليات يثقل جسمه وعقله . على السواء : وما كان ليحيد عن عاداته ولو تغير نظام الكون ! .. كان أشبه بالفلكي : لا بد من أن يقيم مرصده وكل أدواته على أسس وقواعد ثابتة ، رغم أن الكواكب تمضي في أفلاكها طليقة ، حرة من كل قيد ! .. وكان لا يحفل ببرج الدنيا وضمجيجها ، ليستغرق في كتبه وما كانت تتضمنه من فلسفات . على أن وميضاً من الخفة والمرح — اللذين لم يكن له بهما عهد — أشرق اليوم في ظلام مسلكه المتزمت . ومع أنه ظل يمدح عناء في ترويض نفسه على إلقاء النكات والفكاهات ، إلا أنه أصبح لا يتورع عن أن يبدي تقريره للملحة الطيبة ، أو الدعاية البريئة . وإذا كان شعره قد ظل عروماً من المعاجين والعلب ، إلا أنه لم يكن قط زرى التيباب .. ولاح أن جسده وعقله أصبحا أكثر نشاطاً ومرحاً !

الفصل التاسع

■ تنقذ (كلكتا) — أكثر من أية مدينة أخرى — كل تلك المعالم التي اعتاد الشعراء أن يرسموها للبيئة التي تليق بالعشاق من الشباب . فاليساتين المزهرة ، والأشجار النورفة ، والخيال الملتصقة في أوراق النباتات الزاحفة ، وأنغام طائر (الوقواق) الصداح .. كل هذه معالم لا وجود لها في (كلكتا) . ومع ذلك فإن (الحب) الساحر يأبى

أن ينسحب منزماً من المدينة الحديثة الحالية من الخضرة والجمال : ومن ذا الذي يستطيع أن يتعقب هذا الإله — أصغر الآلهة وأقدمها معاً — في جولاته . وهو ينساب بقوسه وسط حركة المرور الزاخرة ، متسللاً خلال مركبات الترام الفولاذية الجدران : ومتوارياً عن عين رجل الشرطة ذي العمامة الحمراء ؟ ! .. فلقد كان (رامش) و (هناليني) يسكنان بيتين من بين مجموعة من بيوت حي (كالوتولا) تواجه حانوت إسكافي « وتجاور متجر بدال : ومع ذلك انساب غرامهما في سرعة ويسر ، وكأنهما كانا يقفان في خيلتين شاعريتين ! .. ولم يضر (رامش) في شيء أن تفضي الظروف بأن تكون لقاءتهما حول مائدة (أنادا بابو) العتيقة ، الصغيرة : ذات الغطاء الملطخ ببقع الشاي ، بدلا من أن تكون حول بحيرة تتناثر على سطحها زهور الاوتس ! .. وما قدر لأي فتى ريفي — من العشاق الذين تصورهم الأساطير — أن يداعب الحمل الوديع الذي تعثر به حبيبته . يمثل ذلك الوجد الفياض الذي كان (رامش) يبديه وهو يتحسس عنق القط الذي كانت (هناليني) تعثر به ! .. وكان القط إذا ما قوس ظهره ، ونهض متمطياً ، بدا لعيني الشاب المفتون أجمل المخلوقات التي يكسوها القراء !

كذلك كانت (هناليني) قد أهملت الخياكة والتطريز ، عندما وقفت كل تفكيرها على الاستعداد للامتحان . ومن ثم قضت وقتاً في تلقى بعض الدروس على يدي إحدى صديقاتها . على أن (رامش) كان يرى في التطريز عملية غير لازمة ، وغير جديرة بأنغام جدى ..

فقد كان في وسعه أن يلتقي بهمنالني في ميدان الأدب وأحاديثه ، أما فيما يتعلق بأشغال الإبرة . فلم يكن له ثمة مجال لارتياح ميدانها ! .. وكان لا يفتأ يهتف بحبيبه في شيء من العتاب : « قم شغلك بالتطريز في هذه الأيام ؟ .. إنه ملهأه أولئك اللاتي لا يجدن عملاً يفضلنه ! .. » فكانت (همنالني) تبسم في صمت ، وهي منهكة في إيلاج الخيط في ثقب إبرتها .

وخطر لأكشاي يوماً أن يقول في ضربة لأذعة : « إن رامش بابو يزدرى كل شيء في الدنيا له نفع ! .. إنه قد يتخذ من أي فيلسوف أو شاعر إلهاً مَجُوداً . ولكن ما درج عليه من استهانة بكل شيء ذي قيمة » لا يلبث أن يعيد به عن الاستغراق في العبادة ! .. وأثار هذا القول تأثيراً (رامش) فتأهب لجدال حامي الوطيس . بيد أن (همنالني) اعترضته قائلة : « لماذا تحفل دائماً بالرد على ما يقال يا رامش بابو ؟ .. ما أكثر ما في الدنيا من لقو لا قيمة له ! .. » وانحنى تخصي عدد الغرز التي صنعتها لإبرتها ، ثم عادت تدس الإبرة بانتباه خلال الحرير ..

ودخل (رامش) ذات يوم حجرة مكتبه . فلذا على مائدة الكتابة كراسة من ورق النشاف . في غلاف من حرير مزين بزهور مطرزة . وفي أحد الأركان : نقش الحرف « ر » . بينما نقشت زهرة « الونس » في ركن آخر بخيط من القصب . ولم تساور (رامش) الحيرة طويلاً . فلما لبث أن فطن إلى شخصية صاحبة الهدية . وإلى الباعث الذي حملها على تقديمها . فسارعت دقات قلبه . وتلاشى كل احتقاره لأشغال

الإبرة ، فانتقلب في لحظة إلى متحمس لهذه الأشغال « متأهب للدفاع عنها أمام كل إنسان . وإذ ضم كراسة ورق النشاف إلى صدره ، بدا مستعداً لأن يعترف بخطئه : ولو لأكشاي نفسه ! .. وفتح الكراسة ، فوضع فيها قطعة من الورق « وراح يكتب : « لو أنني كنت شاعراً : لأرسلت لك نسخة من أشعاري .. أما وأنا كما تعرفين . فإني عاجز عن أن أقدم لك ما يتكافأ مع هديتك . لقد حرمت نعمة البذل » ولكن ثمة نعمة في الأخذ .. إن ما تحته هذه الهدية غير المرتقبة ، فهو سر بين الإله العليم ونفسي ! .. والهدية ذاتها قد ترى وتلمس ، أما عرفاني للجميل فشيء لا يرى ولا يلمس ، وإنما يكفيك أن أذكر لك أنني سأنزل إلى الأبد مديناً لك — رامش » .. وثقلت (همنالني) الرسالة . ولكنها و (رامش) لم يشيرا إليها بعد ذلك قط !



■ وأقبل فصل الأمطار .. والأمطار تدخر فوائدها عادة للريف « أما لأهل المدن ، فهي ليست نعمة مشتهاة ، إذ تنجس الجهود بأسرها إلى تقادى الليل « وفي سبيل هذا يغلق أصحاب الدور نوافذهم ، ويعززون ستوفهم » ويرفع عابرو الطرق المظلات فوق رؤوسهم ، وتسدل متائر مركبات الترام .. ومع ذلك يظل الجميع يخوضون في الماء والوحل طيلة الوقت . هذا : بينما يستقبل النهر ، والجبل ، والغابة ، والحقل ، مقدم المطر ، بصيحات الترحاب ، وكأنه صديق حميم .. ولكم ترى المطر في أبيي آياته ، في بينته الطبيعية ! .. فعندما تتحد أصوات السماء والأرض لحية السحب المطيرة ، يغيب كل شيء ناشئ ! .. والعشاق

ما أوتيته من لباقة وبلاغة . وقد أسدل أفتانه بهمناليني ستاراً كثيفاً على نظرتة إلى شئون الحياة الاجتماعية ، فلم يفتن إلى ما ينبغي أن يكون بعد هذا الانسياق للهوى ! .. وكان (أنادا بابو) يفرس في وجهه كل يوم : مستطعاً ، متسانلاً ، فلا يتلقى الجواب المرتقب !

الفصل العاشر

■ لم يكن صوت (أكشاي) بالرخيم ، ولكن أى ناقد ما كان ليردد في أن يسأله المزيد إذا ما غنى وهو يعزف على قيثارته ! .. ولم يكن (أنادا بابو) شديد الشغف بالموسيقى ، بل إنه ما كان ليزعم ذلك ولو على سبيل المجاملة ، إلا أنه ألقى وسائله الخاصة التي كان يلجأ إليها إذا ما رأى أن محبي الموسيقى قد أسرفوا في إرضاء ميولهم على حسابه . فإذا سأل أحد (أكشاي) أن يمضى في الغناء من جديد ، تدخل (أنادا بابو) قائلاً : « ما ينبغي لك هذا في الواقع .. إنكم لترهقون المسكين نجهد أنه يجيد الغناء ! » .. وكان (أكشاي) يرد في لباقة : « هذا صحيح يا أنادا بابو ، فلا تأبه لهم .. ولكن « من الظالم ومن المظلوم في هذا الإرهاق ؟ » .. فيقول الشخص الذي سأل أن يغنى ! « هذا ما مستقره بعد أن تجود علينا بأغنية أخرى ! » .

واكفهرت السماء بعد ظهر ذات يوم بسحب ثقال ، وأخذ الليل يقترب دون أن يكف المطر عن الانهمار . وحال السيل دون انصراف (أكشاي) ، فاقترحت (همناليني) عليه أن يغنى ، وشرعت في ضبط أوتار (بيانو) صغير (من ذلك النوع الذي يسبل نقله ، والذي نستخدمه في البنغال) ، فضبط (أكشاي) بدوره أوتار قيثارته .

الشبان يرحبون بالمطر كالجناب ! فإذا كان انهماره لم يزد (أنادا بابو) سوى هم ، إلا أنه لم يقو على أن يفرق روجي (همناليني) و (رامش) ! .. وكثيراً ما كان المطر يحول دون ذهاب (رامش) إلى المحكة . إذ أخذ يهطل بغزارة يوماً بعد يوم « إلى درجة كانت تدفع (همناليني) إلى أن تقول لرامش وهو يتأهب للانصراف من دارهم بعد تناول الشاي : « كيف تستطيع أن تعود إلى دارك في مثل هذا الجو يا رامش بابو ؟ » . فيجيب رامش في استحياء : « هذه مسألة بسيطة .. سأستطيع ذلك بطريقة ما ! » .. فتقول (همناليني) مستحثة : « ما الجدوى من أن تبذل وتصاب بهر ؟ .. من الأفضل أن تمكث لتتناول العشاء معنا ! »

ولم يكن (رامش) بالذي يخشى على صحته . فلاحظ أصدقاؤه وأقاربه أنه عرضة للتأثر بالبرد بسهولة . ومع ذلك ، فقد أخذ ينصاع بسرعة مدعشة لما كانت تخليه عليه (همناليني) في الأيام الممطرة . وأصبح السير تحت المطر -- ولو الخطوات القلائل التي تقضى به إلى داره -- يعتبر تهوراً آثماً ! .. وعندما كانت السماء تبدو أكثر اكفهراراً وإنذاراً بالسيل من المألوف ، كان (رامش) يبدى إلى غرفة (همناليني) ليشارك في الغطور أو العشاء ، حسب الوقت ! .. وكانت (همناليني) لا تخشى على جهازه الهضمي من الأكل خشيتها على صدره من البرد ! .. وهكذا ، راح الشبان يقضيان أيامهما -- يوماً بعد آخر -- متدثرين بعواطفهما ! .. ولم يفكر (رامش) مطلقاً في نتيجة هذا كله . ولكن (أنادا بابو) فكر فيه ، كما وجده أصدقاؤه وأقاربه مادة لأحاديثهم ! .. فإن ما أوتيته (رامش) من وعى بالأمور الدنيوية ، لم يكن يعادل

تظوته بنظرة حاملة ، إذ كان صدر الخن قد استولى عليها ! .. وكان لطرا قد كف لحظة عن التساقط ، ولكن ، ما أن عاد (رامش) إلى داره ، حتى عاد الماء ينصب انصباباً .



● ولم يَم (رامش) في ليلته . وكذلك جلست (همنايني) في ظلام مخدعها طويلاً : تنصت بوعي شارد إلى وقع قطرات المطر ، وكلمات الأغنية الأولى تتردد في أذنيها . حتى إذا كان الصباح التالي ، قال (رامش) لنفسه : « آه .. لبتني أجيد الغناء ! .. ما كنت لأحجم عن التزول عن أية موجبة من مواهي في مقابل هذا ! » .. ولكنه كان يدرك أن أي لون من ألوان التدريب لا يمكن أن يجعل منه مغنياً ، وإن كان في وسعه أن يتعلم العزف على أية أداة موسيقية . على الأقل ! .. وتذكر أنه في إحدى المناسبات : وجد نفسه وحيداً في قاعة الجلوس في دار (أنادا بابو) ، فأجروى القوس على أوتار القيثارة .. وكانت هذه الجمرة الواحدة . كافية لأن يجعله يهفو إلى تعلم الموسيقى ! .. على أن إله الموسيقى راح يلومه في عنف .. في أحلامه .. ويوحى إليه بأن الاتجاه إلى إجادة العزف على القيثارة أمر لا ينبغي أن يطمع فيه . ومن ثم خفف من غلوائه . واشترى معزفاً (بيانو) صغيراً ، وضعه في غرفته . ثم أوصد الباب ، وشرع يجرب عليه إصبعه في حذر . ولم يطل به الوقت حتى تبين أن (البيانو) الصغير أقل إجهاداً وتطلباً للبراعة من القيثارة !

وعندما ظهر في دار (أنادا بابو) بعد ذلك (همنايني)

ثم انطلق يغنى مقطوعة هندوكية . ولم تكن لغة الأغنية مألوفة للسامعين ، ولكن غموض الكلمات لم يضاهقهم في شيء .. فإن أنفص الإشارات ترضى النفوس ، إذا ما كانت المشاعر في أوج جيشاتها . وكان المعنى العام للأغنية واضحاً : كانت السحب المطيرة ترسل قطراتها ، والطواويس تصيح ، وثمة عاشق ينوح من أجل حبيبته ! .. وكان (أكشاي) يحاول أن يثبت أغنيته ما كان يعتلج في فؤاده من مشاعر لا يمسح على البوح بها ، ولكن محاولته لم تنجح إلا في تحريك عواطف شخصين آخرين ، كانا على مقربة منه .. فإذا فلبان يخفقان في نجاب ، ويغوصان في لجج الخن ! .. ولم يعد في الدنيا شيء يلوح لهما تافهاً أو قائماً ، وإنما بدت الدنيا لهما ملتفة في غلالة من ضباب وردي .. وكأنما اجتمع كل ما خفقت به قلوب البشر من وجد — منذ الخليفة — ثم أخذ ينهر على هذين العاشقين ، ويتغافل في كيانيهما بكل ما كان يحتويه من لذة وعذاب ، ومن حنين وأسى !

ولم ينقطع المطر .. ولا الغناء ! .. ولم يكن على (همنايني) سوى أن تقول : « لا تسكت يا أكشاي بابو ، بل اسمعنا أغنية ثانية » ، فيتعلق (أكشاي) — دون أي تمنع — في أغنية جديدة ! .. وعزف فيها عزف ، وهو يغنى ، لحناً كأفواج من سحب قائمة مدسمة ، يمرق البرق خلالها . لكن الخن كان رغم ذلك يثير كوامن الشجن في القلب البشري ! .. وكان الليل قد اكتمل عندما انصرف (أكشاي) إلى داره في تلك الليلة . وإذا تأهب (رامش) للانصراف « رمق (همنايني) لحظة ، وكأنه يتأملها خلال صدى أنغام الأغنية .. واستقبلت (همنايني)

مجمالة . « سمعنا بالأمس شخصاً يعزف على (البيانو) الصغير في مسكنك ! » .. وكان (رامش) قد ظن أنه بإغلاق الباب يصبح بمنجى عن الأسماع ، ولكنه تبين أن ثمة شخصاً مرهف السمع ، انتبط الأصوات التي انسابت خلال بابه المغلق ! .. واضطر إلى أن يعترف باستحياء ، فقالت (هناليين) : « لا جدوى من أن تحبس نفسك ، لتقوم بمحاولات يائسة على أمل أن تعلم نفسك .. بل الأفضل أن تأتي فتدرب هنا ، إذ أنني على دراية بأصول العزف بعض الشيء ، وسيكون في وسعي أن أؤدي لك بعض العون ! » .. فقال رامش : « لاتي ثقيل الفهم ، وسيكون تدريبي من أشق المهام عليك ! » .. قالت : « بل لسوف أعلمك كل ما أعرف ، مهما تكن خجولاً ! » .

وسرعان ما ظهر أن (رامش) لم يكن مغالياً في التواضع « حين وصف نفسه بأنه ثقيل الفهم في الموسيقى . فقد كان من العمير عليه أن يثير في نفسه أي ميل إليها . رغم معونة مدرسته الحسنة ! .. أفرأيت رجلاً لا يعرف السباحة « يجرى في بركة ، فيروح يضرب الماء بيديه وقدميه في جنون ؟ » .. هذا المثل يدلك على مدى تخبط (رامش) ! وإن كان الماء في هذه الحال غير عميق ، إذ لم يتجاوز ركبتيه ! .. لم تكن لديه أضال فكرة عن حركة أية أصبع ، وكان يدق نغماً ناشراً في أي مقطع دون أن يفطن « إذ كان انسجام الأنغام وتناقروها سواء لديه ! .. وكان يفرق كل أصول العزف دون أن ينتبه قط ، فإذا صاححت (هناليين) : « ما الذي تفعله ؟ .. هذا خطأ ! » « أسرع إلى إصلاح خطأه بخط لا آخر ! .. على أن صاحبتنا (رامش) الصلب الرأي ،

الدعوب ، لم يكن بالذي ينفذ يديه من أية مهمة بسهولة . وكما تخفى آلة تهديد الأرض (وابلور الزلط) في طريقها متناقلة « غير حافلة بما تهشم وتسحق تحته ، كذلك راح (رامش) يدق - في غير ترقق ، ولا انتباه - على مفاتيح آتته الموسيقية التعبة ! .. وكانت (هناليين) تضحك من أخطائه ، بل كان هو الآخر يضحك منها .. وكانت مقدرته الفائقة على ارتكاب الأخطاء تروق للجانب الضاحك من إدراك (هناليين) ! .. فلحلب مقدرة على أن يستخلص المتعة والبهجة من الأخطاء ، ومن عدم التناسق « ومن العجز ! .. وكما أن حبب الأمم ينساب قياضاً كلما انحطاً طفلها انخطو ، وهي تعلمه المشي .. كذلك كان اتعدام أي ذوق أو ميل موسيقي لدى (رامش) مبعث متعة خفية لدى (هناليين) ؟

ولقد قال (رامش) مرة ، أو اثنتين : « بديع جداً أن تضحكي مني هكذا ، ولكن .. ألم تكوني تختطين بدورك عندما كنت تتعلمين العزف ؟ » .. فكانت تجيب : « كنت أخطئ بالتأكيد ، ولكنني أصارحك يا رامش بابو بأن أخطأت لم تكن لتفاس مطلقاً بأخطائك ! .. ولم يعقه شيء من هذا ، بل كان يضحك ثم يبدأ من جديد . ولم يكن (أنادا بابو) - كما أسلفنا - بالذي يفقه شيئاً في الموسيقى ، ولكنه كان يتكلف الإصغاء أحياناً ، فيرهف السمع ، ثم يقول : « قولي ما شئت في عزفه ، ولكن (رامش) أوشك أن يكون أستاذاً ! » .

هناليين : « أستاذ في اللشاز ! » .

أنادا بابو : « لا ، لا .. لقد تحسن كثيراً عما كان حين سمعته لأول

مرة . وتقي بأنه لن يلبث أن يغدو عازقاً لا بأس به ، إذا هو ثابر على المران ، فليس هناك من سبيل للإجادة سوى المران المتواصل .. وما أن يحفظ « النوتة » حتى يغدو الطريق ممهداً أمامه ! » .

ولم يكن ثمة وجه للاعتراض على مثل هذا القول .. فقد اعتادت الأسرة أن تتلقى في احترام ومهت : ما يضعه الشيخ الجليل من قواعد وقوانين !

الفصل الحادى عشر

■ تشبه عطلة (البوجا) في (البنغال) ، عطلة عيد الميلاد لدى الإنجليز . فتعطل الأعمال لعشرة أيام أو ما يقرب من ذلك . ويلتئم شمل الأسرات . وكان (أنادا بابو) - في خريف كل عام تقريباً - ينتهز فرصة أجور السفر التي تخفّض بمناسبة موسم العطلات هذا . فيرحل إلى (جووبولور) للاستجمام وتغيير الجو . مصطحباً ابنته . فيقيم في ضيافة شقيقة له : كان زوجها من موظفي الحكومة هناك . وكان (أنادا بابو) ينظر إلى هذه الرحلة السنوية كفرصة لتقوية جهازه الهضمي !

وأقبل شهر سبتمبر - فاقترب موعد العطلة . وشغل (أنادا بابو) بالاستعداد للرحلة . وكان غياب (همناليني) كفيفلاً بأن يعطل دروس الغزف . لذلك حرص (رامش) على أن يفيد من أكبر قسط من الوقت الباقي قبل سفرها . وفي ذات يوم ، قالت (همناليني) في سياق الحديث : « أعتقد أن في تغيير الجو نفعاً كبيراً لك يا (رامش بابو) . فإن الرحيل

عن (كلكتا) - ولو لأمد قصير - كفيل بأن يقمّضك ! .. ورأى (أنادا بابو) أن الاقتراح معقول ، فقد عانى (رامش) - كثيراً - من الحزن والحدا . ومن شأن الترحال أن يشفيه من اكتابه . وقال الشيخ : « من المؤكد أن تبديل الهواء الذي تعيش فيه لبضعة أيام شيء رائع .. أنعرف يا (رامش) أنني لاحظت أن الإنسان لا ينتفع من الذهاب إلى الريف أو إلى سواه ، إلا في الأيام القلائل الأولى .. فإن شبهة الإنسان تنتفخ خلال الأسبوع الأول . فيأكل برغبة ونهم ، ولكن الأمر لا يلبث بعد ذلك أن يعود إلى ما كان عليه . بلا اختلاف » فيعوده شعوره القديم بتعاب المعدة . والحموضة . وما إلى ذلك ، كلما أكل 1 » .

همناليني : « هل رأيت (تربودا) يا رامش بابو ؟ » .

رامش : « لا .. لم أرها قط » .

همناليني : « خليك بك أن تراها .. أليس كذلك يا أبت ؟ » .

أنادا بابو : « اسمعي .. لماذا لا يأتي (رامش) معنا ؟ لسوف يبدل الجو . ويشهد في الوقت ذاته حضور الرخام ! » .

ورؤى أن هذا النفع المزدوج أمر ضروري لشفاء (رامش) ، فلم يجد سبيلاً إلى المعارضة ، وخيل إليه في ذلك اليوم أن كيانه كله يسبح في الهواء . ولكي يهدئ من خفقان قلبه الصاحب ، أغلق باب مسكنه خلفه ، وتحول إلى معزفه . وضافت نفسه بالتزام الأصول والدقة . قراحت أصابعه تراقص - كالغنائين على نواحي المعزف ، مرسله عاصفة من الأنغام الثائرة . غير المسجحة - كان التكبير في

قرب فراقه لهمناليني قد أسلمه من قبل إلى الخوم ، أما الآن .. فلا
الفرح الطاغى أخرجه عن طوره ، فلم يخفل بكل ما تعلم — بعد ما
من أصول العزف !

■ وقطع عليه استرساله ، طرق على بابه ، وصوت يصيح :
« كفف يا رامش بابو ، بحق السماء .. ما هذا الذى تفعله ؟ .. واحتمل
وجه (رامش) غيظاً » وفتح الباب . فولج (أكشاي) قائلاً :
« ألا ترى يا رامش بابو أنك بالإغراق فى رذيلتك الخفية هذه . تعرض
نفسك للعقاب إذا مثلت أمام نفس الشكوة التى تترافع فى ..
فضحك (رامش) قائلاً : « أقر بأبني مذنب ! .. وعاد (أكشاي)
إلى الحديث ، فقال : « لدى أمر أريد أن أحدثك فيه يا رامش بابو .
إذا لم تر مانعاً .. وارقب (رامش) حديث (أكشاي) فسمعت ،
وهو يعجب مما قد يكون عنده . وما لبث (أكشاي) أن قال : « لعلك
قد عرفت بعد كل هذه المدة ، أن سعادة (همناليني) ليست بالمسألة التى
أستوين بها ؟ .. ولم يجب (رامش) بنعم أو لا . وإنما ظل سامعاً
ينظر ما بعد هذه المقدمة . وما لبث (أكشاي) أن قال : « إني
كصديق لأنادى بابو أرى من حق أن أسألك عن نواياك لزاء همناليني ؟ »

وأحسن (رامش) بتفوق من الكلمات ، ومن اللمحة التى قبلت
بها ، بيد أنه لم يشأ — ولم يستطع — أن يجيب بجملة « وإنما رد فى
هدوء قائلاً : « هل هناك ما يوحى إليك بأن لدى نوايا سيئة ؟ .. فقال
(أكشاي) : « اسمع .. إنك تنتمى إلى أسرة هندوكية ، وقد كان أبوك

هندوكياً . وما صحبتك إلى القرية ليزوجك ، إلا لأنه كان يخطئ أن
تزوج هنا من إحدى بنات الأسرات البراهمية .. إني أعرف ذلك ! ..
وكان (أكشاي) يعرف ذلك بالفعل ، وهو الذى وشى به إلى الشيخ
الجليل ، والد (همناليني) ! .. وظل (رامش) لحظات لا يقوى على
التطلع إلى وجه (أكشاي) « بينما استأنف هذا حديثه : « أفتظن أن
وفساء أهلك المفاجئة قد جعلتك حراً ففعل ما تشاء ؟ .. عندما كانت
رغبته ... »

وهناك قطع عليه (رامش) استرساله وقد نفذ صبره : (اسمع
يا أكشاي بابو .. إذا كان لديك أى موضوع آخر تثطوع فيه بنصحي ،
فلى بهذا النصح وسوف أنصت لك .. أما علاقتي بوالدى ، فليست
من شأنك فى شيء ! .. فقال (أكشاي) : « حسن جداً .. لنضع هذه
الناحية .. إنما الذى أبني معرفته هو : هل تعترم الزواج من (همناليني) ؟
وهل أنت فى وضع يمكنك من هذا ؟ .. وكانت هذه الطعنات
المستتالية أكثر من أن يتحملها (رامش) ، رغم هدوء طبعه ، فقال :
« اسمع ، يا أكشاي بابو .. قد تكون صديقاً لأنادى بابو » ولكنى وإياك
لم نبلغ من الود حداً يسمح لك بأن تتكلم بهذه الطريقة .. فهلا تكرمت
ونحلت عن هذا الموضوع ؟ »

أكشاي : « إذا كان تحوى عن الموضوع معناه لإغفال المسألة
كلها . وتركك تحضى — إلى ما لا نهاية — فى الاستمتاع بالحياة التى
تحياها : دون ما حساب للعواقب . لما ملكت أن أقول شيئاً .. ولكن
الاجتماع ليس مجرد ساحة صيد .. على شاكلة من لا يحفلون

بالمواقب . وربما كانت لديك أسمی الخواطر . كما أنك قد لا تحفل مطلقاً بما تقوله الدنيا عنك ، ولكنك جدير بأن تدرك أنك معرض لأن تدعى إلى تقديم حساب عن تلاعبك - دون وازع - بفتاة في منال وضع (هناليني) .. هناك من سوف يناقشونك الحساب . وإذا كنت تعزم أن تثير قضية حول قوم تحترمهم ، فامض فيا أنت ماض فيه من مسلك ! » .

رامش : « أشكر لك نصيحتك : وسأقرو - حين يحلو لي - المسلك الذي ينبغي على أن أسلكه ، بحض رغبتى ، فلا تشغلن بالك بالأمر .. ولا داعي لأن تمضى في هذا الحديث ! » .

أكشاي : « يسرنى أن أسمع هذا يا رامش بابو . فشد ما يريح بالى أن أعرف أنك ستفكر في الأمر . وتقرر مسلكاً تنتهجه ، وإن كان خليقاً بك أن تسرع في هذا التفكير ! .. على أننى لن أمضى في مناقشتك في هذا الصدد » فاغفر لى أن قطعت عليك تدريباتك الموسيقية ، وأرجو أن تعود إليها ، فإننى لن أثقل عليك ! .. وأسرع (أكشاي) منصرفاً !

على أن (رامش) لم يعد يشعر بميل إلى العزف . وإنما استاقى على حشية ، وقد عقد راحتيه تحت رأسه . وغفل عن الزمن . وعن الساعات وهي تنصرم تباعاً . ولا يعلم غير الساء أى قرار انتهى إليه . ولكنه ولاشك رأى لزماً عليه أن يسعى لغوره إلى بيت جاره ، وأن يخس قدحين من النشأ !

● وهضت (هناليني) حين رأتها : « أريض أنت يا رامش بابو ؟ .. فأجاب رامش : « ليس هناك ما يستحق أن تشغلي به بالك ! » .. وهنا تدخل (أنادا بابو) قائلاً : « لابد أن جهازك الحصى يعانى بعض الاختلال .. إنه مجرد اضطراب في الصقراء .. ألا جرب قرصاً واحداً من الأقراص التي أنناولها ! » .. فابتسمت (هناليني) وقطعت عليه حديثه قائلة : « حشيك يا أبت ! .. إنك تريد من كل أصحابك أن يتناولوا هذه الأقراص ، مع أننى لم أر واحداً منهم قد أفاد منها ! »

أنادا : « بل الأرجح أن أحداً لم يضار منها .. لقد تبينت بالتجربة أن أى نوع آخر من الأقراص التي تعاطيتها لم يفدنى قدر ما أفادتني هذه ! » .

هناليني : « إنك ما شرعت مرة في تناول نوع جديد من الأقراص إلا واعتبرته - خلال الأيام الأولى - خير الأنواع ! » .

أنادا : « أنكم لا تصدقون ما أقول .. على رسلكم إذن ! .. ألا اسألوا (أكشاي) عما إذا كان قد انتفع من علاجي أو لم ينتفع ! » .

وتحولت (هناليني) عن الموضوع . فجرد ذكر (أكشاي) .. غير أن (الشاهد) أقبل في تلك اللحظة ، وكأنما ساقه القدر ليؤدي الشهادة دون إيعاز ، إذ كان أولى ما قاله ، غاطياً (أنادا بابو) : « عليك اليوم أن تعطى أحد تلك الأقراص . فقد أفادتني أعظم فائدة . وإنى لأحس اليوم بأنى على خير ما برام ! » .

قومي (أنادا بابو) ابنته في انتظار

الفصل الثاني عشر

■ كان (أنادا بابو) على استعداد لأن يجهد انصراف (أكشاي) بمجرد تناوله القرص ، ولكن (أكشاي) - من ناحيته - لم يبد أي رغبة في التعجيل بالانصراف - بل ظل يرمق (رامش) من ركن غيب في غير رضى . ولم يكن (رامش) حريصاً على أن يراقب نظراته . ولكنه - مع ذلك - لم يتألم أن لاحظ تلك النظرات غير الراضية . فأحس بأنها تقضى ههنا !

وكانت (هناليني) تتحدث - طيلة الوقت - عن الرحلة المرتقبة إلى (جوبولبور) ، إذ كان موعدا قد اقترب . وكانت قد عقدت عزمها على أن تنتهز أول زيارة لرامش ، كى تحذره عن المشروعات التى رسمتها لعطلة العيد ، ولتتشاور معه بصدد الكتب التى يخططانها معهما ليقراها فى أوقات فراغهما ، ومن ثم فإنهما كانا قد اتفقا على أن يكر (رامش) فى الحضور ، فلن تأخره حتى موعد الشاى . بتركه محالاً لأكشاي - أو أى زائر آخر تسوقه المصادفة - كى يعكر عليهما حديثهما الخاص ! .. ولكن الظروف شاءت أن يتأخر (رامش) فى الحضور .. بل لقد تأخر عن مواعده المألوف فى كل يوم ، فلما وصل أخيراً ، بدأ مشغول البال ، مهموماً . وأحست (هناليني) بالكتاب لمنظره ، فتعجبت الفرصة لتقول له بصوت خافت : « لقد تأخرت اليوم كثيراً ! » .. وبدأ (رامش) شارداً للتفكير ، إذ مضت حنية قبل أن يجيب قائلاً : « أجل .. أظننى كذلك » .

وكانت (هناليني) قد بذلت عناية خاصة بمظهرها - فى ذلك

اليوم - مرتقبة تذكيره كما اتفقا . فسقت شعرها : وتأملت فى ملابسها قبل العصر ، ثم جلست تنتظره ، وعيناها لا تتحولان عن الساعة ، وراحت تغفل نفسها بأن ساعة (رامش) متأخرة عن الوقت : وأنه لن يلبث أن يفد . فلما خاب ظمها ، انتقلت إلى جوار النافذة ، وانهمكت فى التطريز وهى تغالب القلق ، وزاد الطين بلة ، ذلك الهجوم الذى كان يلوح على (رامش) عند وصوله ، والذى شغلت به عن محاولة تبرير تأخره . وخيل إليها أنه نسي تماماً وعده لها بالحضور مبكراً . ومن ثم كانت فترة تناول الشاى « فى ذلك اليوم » من أثقل الأوقات على نفس (هناليني) . فلما قدر لها أن تنتهى أخيراً ، بذلت الفناء جهداً فى تبديد الشرود عن بال (رامش) .. وكانت تمة كتب على مائدة لصق الحائط . فحملت هذه الكتب ، متظاهرة بنقلها إلى خارج الغرفة .. وأيقظت حركتها (رامش) من اكتياحه ووجوده ، فإذا هو إلى جوارها ، يتساءل : « إلى أين تنقلين هذه الكتب ؟ .. ألم تنفق على أن نلتقى اليوم ما سوف نأخذ معنا منها لا » .

وارتجفت شفتا (هناليني) ، وقعت - بعناء - الدموع التى وثبت إلى عينيها ، ثم قالت فى صوت مرتجف : « لا بأس .. ليس بوسعنا أن نقوم الآن بالاختيار ! » .. وأسرعت صاعدة إلى مخدعها ، فألقت بالكتب على أرض الغرفة ! .. وزاد فرارها هذا من غم (رامش) وكربه . وقال (أكشاي) وهو مغتبط فى قرارة نفسه : « إنك لا تبدو فى حال طيبة يا رامش بابو » ، فتعجبت (رامش) بكلمات لم يتبينها أحد .. ولكن (أنادا بابو) التى لم يدركه (أكشاي) عن

حصة (رامش) ، وقال : « لقد حدثت هذا - في نفسي - حين رأيتك ! .. وهنا استطرد (أكشاي) قائلاً ، وهو يضحك في قرارة نفسه : « إن أمثال رامش بابو يرون من مظاهر الضعف أن يولوا حجتهم أى اهتمام .. أنهم يعيشون في آفاق الفكر - فإذا اختل جهازهم المضمي ظنوا أن من المشين لهم أن يتحروا السبب ! » .

وشرح (أنادا بابو) في لقاء محاضرة عن انتظام المضم . وكيف أنه ضروري للفيلسوف ، كما هو لأى إنسان آخر . وجلس (رامش) بين الرجلين ، متحملاً المضمض من حديثهما في صمت . وما لبث (أكشاي) أن قال : « نصيحتي لك يا رامش بابو أن نتناول قرصاً من أقراص (أنادا بابو) : وأن تأوى إلى الفراش مبكراً ! » . فقال (رامش) باقتضاب : « بل أريد أن أُنحدث إلى (أنادا بابو) في أمر أنتظر الفرصة لمناقشته فيه ! .. وهنا نهض (أكشاي) عن مقعده . واستأذن من رب الدار في الانصراف . قائلاً : « عجباً لك ! .. كان خليقاً بك أن تبني مبكراً أن (رامش بابو) يناس الساعات وهو يكتم ما ينفسه ، ثم يلقيه على رأس المرء بعد فوات الأوان ! » .

وما أن خرج ، حتى لبث (رامش) بصره على مقدمة حدائه . وشرح يقول : « لقد كان من حظي يا (أنادا بابو) أن حظيت بالتردد على دارك : وبأن أعامل كفرد من الأسرة .. وليس يومعى أن أئين لك مدى اعتزازي بهذا ! .. فأجاب (أنادا بابو) : « هذا صحيح . فأنت صديق ابني (جوجن) : ومن الطبيعي أن تعاملك كأخ له ! .. وأحسن (رامش) بشئ من الارتباك . كراقص بدأ في الرقص ثم

نسى الخطوة التالية : فقال (أنادا بابو) يسرى عنه الحرج : « الواقع إننا المحظوظون ، إذ ظفرتنا بشاب مثلك يا رامش نعتبره ابناً لنا ! .. ولكن هذا لم يلهم (رامش) شيئاً . فاستطرد (أنادا بابو) قائلاً : « لعلك أدركت أن الأقاويل أصبحت تفرق اسمك باسم (همتاليني) : .. والناس يقولون أن على الفتاة أن تختار أصدقاءها في حذر فائق ، إذا ما أدركت سن الزواج . ولكنني أرد على ذلك قائلاً : « إنني أثق برامش كل الثقة ، فهو رجل » وما أحسبه يغرر بنا ! » .

رامش : « إنك تعرف كل شيء عني يا أنادا بابو ، فإذا رأيتني أهلاً لهمتاليني » ف ... » .

أنادا : « لا ترد .. الواقع أن ذهني اتجه إلى هذا بالفعل : ولولا أنك كنت في حداد على أبيلك ، لفاتحتك أنا في الأمر .. أما الآن . فلم يعد ثمة داع لإرجاء الموضوع يا بني .. إن الناس يتقنون ، ولابد لنا من أن نقضى على مثل هذه التقلبات في أقرب وقت ممكن .. ألا ترى هذا ؟ » .

رامش : « الرأى رأيك .. على أن لا يبتك القول الفصل في هذا ، بطبيعة الأمر » .

أنادا : « هذا حق . ولكني أعتقد أنني أعرف ما سوف يتجه إليه رأيها .. وسوف نبحت الأمر في صباح غد ، على أية حال ، وننخذ فيه قراراً حاسماً » .

رامش : « أخشى أن أكون قد استعيتك طويلاً ، فيحسن في الآن أن أستأذن في الانصراف » .

أنادا : « بل ابق لحظة .. ألا ترى من الخير أن يتم القرآن قبل رحيلنا إلى جوبولور ؟ »

رامش : « يخيل إلى أن المدة الباقية لا تنسج ! »

أنادا : « صحيح أنه لم يبق أمامنا سوى عشرة أيام ، ولكن في وسعنا أن نتزوجا في يوم الأحد القادم ، فيظل لدينا يوم أو يومان لتستعد للرحيل . ولعلك تترك يا رامش أنني لا أستحثك على العجلة استغلالا لما وقتك ، ولكنني في الواقع أتعجل الأمر ، حتى أتفرغ للاهتمام بصحتي ! » وأقر (رامش) قوله : « وابتلع حبة من أقراص (أنادا بابو) . ثم انصرف ! »

الفصل الثالث عشر

■ كانت عطلة مدرسة (كالا) قد اقتربت . ولكن (رامش) اتفق مع الناظرة على أن تبقى الفتاة بالمدرسة خلال تلك العطلة . وفي الصباح التالي لحديثه مع (أنادا بابو) ، استيقظ مبكراً ، وذهب إلى المحكمة ، وما أن انتهى من قضاياه ، حتى سلك إحدى الطرق غير المأهولة ، المفضية إلى (الميدان) .. أهم ساحات (كلكتا) . وواصل تفكيره أثناء مشيه ، فالتفت إلى أن من الخير أن يلبس (هناليني) بكل شيء عن (كالا) قبل الزواج ، على أن يشرح الموقف بأسره لكالا فيما بعد . وبذلك يتسنى له تفادي أى سوء تفاهم . بل أن (كالا) لن تلبث أن تجد في (هناليني) صديقة ، وأن توافق على الإقامة مع الزوجين الشابين : وتوقع أن تثير إقامة ثلاثهم معاً بعض الأقاويل . إذا استقروا بين من يعرفونهم ، ومن ثم قرر (رامش) أن ينزع مع

الشابطين إلى مدينة (حظر يباغ) ، وإن يمارس الحمامة هناك . وما أن وصل (رامش) إلى الحى الذى يقيم فيه ، حتى اتجه إلى دار (أنادا بابو) ، فصافد (هناليني) على السلم . وكان مثل هذا اللقاء - في الظروف العادية - فرصة يلتزمتها لينديجا في حديث ودى . أما في هذه المرة ، فقد تضرع وجه (هناليني) : « وأشرقت على وجهها بسمة خفية كأولى خيوط الفجر ، ثم أسرعت بالانسحاب وهى تفض بصرها ! .. ورجع (رامش) إلى مسكنه . وراح يجرى أصابعه على معزة الصغير ، محاولاً أن يوقع اللحن الذى دربه (هناليني) على عزفه . ولكنه مالبث أن مل العزف ، فتحول إلى أحد دواوين الشعر . ولكنه أحس بأن الشعر الذى يرقى إلى آفاق غرامه السامية لم يخلق بعد ! .. كذلك خيل لهناليني - في ذلك النهار - أنها تطير غبطة . ولم يكن منتصف النهار . حتى كانت قد فرغت من أعمالها المترتبة ، فاعتكفت في مخدعها وانصرفت إلى التطريز والحياكة ، وقد تألق عيناها الوادع بإشراقه من هناءة روحية شملت كل كيائها وكأنما اطمأنت إلى مصيرها في الحياة !

وقبل موعد الشاي المعتاد بفترة طويلة . طرح (رامش) عنه ديوان الشعر ، ونحوه عن معزة الصغير . وأسرع إلى دار (أنادا بابو) . وكانت (هناليني) - في الظروف العادية - تنفخ إليه دون ما تلتكؤ . ولكنه ألقى الغرفة خالية : في عصر ذلك اليوم ، إذ كانت (هناليني) قد لزمته مخدعها . ومالبث (أنادا بابو) أن أقبل واستقر في مجلسه المألوف من مائدة الشاي . وظل (رامش) ينادى إلى الباب من قلبه ..

وانبعث وقع قدمين ، ولكنهما كانا قدى (أكشاي) الذى يادر يبنى
(رامش) فى ود بالغ : هاتفاً : « أهلا يا رامش بابو : لقد ذهبت
إليك فى مسكنك ! » .. وخامر (رامش) شىء من القلق ، ولكن
(أكشاي) ضحك قائلاً : « ليس ثمة ما يزعج يا رامش بابو . إذ لم
أكن أنتوى سوى كل خير .. فليس من شك فى أن من حق أصدقائك
أن يبتوك بمناسبة النبأ الطيب .. وهذا ما دعانى لزيارتك » !

ونبه هذا القول (أنادا بابو) إلى غياب (هنالينى) . فناداها
ولكنه لم يلق جواباً ، ومن ثم صعد إلى الطابق العلوى يبحث عنها ..
وصاح بها : « ما هذا يا هيم (اسم التاديل لهمالينى) ؟ ... ألا تزالين
عاكفة على أعمال حياكنك ؟ .. إن الشاى معد ، و (رامش) و (أكشاي)
هنا » .. فقالت وقد تضرجت وجنتاها بحمرة خفيفة : « أرجو أن
ترسل لى الشاى هنا يا أبت ، إذ لا بد لى من أن أفرغ مما فى يدى ! » .

— هكذا أنت دائماً يا (هيم) !.. ما أن تبدي اهتماماً بشىء . حتى
تنسى كل ما عداه . فعندما كنت تلاميذ للامتحان ، لم تكونى ترفعين
أنفك عن كتابك . وها أنتذى تنصرفين الآن إلى الحياكة ، فتأبين أن
تفعل أى شىء آخر . لا . لا .. هذا لا يليق مطلقاً ! .. هيا ! .. لا بد
أن تبهطلى فتتناولى الشاى معنا ! » .

وأوشك أن يجرها جراً على درجات السلم ، حتى لانت أخيراً .
وانجهت إلى مائدة الشاى مباشرة . وتظاهرت بالانهماك فى صبه فى
الأقداح . دون أن ترفع بصرها لتعجب الضيفين . فتهتف بها (أنادا
بابو) : « ما هذا الذى تفعلينه يا (هيم) ؟ لماذا تضيعين سكر فى قدحى



اتجه الى دار (أنادا بابو) « فصادف (هنالينى) على السلم ، وكان مثل
هذا اللقاء - فى الظروف العادية - فرصة ينتهزها ليندمجاً فى حديث ودى ..

وأنت تعلمين أنني لا أتناوله إطلاقاً ؟ » . وضحك (أكشاي) وبدأ يمزحها قائلاً : « إنها لا تستطيع أن تكبح سخاها اليوم ، فهي توزع الحلوى على كل إنسان ! » .. ولم يطق (رامش) أن يسمع (أكشاي) يرضى روحه الساخرة على حساب (هناليني) ، فقرر أن يخطف اسمه من قائمة أصدقائهما بمجرد زواجهما !

وبعد أيام قلائل ، كانت مائدة الشاي تجمعهم مرة أخرى ، حين قال (أكشاي) : « خليك بك أن تبادر إلى تغيير اسمك يارامش بابو .. » على أن نظرفه المتكلف لم يزد (رامش) إلا كراهية له ، فسأله في جفاء : « ولماذا ؟ » فقال (أكشاي) وهو يبسط أمامه إحدى الصحف : « إليك النبأ .. لقد أوعز طالب يدعى (رامش) إلى طالب آخر بأن يؤدي عنه الامتحان ، منتحلاً شخصيته ، وبذلك قرر له أن ينجح ، ولكن أمره افترض في النهاية ! » . وكانت (هناليني) تترك أن (رامش) ليس سريع البديهة في الرد على الدعايات الواخزة ، فأثرت على نفسها أن تتولى الرد . ومن ثم كظمت غيظها ، واصطنعت الالعلف وهي تقول : « إذا كان هذا قياساً : فخليق بكل (أكشاي) أن يكون نزيل السجون ! » .. وصاح (أكشاي) : « واهاً لك ! .. أحاول أن أقدم نصيحة ودية ، فإذا بك تتعيرينها إهانة . حسناً ، سأفضي إذن بما عندي .. إنكم لتعرفون أن أنتى الصغرى (سارات) ، تتردد على المدرسة العليا للبنات . ولقد جاءني ليلة أمس قائلة : « أتعرف أن زوجة (رامش بابو) في مدرستنا ؟ » ، فقلت لها : « يالك من غيبة ! .. أو تظنن أن ليس في الدنيا من (رامش) سوى صديقنا ! » . وإذا ذلك

قالت : « أيا كان ذلك الشخص ، فإنه غير حتى بزوجه .. إن كل الفتيات سيرحلن إلى أهلهن في عطلة العيد ، ولكنه اعترم أن يبقى زوجته بالمدرسة . يا للمسكينة ! .. إنها لا تكف عن البكاء ! » .. عندئذ قلت لنفسى : « هذا لا يصح .. كم من أناس يخلقون بأن يظنوا ما ظنته (سارات) بسبب الاسم ؟ » .

وقتها (أنادا بابو) قائلاً : « الحق أنك مجنون يا أكشاي ! .. كيف يغير (رامش) اسمه لمجرد أن (رامش) آخر ترك زوجته تبكى في المدرسة ؟ » .. غير أن (رامش) امتنع فجأة ، وأسرع يغادر الغرفة ، فصاح (أكشاي) : « ماذا جرى يا رامش بابو ؟ .. إلى أين تذهب ؟ .. هل أسأت إليك ؟ ما أظنك تؤول قولي على أنني أرتاب فيك ! .. وهتف (أنادا بابو) : « لماذا كل هذا ؟ .. ولدهشته ، انبثقت اللدوع من عيني (هناليني) » فصاح : « ما هذا يا (هم) ؟ .. ما الذى يبكيك ؟ » .. قالت متبهة : « ما كان يليق بأكشاي بابو أن يقول هذا يا أبت ! .. كيف يهين ضعفاً في دارنا ؟ » .. فقال الشيخ : « إنما كان (أكشاي) يمزح ، فلماذا تحملان كلامه على هذا الحمل ؟ » .. فقالت (هناليني) وهي تتدفع صاعدة إلى غرفتها : « إننى لا أطيع هذا اللون من المزاح ! » .



● وكان (رامش) قد حرص - منذ عودته إلى (كلكتا) - على أن لا يلخر وسعاً للبحث عن زوج (كالا) ، فكتب إلى خاله ، المدعو (تاريني تشاران) : وقد وافد الجواب في اليوم التالي للحادث

السالف ، إذ كتب إليه (تاريني تشاران) يقول إنه لم يسمع أى نبأ عن (ناليناكشا) - زوج (كالا) - منذ النكبة التي حاقت بموكب العرس : وإذ كان (ناليناكشا) طبيباً يمارس مهنته في (رانجپور) ، فإن (تاريني تشاران) تحرى عنه هناك . ولكنه لم يعثر على أى نبأ عنه ، فضلاً عن أنه لم يكن يدري شيئاً عن موطن أسرته .. ومن ثم استبعد (رامش) أن يكون زوج (كالا) على قيد الحياة !

وتلقى (رامش) في اليوم ذاته عدداً من الخطابات . فقد جمع بعض أقرابه نبأ زواجه المرتقب ، فكتبوا يهنئونه . وطالبه بعضهم بأن يقيم وليمة حافلة ، بينما عتب عليه البعض الآخر - على سبيل المزاح - أن كتم عنهم أنباءه طوال هذه المدة . وفيما كان يطلع على هذه الرسائل ، أقبل خادم من لندن (أنادا بابو) : يحمل إليه رسالة : فحفظ قلبه في عنف . إذ تبين الخط الذي كتبت به ! .. كان خط (همناليني) . وقال لنفسه : « لم يكن يسعها سوى أن ترتاب في أمرى : بعد الذي قاله (أكشاي) .. وهماي ذى قد كتبت إلى لطمتين ! » .. ونفى الخطاب ، فإذا به جد موجز : « كان أكشاي بابو سمجاً إلى درجة قطعية بالأمس . لماذا لم تأت في هذا الصباح ؟ لقد ارتقتك . لماذا تحفل بما قال أكشاي بابو ؟ إنك تعلم أنني لا أعير حافته أذناً . لا بد أن تبكر في الحضور اليوم ، ولن أتولى حياكة شيء ، في انتظارك ! » .. ولمس (رامش) خلال هذه السطور القلائل مدى الألم الذي عاناه قلب (همناليني) الرقيق ، فترقرقت الدموع في عينيه . لقد كانت تصبو من صمم قوادها إلى أن تريق من غواطفها بلسماً على جرحه . ولا بد أن هذه الرغبة لازمتها

طوال ليالها ، فلما لم يتج لها إرضاءها في الصباح ، لم تعد تقوى على كبح لهفتها ، ففتشتها في هذه الرسالة .. كان الأمر جلياً !

■ وكان قد رأى في أمسه أن لا بد له من أن يصارح (همناليني) بحقيقة موقفه فوراً . ولكن الحديث الذي صدر عن (أكشاي) جعل السبيل إلى المصارحة شاقاً . لأنها ستبديه في مظهر المحرم الذي ضبط متلبساً ، فحاول التماس المبررات ! .. فضلاً عن أنها ستعزز موقف (أكشاي) ، وفي هذا هوان لرامش ! .. ونخطر له أن (أكشاي) حدس - ولابد - أن زوج (كالا) رجل آخر يحمل اسم (رامش) . وإلا لما سكت كل هذه المدة ، ولما اقتصر على إثارة الشكوك ، بل لعمد إلى إعلان الأمر من فوق قمم البيوت ! .. ودعت هذه الخواطر كلها (رامش) إلى أن يسعى ليتجنب المتاعب مؤقتاً . بدلا من أن يحوضها !

وإذ بلغ هذا القرار ، حمل إليه البريد رسالة جديدة ، ما أن فضا حتى ألقاها من نافذة مدرسة البنات . وقد كتبت تقول له أن (كالا) حزنت أبليغ الحزن لما قرره من بقائها في المدرسة خلال العطلة ، ومن ثم فإن إدارة المدرسة لا يسعها أن تتحمل مسئولية بقائها . وسرسلها إليه ، فعليه أن يستقبلها في داره ! .. وكان موعد هذه العودة يوم السبت ، في حين أن زواجه كان مقرراً يوم الأحد ! .. وقطع عليه حبل تفكيره في هذه الأزمة ، صوت (أكشاي) وقد أقبل يقول : ■ ألا اصطحب عني يا رامش بابو ! .. لو خطر لي أنك ستعتبر مثل هذه العناية العادية إهانة ، لآثرت الصمت . لأن الناس لا يكرهون المزاح

رامش : « لا بد لي من أن أراه فوراً ، لأمر هام لا يحتمل إرجاء ! »
همالتي : « حسن جداً .. ستجده في غرفته » .

وخرج (رامش) . وساءلت الفتاة نفسها : « أحقاً هو أمر هام ، عاجل ؟ .. أمر يرجأ من أجله كل ما عداه ؟ .. حتى الحب يضطر إلى الانتظار . ربنا يفرغ من هذا الأمر ؟ ! .. » وخيل لهمالتي أن صباح الخريف المشرق يتهد في أمي . وهو يرى الأبواب الذهبية توصل دون ذخيرة من الفرح والسرور ! .. ونحت مقعدها بعيداً عن المعزف الصغير ، وجلست إلى المائدة تطرز .. ولكن إبرة أخرى ، خفية ، راحت تحز قلبها .. واستغرق (رامش) في مهمته أمداً طويلاً « فبدأ (الحب) يقلق ويتضرع ! »

الفصل الرابع عشر

● عندما دخل (رامش) غرفة (أنادا بابو) ، وجد رب البيت مستسلماً إلى إغفاءة في مقعده ، وصحيفته على وجهه . على أنه سرعان ما استيقظ مجفلاً حين سعل (رامش) ، فأشار إلى الصحيفة ، وشرع يحدث صيفه عما ورد فيها من أنباء ازدياد الوفيات بسبب انتشار وباء الكوليرا في المدينة .. ولكن (رامش) اتجه إلى هدفه مباشرة ، فقال : « إنني أرجو تأجيل عقد القرآن لبضعة أيام : إذ لدى مهمة عظيمة الأهمية ! » .

وظارت أنباء الوفيات في (كلتكا) من رأس (أنادا بابو) أمام هذا التصريح المثير للدهشة ، فحلق (رامش) مقشعاً :

إلا إذا انطوى على شيء من الحقيقة : أما وهذه الدعابة لا تقوم على أي أساس ، فلست أدرى ما الذي ساعكم جميعاً .. إن (أنادا بابو) ينحى على بالأمم منذ قلبها ، و(همالتي) لا تخاطبني .. وقد ذهبت لزيارتهما في هذا الصباح فبارحت هي الحجرة بمجرد دخولي .. لماذا يتملككم كل هذا الغضب مني ؟ ! » .

— لست في حل من أن أوضح لك الأمر في الوقت الحاضر ، فأرجو أن تعفيني .. فضلاً عن أن لدى بعض المشاغل .

— آه ! .. تدابير العرس ! .. لعل رجال الموسيقى يطلبون بعض أجرهم مقدماً .. أراك مشغولاً على وقتك من أن يتبدد ، لذلك لن أنقل عليك .. في رعاية الله .

وما أن انصرف (أكشاي) ، حتى أسرع (رامش) إلى دار (أنادا بابو) فإذا (همالتي) في غرفة الجلوس تنتظر ، وقد توقعت أن يبادر إلى هذه الزيارة المبكرة . وكان القماش الذي تطرزه ملقى على المائدة . بينما استقر المعزف الصغير على مقربة منها .. كانت تتطلع إلى أن تتم بعض الموسيقى ، ولكنها في الواقع لم تكن تبغى النوع العادي من الموسيقى .. فهناك نوع آخر من الموسيقى لا تسمعه سوى الروح :: وقد تاقّت إلى هذا النوع ! .. وتراقصت على شفتيها ابتسامة واهنة حين دخل (رامش) الحجرة ، ولكن هذه الابتسامة تلاشت حين يادها قائلاً : « أين أبوك ؟ » .

— في حجرتي . لماذا ؟ أتريده في أمر ما ؟ لن يلبث أن يهبط لتناول الشاي .

« ما الذى تعنيه يا رامش ؟ .. لقد أرسلت الدعوات ! » .

— تستطيع أن تكتب اليوم إلى المدعوين تبشهم بأن الزواج أرجئ إلى يوم الأحد بعد التالى .

— إنك تدعلتى يا رامش ! .. إن إرجاء أمر كهذا ليس فى سهولة إرجاء أية قضية فى المحكمة .. فليس من اليسور أن تطلب التأجيل وتجاوب إليه لمجرد أنه يروق لك . ثم ما هذا العمل العظيم الأهمية الذى يدعوك للتأجيل ؟ !

رامش : « إنه جده هام وعاجل ، وليس بوسعى إرجاؤه ! »

وتهالك (أنادا بابو) فى مقعده كشجرة أسقطها إعصار ، ثم قال : « ليس بوسعنا نحن إرجاء القران ! .. بالفكرت لك من بديعة .. رائعة ! .. حسناً .. بوسعك أن تفعل ما يحلو لك ، وإنى أترك لك أن توضح الأمر لأولئك الذين دعوناهم . وإذا سألنى أحد ، فسأقول له : لا أدرى شيئاً عن الأمر . إن الزوج أدرى بشئونه ، وسيخبركم عن الموعد الذى يروق له أن يتزوج فيه ! » .

وظل (رامش) يتحقق فى الأرض ، بينما استطرد (أنادا بابو) قائلاً : « هل فاتحت (هنالينى) فى الأمر ؟ .. فأجاب (رامش) : « لا .. إنها لم تعرف بعد شيئاً عنه ! » .

أنادا : « بل يجب أن تعرف فوراً .. فإن الزواج يعنيه كما يعينك ! » رامش : « رأيت أن أنبئك أولاً . »

فصاح (أنادا بابو) منادياً : (هم ! .. هم !) . وأقبلت (هنالينى) قائلة : « نعم يا أبت ! » فقال لها : « إن رامش يقول إن لديه عملاً

هاماً . ووقته لا يتسع للزواج فى الآونة الحاضرة ! » .. وامتنع وجه (هنالينى) . وانتهت عيناها إلى وجه (رامش) فى تساؤل . وما كان أى مجرم فوجئى ملطخ اليدى بالدم . ليشعر ببعض ما خالج (رامش) إذ ذاك من شعور ! .. ما توقع أن يزجى النبأ إلى (هنالينى) بمثل هذا الأسلوب الجاف ، فحدثته مشاعره بمدى الصدمة التى ترتبت على مثل هذا الإعلان غير الملتطف . على أن السهم لا يرتد إلى قوسه إذا ما انطلق ! .. وقد أيقن (رامش) أن السهم أصاب قلب (هنالينى) . ولم يعد من سبيل إلى تخفيف الحقيقة القاسية . إذ لم تكن هناك حيلة لإزاء الواقع الذى يفرض تأجيل الزواج ! .. لقد كان لدى (رامش) عمل هام . بأبى أن ينفضي به .. هذه هى الحقيقة . فكيف تصاغ فى قالب ألطف ؟ .. وما لبث (أنادا بابو) أن التفث إلى ابنته قائلاً : « حسن .. الشأن شأنكنا . وعليكما أن تنظرا فيما ينهينى فعله ! » .

ورفعت (هنالينى) عينيها بنظرة تشبه شعاع الشمس الغاربة ، حين يترامى على صفحة سماء مكشوفة ، وقالت : « لست أدرى عن الأمر شيئاً يا أبت ! » . وبادرت مغادرة الحجيرة ، فالتقط (أنادا بابو) صحيفته . وتظاهر بالانصراف إلى المطالعة ، ولكنه فى الواقع كان يقلدح ذهنه . وظل (رامش) ساكناً ، دقيقة أو اثنتين ، ثم نهض فجأة وخرج . وما أن ولج قاعة الجلوس الكبيرة ، حتى ألنى (هنالينى) نقصه عند النافذة : وهى تحقق فى الطريق صامتة — كان ثمة سبيل من الآدميين يتدفق فى كل شارع وحارة . تدفق النهر إذا ما فاض ، وقد أشرقت وجوه الناس جميعاً ، ارتقاباً لعطلة الربيع .

وتردد (رامش) إذ فكر في الوقوف بجانبها . وبعد لحظة عند الباب وأخذ يتأمل الفتاة الواقعة بلا حراك . يلفها ضوء الخريف المناسب من النافذة التي قامت كإطار أحاط بصورة قدر لها أن تلتصق بذاكرته فلا تيب عنها ! .. كانت أدق ملامحها واضحة : قوس خدها الرقيق ، وخصلات شعرها المقصوص ، والشعيرات الخفيفة المحيطة بعنقها ، وبريق القلادة الذهبية ، وانسدال ثوبها في أنيقة عن كتفها اليسرى .. كل هذه الدقائق طبعت على صفحة ذهنه السقيم آثاراً لا تمحى ! .. وما لبث أن سعى نحوها ونيلاً .. ولكنها لم تخطى إلى حبيبها ، بل راحت تمنع في تأمل المناظر التي كانت تتوالى على الطرقي . وارتجف صوت (رامش) وهو يردد الصمت قائلاً : « أرى لأما على أن أسالك صليماً ! »

وأجست (هناليني) برنة الألم في صوته : فالتفت إليه ، وهتفت (رامش) : « لا تفقدى إيمانك في ! .. طمئنني إلى أنك لن تفقدى الثقة في .. إنني لأشهد السماء على أنني سأظل أهلاً لشكك ! ! .. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يغفل فيها كل تكلف في الحديث فتتضيه الحمايلة ! .. ولم يحسر على أن يضيف كلمة إلى ما قال : وإنما نشر الدمع غلالة على مقننيه ، فتألمته (هناليني) في إشفاق . وحين تفرست في وجهه ، ذاب قلبها وانساب دمعها على وجنتيها . وهكذا التفت نظرات الحبيبين خلال الدمع ، وهما يتفان متجاورين لدى النافذة ، في عزلة عما حولهما . ومع أنهما لم ينسبا بكلمة ، إلا أن سكونية مطمئنة هبعت على قلوبهما ، فتذوقا في عذوبتها طعم النعيم !

وبعد (رامش) الصمت بزفرة حرة ، ثم قال : « أفترين لماذا

رجوت تأجيل الزواج ؟ » : فجزت (هناليني) رأسها .. لم تشأ أن تعرف ! .. وعاد (رامش) يقول : « سأبتك بالقصة كلها بعد زفافنا ! .. وبعت ذكر الزفاف حرة وأهنة إلى وجنتي الفتاة ! .. كانت (هناليني) — وهي تتأهب لاستقبال (رامش) — في باكورة الأصيل من ذلك اليوم — قد ارتقت بقلب مغتبط أن تحظى بحديث زلخر .. حديث خافت يتناول مشروعات المستقبل . ويعرض صوراً مصغرة للسعادة التي تنتظرهما .. وما كانت لتتصور مطلقاً أنهما سيتبادلان في دقائق قلائل ، الجهود الخالدة ، واللموع المرافقة ، وأنهما لن يتحدثا . بل سينفان جنباً إلى جنب في صمت ! .. ولا مر بخاطرها ما في أنة البال . وانشقة المطابقة ، من نعيم القلب !

وقالت (هناليني) أخيراً : « يجب أن تذهب إلى أبي فوراً . فهو ولا بد مستاء ! .. وخرج (رامش) مرتاح الخاطر . متأهباً لأن يفتح صديقه . غير حافل بأية طعنة قد يحلو للدينا أن توجهها إليه !

الفصل الخامس عشر

■ تطلع (أنادا بايو) في لفة وقلقى إلى (رامش) ، إذ عاد إلى الغرفة . فقال الشاب : « إذا أسلمتني قاعة المدعوي فسوف أكتب لهم جميعاً اليوم عن تعديل التاريخ » .

— إذن . فأنت مصمم على التأجيل ؟

— أجل . فليس من حيلة في ذلك !

أيادى بايو : « حسناً ، اسمع يا بني .

الذكر الذي قدس يدين من
الذي قدس يدين من
الذي قدس يدين من

الأمر كله .. عليك أن ترتب كل شيء بنفسك . فإني أريأ بنفسى
عن أن أجمعها أضحكة . وإذا كنت تريد أن تجعل من موضوع الزواج
لونا من ألعاب الأطفال ، فليس لرجل في مثل سنى أن يزج بنفسه في
الأمر . هلك قائمة بأسماء من دعوت . لقد أنفقت مبلغاً كبيراً من المال .
وسيلذهب أكثره دون ما جدوى . ولكنى لن أقبل أن أبعد تقوى
هبة ! .. فأكدت (رامش) استعداده لأن يتحمل كافة النفقات . وأن
يقوم بكل التدابير . حتى إذا هم بالانصراف . قال (أنادا بابو) :
« هل استقر رأيك على المكان الذى ستأرس فيه الحمامة بعد الزواج
بارامش ؟ .. ما أظنك ستبقى في (كلكتا) ؟ » .
رامش : « لا . بل أرجو أن أوفق إلى مكان ملائم في الشمال » .

أنادا بابو : « في الشمال ؟ .. هذه فكرة طيبة .. فلا بأس بمدينة
(إيتاوا) مثلاً ، إذ أن جوها من أنسب الأجواء لتجهيز المصمى ! ..
لقد قضيت مرة شهرأ في ربوعها ، فوجدت أن بوسعى أن أأكل هناك
ضعف ما أأكل هنا . ولعلك تدرك يا بنى أن الفتاة هى ابنتى الوحيدة .
وأن أحدنا لن يسعد بعيداً عن الآخر ، وهذا ما يعطينى على أن أسألك
أن تختار مقر إقامتك للصحة ! » .

أما وقد أساء (رامش) إليه بالتأجيل . فقد رأى (أنادا بابو) أن
يستغل الفرصة ليلى بعض مطالب تروق له . وما كان (رامش) - فيما
اعتراه في اضطراب البال - ليتردد في أن يوافق على التزوج إلى أبعد
البقاع وأوعرها . بل إلى أقصى قمة تغيب في الضباب .. ومن ثم قال :
« يديع جداً ، سأنضم إلى عهاى إيتاوا ! » .. وخرج بعد أن أخذ قائمة

أسماء المدعوين . وما أن انصرف ، حتى أقبل (أكشاي) : « فعمل من
(أنادا بابو) أن (رامش) قد أرجأ زواجه أسبوعاً .
أكشاي : « أحق هذا ؟ .. ليس له أن يرجئ ! كيف يفعل والموعد
بعد غد ؟ » .

أنادا : « ما كان له أن يفعل ذلك .. إن الناس العاديين لا يقدمون
على مثل هذا التصرف ، ولكن كل شيء جائز لديكم يا رجال اليوم ! » .
وتظاهر (أكشاي) بالاستياء والوجوم ، بينما انطلق ذهنه يعمل
في سرعة . ثم قال أخيراً : « إنك تغض عنيك عن كل الاحتمالات ،
حين تخال أنك وجدت زوجاً صالحاً لمثالي . خليق بكل أب أن
يستوثق من كل أمور الرجل الذى سيعهد إليه بانيته بقية عمرها . ما ينبغي
أن تستغنى عن الحذر ، ولو إزاء ملاك يبهط من السماء ! » .

أنادا : « إذا لم يكن شاب - مثل رامش - بمنجى عن الريب ،
فليس في العالم شخص يمكن الركون إليه ! » .
أكشاي : « هل أدلى إليك بسبب للإرجاء ؟ » .

فقال (أنادا بابو) وهو يفرك يديه : « لا ، لم يدل إلينا بسبب .
كل ما قاله . حين سألته ، هو أن لديه عملاً هاماً .. فأشاح (أكشاي)
ليخفى ابتسامة خيئة ، وقال : « إذن ، فلعله كاشف ابنتك بالسبب ؟ » .
أنادا : « أظنه فعل » .

أكشاي : « ألا يحسن بك أن تدعوها وتستوثق منها ؟ » .
فقال (أنادا بابو) : « أجل ! » ، ثم صاح متأدياً (هينالنى) :
« قلاً أقبلت ورأت الشخص الذى كان .. » .

أيها ، بحيث لا يتاح لأكشاي أن يرى وجهها . وسأها (أنادابابو) :
« هل أيلتي لك رامش سبباً لإرجاء الزواج ؟ » .. فهزت (همنالتي)
رأسها ، قائلة : « لا ! » .. وعاد يسألها : « أولم تسأليه ؟ » .. فقالت :
« لم أسأله ! » ..

أنادا بابو : « ياله من أمر عجيب ! .. وبالكما من زوجين ! ..
إنه يأتي فيقول : « إن وقتي لا يتسع للزواج » ، فتبادرين قائلة : « لا بأس ،
للتزوج في أي يوم آخر » .. ثم تهملان الموضوع ! » ..

وتظاهر (أكشاي) بالانحياز إلى صف (همنالتي) . فقال :
« لا تنس أن المرء ينبغي أن لا يلع على شخص يبين بوضوح أنه غير
راغب في إبداء أسبابه ! .. ولو كان السبب مما يمكن الإقضاء به .
لباح لكما به (رامش) من تلقاء نفسه ! .. واحتقن وجه (همنالتي) ،
غضباً ، وقالت : « لا أحب أن أسمع رأي طرف ثالث في هذا الموضوع .
فأنا شخصياً متنتعة بالأمور في أوضاعها الراهنة ! » .. وأسمرعت تغادر
الحجرة .

واكتفهر حيا (أكشاي) . ولكنه اغتصب ابتسامة . وقال :
« هكذا الدنيا .. إذا حاولت أن تؤدي لصديق خدمة . كان التقريع
جزاءك ! .. إن هذا يوضح لك أن الصداقة أمر لا قيمة له . على أنني
أرى من واجبي كصديق أن أعرب عن ارتياحي في (رامش) ، ولو
كرهتموني وأسأتم إلي من أجل هذا .. فليس لي أن أفك مكتوف اليدين
إذا رأيت المتاعب تهددكم .. إنها نقطة ضعف في نفسي ! .. وعلى أية

حال . فسوف يخضر (جوجندرا) غداً : فإذا سمع القصة كلها ،
ولم يجد ما يدعوه للقلق من أجل أخته ، فلن أنبس ببنت شفة ! » ..
وأدرك (أنادا بابو) أن هذه كانت اللحظة المناسبة .. من الناحية
النفسية - ليبدأ (أكشاي) عما يعرفه من ممالك (رامش) . ولكن
الذي يحاول أن يخرق سرّاً غامضاً : قد يفتح ثغرة لإعصار يحتاجه
هو ! .. وكان انشيوخ المسن يكره هذا بطبعه . ومع ذلك ، فإنه لم يتألك
أن قال : « إنك كثير الوسواس يا أكشاي ! .. إذا لم يكن لديك
دليل - فلماذا ... ؟ » .. وكان (أكشاي) قديراً على كبح زمام نفسه .
ولكن هذا التحريص آثاره : فانتفجر قائلاً : « اسمع يا (أنادابابو) .. إنك
تستفز كل حوافر الشر في نفسي ! .. إنك توحى بأنني أكن للزواج
الموشع لابنتك ضغينة ، وإنني أثير الريب حول رجل برئ . إنني
لست من البراعة بحيث أحلق تعليم السيدات الفلاسفة . ولا أزعج لنفسي
القدرة على الحديث معهن في الشعر .. ما أنا إلا إنسان عادي » .. ولكنني
كنت دائماً محباً ومخلصاً لك ولأمرك . وإذا لم أكن نداء لرامش بابو
في شيء . إلا أنني أفخر بأنني ما كنت عنك شيئاً ما . إنني قادر على أن
أتملكك ، وأنال منك ما أطمع فيه » .. ولكنني لا أجسر على أن أسرق
بيتك .. وسوف تعرف غداً ما أرى إليه ! » ..

الفصل السادس عشر

■ أقبل الليل قبل أن يفرغ (رامش) من إرسال جميع الخطابات .
وما لبث أخيراً أن أوى إلى مضجعه . ولكنه لم يستطع أن ينام . فقد
أخذت تباران من الأفكار يتدفقان على ذهنه .

رائع . تمص في تواضع جسد طالبة ! .. ولقد كانت المدينة الكبيرة ترخر بأفواج من أمثال (رامش) .. من غامين ، وطلبة ، وأجانب ، ومواطنين . فإذا اختير هو بالذات ، من بين هذه الأفواج ، ليؤثر دون الآخرين بالسر القدسي ؟ .. لماذا اختير هو بالذات - دون سواه - ليشف في النافذة مع هذه الفتاة - جنباً إلى جنب ، وفي أشعة شمس الحريف المخضرة ، يشهدان معاً الخلائق تطفو في بحر لا نهاية له من الأسرار الخفية . اليبجية ؟ .. كانت معجزة . وأية معجزة ! .. معجزة غيرت أعني أغوار نفسه . كما أبدلت الكون المحيط به !

ومضى يذرع سطح داره ، حتى اكتمل الليل . ونوارى القمر خلف البيت المتأبل جانحاً إلى المغيب . وجشمت الظلمة على الأرض . وإن ظلت القبة الرقاء تتألق بوهج الضياء الذي عانتها مودعاً ! .. وارتعشت أوصال (رامش) لفرط البرد . وداهمه خوف مباغت اعتصر قلبه .. كان عليه أن يخوض المعركة في غده .. في ميدان الحياة ! .. ولم يتغصن في وجه السماء خط واحد ينم عن هم ، ولا تثنت غلالة ضوء القمر تحت أية حركة تشي بالقلق . ولا عكرت سكون الليل نامة . بل إن الحركة الأثرية الداذبة . التي تنظم الكون بكواكبه التي لا عداد لها ، لم تزل من السبات الشامل الذي ران على الوجود . فإذا كل شيء قد أخذ إلى راحة مغلطة ، عدا الإنسان في كفاحه القلق ! .. فإن الحياة الإنسانية تمضي في صراع لا يئس مع الطوارئ غير المرتقبة !

كانت الطمأنينة الأبدية - طمأنينة اللاهوتية السرمديّة - تتجلى في جانب . والصراع الأبدى الدنيوي يفتق في الجانب الأخرى . فكيف

عكر .. تماماً كبرى (الجائز) و (الجومنا) ! .. واحتلظ التياران فأقضا مضجعه . ومن ثم راح يتقلب بمتعة ويسرة لغترة من الزمن . ولم يلبث أن طرح عنه الغطاء وهب واقفاً ، ثم سار إلى النافذة وأطل خلالها . كانت المنازل القائمة على أحد جانبي الطريق متروية في الظلام . بينما كانت زميلاتها القائمة على الجانب الآخر تسيح في قبض من أشعة القمر الزاهية . وظل (رامش) واقفاً . مستلماً لأفكاره . ونضا عنه أوشاب الوسط المادى المحيط به ، وما يسود هذا الوسط من كفاح وعدم استقرار . فخيّل إليه أن نفسه تتلظى مخلقة في عوالم لا نهاية لها ولا حدود ، حيث الخلود . والطمأنينة الشاملة ! .. وتتمثل في خيال رؤى : الميلاء والموت ، العناء والراحة ، البداية والنهاية . وهي تنبؤ دون انقطاع على مسرح اللاهوتية ، على أنغام الموسيقى السحرية اللاهوتية ، المنبعثة من جوف الصمت والسكون . دون أن يبدو لموكبها نهاية وراء أستار هذا المسرح ! .. ومن هذه اللاهوتية التي لا نور فيها ولا ظلام . أبصر (رامش) بتوأمين عاشقين - رجل وامرأة - يبرزان إلى هذه الدنيا التي كانت تبدو لعينيه تحت أضواء النجوم ! .. وكان التوأمين هو . و (همالني) ؟

وصعد اخوينا إلى سطح الدار . فالتجهم عيناها إلى بيت (أنادا بابو) لم يكن يعكر السكون أي صوت . وكان ضوء القمر والظلال بؤلقان نسيجاً نشراه على جدران البيت . وتحت الأجزاء البارزة منه . وفي زوايا الأبواب والتوافذ وعلى حافة السطح .. ما كان أباه من منظر ! .. كان يقف في هذا البيت غير الشامخ - في قلب المدينة الحاجعة - كائن

أناذا بيور : إني في خير حال .
جوجندرا : وما أتياء الزواج ؟
أناذا بيور : سيعقد في يوم الأحد بعد القادم .
جوجندرا : ولماذا أوجي ؟

أناذا بيور : يحسن بك أن تسأل حديقك . كل ما قاله لنا
(رامش) . هو أن لديه عملاً هاماً ، وأن الزواج لا يمكن أن يعقد يوم
الأحد !

وصحط (جوجندرا) .. في نفسه .. على ما أبداه أبوه من تساهل .
وقال : أرى أنكم تملكون كل شيء يا أبت ، عندما لا أكون هنا ..
في عمل هام هذا الذي تعلل به .. إنه يمارس مهنة حرة . كما أنه لم
يعمل في أقرب مقيد بهم .. وإذا كان قد تورط في مأزق أو عمل
فلمست أرى ثمة ما يمنعه من أن يفضي إليك بالأمر . فلماذا سكنت عن
مناقشته ؟

إنه ، يهرب من المدينة . على أية حال ! .. فخليق بك أن تذهب
ولمناقشة بنفسك .

وأفرغ (جوجندرا) في جوفه كوب شاي . ثم اندفع خارجاً .
فصاح (أناذا بيور) : انظر يا جوجن .. فم هذا العجول منك ؟ إنك
: تأكل شيئاً ! .. ولكن (جوجندرا) كان قد غادر الدار ، وانطلق
إلى البيت المجاور . ووثب يجتازاً درجات السلم . منادياً : رامش ! ..
رامش ! .. ولكنه لم يعثر على أثر لم امش ، رغم أنه بحث عنه في غرفة
النوم ، وحجرة الجلوس ، وعلى سطح الدار ، وفي الأرض .

تظل الحلال على قيد البقاء ، جنباً إلى جنب ؟ .. وعلى الرغم من
العقبات والمتاعب التي كانت تشغل بال (رامش) . فإنه راح يفكر
ويستنتج ، محاولاً أن يفسر هذا اللغز الذي استعصى على كل حال ! ..
لقد كان من حظه ، أن آثره القدر بلمحة رأى فيها شيف (الحب) في
السكنية السرمادية التي لا حد لها .. السكنية التي تشمل أحشاء النواحي
والكوئ ! .. وما هو ذا في جوف الليل يشهد (الحب) في التسلية
بالدنيا ، يضحى متعزراً ، ويداس بالأقدام في زحمة الحياة وتضاعفها
فأي الصورتين تمثل الحقيقة - وأيهما من نسج الوهم والخيال ؟

الفصل السابع عشر

■ عاد (جوجندرا) . شقيق (هينالتي) .. من الريف بقطار الصباح
في اليوم التالي .. يوم السبت السابق على الأحد الذي كان محدداً لزواج
(هينالتي) . ومع ذلك ، فإنه لم يلمح .. وهو يقترب من البيت - أية
إشارة تتم عن الاحتفال المقبل ، فلا عقود من الأوراق الخضراء معلقة
في الشرفة ، بل ولا شيء على الإطلاق يميز البيت عن غيره من البيوت
الكبيرة . المغبرة . التي كانت تجاوره . وحده - وهو موجس - أنه
لن يثبت أن يسمع عن مرض مفاجئ . بيد أنه حين اندفع إلى داخل
الدار ، لم يلمح ما يشي من هذا القبيل ، بل وجد طعاماً مهياً
له . بينما جنس أبوه إلى المائدة يقرأ صحيفته . وأمامه قهح من الشاي .
احتسبى حوالى نصفه . وهتف (جوجندرا) وهو ينبع الغرفة : هل
عيم بخير ؟

وتساءل (جوجندرا) : « أين هنائي ؟ » فأجاب (أنادا بابو) :
« لقد تناولت الشاي في هذا الصباح مبكرة عن الموعد المعتاد ، ثم
صعدت إلى غرفتها .. و هتف (جوجندرا) : « يا للمسكينة ! ..
ما أراها إلا في خزي بالغ من مسلك (رامش) الغريب . وهذا هو السر
في أنها تنفادى مقابلتي ! .. » وصعد إلى الطابق العلوي ليسرى عن
أخته خجلها وهما . وكانت (هنائي) وحيدة في حجرة الجلوس ،
فلما سمعت وقع قدمي (جوجندرا) ، أسرعت فالتفتت كتاباً وتظاهرت
بالقراءة . حتى إذا دخل . طرحت الكتاب جانباً ونهضت تحية في
بشر هاتفة : « أهلاً بك . متى جئت ؟ .. إنك لا تبدو على ما يرام ! .. »
فصاح (جوجندرا) وهو يلقي بنفسه على مقعد : « وكيف أكون على
ما يرام ؟ .. لقد بلغت كل شيء يا هييم ! .. ولكن : لا تبتسمي . فما
جري الذي جرى إلا لأني لم أكن هنا ، على أنني سأعيد كل شيء إلى
مجرأه .. وبهذه المناسبة . هل أبدي لك (رامش) أية أسباب ؟ .. »

وأثقت (هنائي) نفسها في موقف حرج .. وضابقتها الشك الذي
بدا من (أكشاي) ومن (جوجندرا) . وأوجست من أن تصارح
أخاها بأن (رامش) لم يدل إليها بسبب يبرر إرجاء الزواج . على أنها
في الوقت ذاته أبت أن تكتب ؟ .. لذلك ما لبثت أن أجابت : « لقد
كان على استعداد لأن يبدي الأسباب . ولكنني لم أر داعياً لذلك ! .. »
فقال (جوجندرا) في نفسه : « غش كبيراً ! .. هذه شعبة
النساء ! .. » ثم قال بصوت مرتفع : « حسناً ، لا تنادي ! .. » فجعله
على أن يجهر بأسبابه قبل أن يتبني هذا اليوم ! .. قالت في غير

وبعد أن طاف بأعلى البيت وأسفله . عثر على الحارس فسأله عن
مخدومه . وكان الجواب : « لقد رحل مبكراً ! .. » وعاد يسأله :
« ومتى يعود ؟ .. » فأخبره الحارس بأن (رامش) حل معه قدراً من
الثياب ، وقال : إنه قد لا يعود قبل أربعة أيام أو خمسة .. أما أين ذهب
فهذا ما لم يكن الحارس يعرفه !

وعاد (جوجندرا) إلى مجلسه من المائدة في داره . وهو عابس
مهموم . فسأله (أنادا بابو) : « أي حظ أصبت ؟ .. » وقد الأبر
مجنناً : « ما الذي توقعه ؟ .. ها هو ذا رجل يوشك أن يتزوج من
ابنتك . ومع ذلك فإنك لا تهتم بتصرفاته وتثقلاته . رغم أنه يسكن
المتزل المجاور ! .. » فقال (أنادا بابو) : « لقد كان في داره امرأة
أمس . » فصاح جوجندرا : « ومع ذلك فإنك لم تكن تعلم بأنه رجل .
ولا حارس داره يعلم أين ذهب ! .. إن في الأمر ما يريب . فلو
مرتاحاً يا أبت لهذه الظواهر . فكيف تقبل الأمر بمثل هذا الملعون ؟ .. »
وإزاء هذا اللوم ، بدأ (أنادا بابو) يفتن إلى الموقف . فتساءل وهو
يبدي المظهر الجدي الذي يتطلبه الظرف : « رى ما معنى هذا ؟ .. »

■ والواقع أن (أنادا بابو) تساهل في الليلة السابقة مع (رامش) .
فتركه ينصرف دون أن يناقشه الحساب . ولكن الشاب - من ناحيته -
لم يفتن إلى هذا التساهل لجله بمثل هذه الأمور . فظن أن مجرد الاعتذار
بأن لديه عملاً هاماً يضطره إلى إرجاء الزواج . كان كافياً .. كان عذراً
يتيح له كامل الحرية في التصرف !

أكثرها . وهي ثقل صفحات الكتاب الذي كان في حجرها :
« ولكني غير مبتلىة ! .. ولا أريد أن أصابته بالإلحاح في طلب
الأسباب » . وعاد (جوجندرا) يقول لنفسه : « الكبرياء مرة
أخرى ! .. » ثم قال لها : « حسناً ، لا داعي لأن تشغلي بالك بهذا
الأمر » . وهم أن يتصرف ، فنهضت (هناليني) عن مقعدها ، وقالت :
« أرجو أن لا تقول له شيئاً بهذا الصدد . لنظنوا جميعاً ما شئت لكم
الظنون ، ولكنني -- شخصياً -- لا أرتاب فيه مطلقاً ! » .

وبدا لجوجندرا أن الأمر ليس مجرد مظهر تلمية الكبرياء . ولكن
حيه لأخته سبباً عليه . فابتدع وهو يقول لنفسه : « إن هؤلاء الخدم
لا يفقهون شيئاً من أمور الدنيا .. فهي قد تعرف الكثير مما تعجز
الكتب ، ولكنها في المواقف التي تثير الرعب تبدو ساذجة كالاطفال ! »
وقارن بين ما كانت تظهر من ثقة خالصة ، وبين ما بدا أنه خداع .
(رامش) . فإذا قلبه يقسو على الشاب . وإذا عزمه على أنه يضطره إلى
إعلان « أسبابه » يشدد . ونهض مرة أخرى متأهياً للانصراف . و (هناليني)
(هناليني) أسرعت تمسك بذراعه قائلة : « عني بأن لا تنس يوماً
لرامش في هذا الصدد ! » ، فأجابها : « سأفكر في الأمر » .

-- إن الأمر لا يحتاج إلى التفكير .. عني قبل أن تتصرف . تؤكد
لك أن ليس ثمة ما يدعوك للقلق . لست أسألك أكثر من هذا الرجاء .
وأقنعه إصرارها بأن (رامش) ولا بد قد أوضح لها موقفه تماماً
ولكن هذا لا يعني أن الإيضاح كان صادقاً . فما كان من الصغير
خداعها بأداة قصة مفترقة . وعن ثم تحول (جوجندرا) إليها قائلاً :

« سمعي يا هم .. ليست المسألة مسألة ارتياب في شخص . وإنما هي
واجب لابد من أن يؤديه أولياء أمر الفتاة المتقدمة على الزواج . ربما
كان (رامش) قد أفضى إليك بإيضاح مؤثرين أن تكتفيه . ولكن
هذا لا يمكن .. بل عليه أن يبرد الموقف لنا . وإذا شئت الحق يا (هم) ،
فإن الإصرار على طلب الإيضاح أصبح من شأننا . في هذه المرحلة .
وليس من شأنك أنت . على أننا لن نملك أن نتدخل في شئونكم إذا
ما تزوجتما ! » .

وأسرع مغادراً المكان . لم يبق خيط من التسامح الذي يلتصق
العشاق أن يمتروا وراءه شئونهم عادة ! .. وغدت الرابطة بين (رامش)
و (هناليني) عرضة لقلائف من « دخلاء » غير مشفقين .. تلك
الرابطة التي كانا يأملان -- في عمرة الوجد -- أن تنمو حتى تخلق لها عالماً
خاصاً بهما ! .. وأقلقت (هناليني) بوادر العاصفة التي خيمت على
حياتها . حتى أنها أصبحت تعاف مقابلة الأهل والأصحاب . وما أن
يلارحها (جوجندرا) . حتى تهالكت في مقعده . وقضت فيه بقية
نهارها غثلية بنفسها في غرقها .

أما (جوجندرا) . فتمها كان يغادر المنزل ، التي بأكشاي الذي
حياء قائلاً : « أهلاً بك يا جوجين .. هل وصلت أخيراً ؟ .. هل سمعت
بأنياً ؟ .. ما رأيك في الأمر كله » . فقال (جوجندرا) : « لقد فكرت
فيه ضويلاً . ولكنني لن أقنع بالكلام وبالقياس بحركات لا تنفع من
ورائيا . إن الوقت لا يتسع للجولس إلى مائدة الشاي . ومشافة
فتراضات وعناء نفسي ! » . فقال (أكشاي) : « وإذاً لا تسع » .

هذا المسلك كما تعلم ، فليست ممن يؤمنون بعلم النفس . ولا بالفلسفة والشعر . لأننى رجل عملى .. وهذا ما جعلتك بصدده ! ... وعقب (جوجندرا) فى تحمس نزق ، بقوله : « حسناً . أنا الآخر أفضل العمل .. فهل تستطيع أن تعرف أين ذهب رامش ؟ » .
— أجبل . — أين ؟

قال (أكشاي) : « لن أقول لك . ولكننى سأجعلك به فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم » .. فسأله (جوجندرا) : « ولماذا لا تفتنى بحيلة الأمر ؟ .. إنكم جميعاً تكتمون ما لديكم بدرجة مثيرة .. لقد عشت أياماً لأستجم . فما أن أوليتكم ظهورى . حتى بدأت الألفاظ الرهيبة تنفجر فى كل مكان . قل يا أكشاي . فلا داعى للتكتم ! .. تكلم يا رجل ! .. »
أكشاي : « يسرفنى أن أسمعك تتكلم بهذه اللهجة . فما أغضب الله . منى إلا أننى كنت صريحاً ، فإذا أخطأت تأبى أن تراقب . وإذا أخطأت ينهينى بأننى فطرت على التشكك والاستراية . وإذا (رامش بابو) لا يطرب للقاءى .. لم يبق سواك . وأخشى أن يصيبك ما أصابهم ! .. »
على أنك لست ممن يحبون المبالغ فى الجدل . وإنما أنت ممن يتردد فى العمل . ولكننى لم أوت البنيان الجسدى الذى يرشحنى لأن أكون صنواً لك .

جوجندرا : « دعك من هذا الأسلوب الملتوى يا أكشاي .. إننى لأوقن بأن لديك ما يهمنى ، فلماذا تكتمه وتخبرنى ؟ .. إلى الحقيقة .. هيا ! » .

أكشاي : « حسناً . سأروى لك القصة من البداية . فسوف تجد أن معظمها جديد عليك ! » .

الفصل الثامن عشر

● لم يكن أجل العقد الذى استأجر به (رامش) مسكنه فى حى (داردجاوا) قاه انتهى . لا ولا خطر للشباب أن يؤجر المسكن من الباطن . فقد كان — فى الأشهر الأخيرة — يعيش فى دنيا لا تثقله فيها الاعتبارات المالية . وكان لابد لكلام من مأوى إذا ما غادرت المدرسة . ومن ثم فقد ذهب إلى ذلك المسكن عندما طلع نهار يوم السبت ، فأشرف على تنظيفه . وجهزه بالحصائر ، والحشيات والأغطية ، وملأ مطبخه اتخالي . وانقضت بضع ساعات بين استكمال هذه الاستعدادات . وبين وصول (كالا) : قضاها (رامش) مضطجعا على أريكة خشبية . يفكر فيها يدخره له المستقبل . ولم يكن قد زار مدينة (ايتاوا) من قبل . ولكن مدن الشمال الغربى كانت متشابهة . ومن ثم لم يكن من العسير عليه أن يستعرض بعين الخيال صورة البيت الذى سيخذه فيها : (فيلا) فى أحد أطراف المدينة ، على حافة طريق برية تحف بها الأشجار . وتمتد أمامها — على الجانب الآخر للطريق .. مساحة شاسعة من الأرض المحروثة . تتناثر فى أرجائها الآبار ، والمنصات التى يجلس عليها الحراس ليطردوا الطيور والحيوان عن المحصولات الناضجة .. ويتردد فى الجو بلا انتطاق أزيز السواقى ، والثيران الصبورة عاكفة طيلة النهار على إدارتها لترفع المياه اللازمة لرى الحقول . يتدفع

يستقبل (كمالا) ؟ وأية موضوعات مشتركة تصلح لخديث بينهما ؟ وكيف سيكون مسلكتها نحوه ؟ .. كانت هذه الأسئلة كفيفة بأن تثير اضطوايه . فأحس بأنه لا يتقوى على مواجهة الموقف وهو متألك نفسه ! .. وكان خادماة ينتظران أمام باب البيت ، فأقبلا أولا . وقد حملا حنينة (كمالا) الضخمة قوضعاها في الشرفة . وجاءت (كمالا) في أعقابهما . حتى إذا بلغت مدخل الغرفة : توقفت . فهتفت بهيسا (رامش) : « تعالى يا كمالا ! » .

وغالبت شعورا طارئا من التردد ، ثم ولجت الغرفة . كان (رامش) قد اعترم أن يتركها في المدرسة خلال العطلة . وقد كافئها هذا الإحمال الجلى مته لشأنها . دموعا غالية .. واختلطت هذه الذكرى بما كان بينهما من فراق طويل ، فخلقا في نفسها شيئا من الوحشة . ومن ثم فقد تحاشت أن تتطلع إلى (رامش) بعد دخولها الحجره ، وظل بعصرها عافقا بالباب المفتوح . وبدا له شكلها غريبا عنه بدرجه أذهلته .. فلقد اعترأها تغير عجيب خلال هذه الأشهر القلائل . فإذا بها قد نمت كالغصن الصغير .. ولكنه كان غصنا ضعيفا ، إذ غابت عنها نضرة الصحة التي كانت تتجلى على أعضاء جسمها .. الجسم اليافع الذي لم يستكمل تناسقه . وفقد وجهها استدارته الطافحة بالشباب ، وبرزت عظام وجهها . وغارت وجنتاها وعيناها ، وانحسر التورد عن خديها فكشبتا حنرة لاهة . وغاب مريحها وخففت حركاتها !

وظلت — بعد دخولها — واقفة ، منتصبة القائمة ، وضوء أسنن الخريف يترامى من النافذة المفتوحة على ..

في الطريق جواد يثير حياء من الغبار . ويبدد صليل عنائه السكون الذي يرين على الجرح القاطن ! .. وأشفق إذ تصور أوقات الأصيل الوداعة التي ستغيبها (هنالقي) وحدها في (القفلا) المنزلة — المحوطة بكل ما يتقيا من الحر اللافح — منهكة في رعاية مترلها .. لا . ما كان ليقتضى على زوجته بالحياة في مثل هذا الوسط إلا إذا كانت (كمالا) إلى جوارها !

واستقر رأيه على أن لا يني (كمالا) بشيء إلا بعد انزواج .. فإذا ذلك ستسمى (هنالقي) إلى اكتساب ود (كمالا) . .. فإن تلب أن تكشف لها — في حنان — عن حقيقة حياتها . وأن تبصرها بالشياكة التي نسجها القادر ليربطها إلى حياتها ! .. ولسوف ترى (كمالا) نفسها بمنأى عن موطنها ، وقد حرمت من الأهل والمعارف . فلا تلب أن تستقر في المكان المخصص لها من الأسرة ، دون ما أمي ولا صلدة مضضعة !

■ وسادت الحارة سكبنة الظهيرة . إذ كان الحال قد غادروا أعمالهم . وتأهب (أصحاب الفراغ) للقبولة . ولأح أن نسيات مبكرة من الشتاء المقبل قد تسربت لتخفف من وقدة الحر . ولم يكن ثمة ما يشغل (رامش) عن الاستغرائ في رسم صورة السعادة التي تنتظره . فأنخذ بضبي عليها الألوان في سناء ! .. ولم يلبث أن بدأ صفو أحلامه ضجيج عجلات . فإذا بعربة كبيرة تنجه إلى باب داره فتفت عنهه . وأخذت أن تلابد عربة المدرسة تقل (كمالا) : فتسارعت دقات قلبه . ترى كيف

وجدائل شعرها المصفورة بشرط أحر تدلى على ظهرها .. وقد التفت بإحكام حول جيدها الذى لم يستكمل نموه ، ثوب من الصوف ذو لون مائل إلى الصفرة . ولبث (رامش) يخلق فيها بضع لحظات . وهو صامت . لم يكن قد تبقّى في ذاكرته من جمالها .. خلال الأشهر الثلاثة الماضية - سوى صورة باهتة . أما الآن ، فقد أضى التغيير الذى طرأ عليها « رونقاً على هذا الجلال - مما أحدث أثراً عميقاً في نفس (رامش) ، فالتى نفسه عاجزاً عن مقاومة فنتها .. وقال لها : « اجلسي يا كالا » ، فجلست دون أن تنبس ببنت شفة . وعاد يقول : « كيف حالك في المدرسة ؟ » ، فأجابت باقتضاب : « بخير ! » .

وأخذ (رامش) يعصر ذهنه - بحثاً عن شيء يقوله . وأخيراً . خطورت بباله فكرة ، فقال : « أظنك لم تتناولى طعاماً منذ ساعات : هناك طعام مهيا لك ، فهل أمر بإعداد المائدة ؟ » .. فأجابت : « لا - شكرًا لك .. لقد أكلت قبل أن أبدأ الرحلة ! » .. وعاد يسألها : « أولاً تأكلين شيئاً ؟ » .. هناك بعض الفاكهة .. تفاح . ورماد . وبعض الحلوى .. ولكن (كالا) اكتفت بأن هزت رأسها رافضة . وعاد (رامش) يتأمل وجهها .. كانت تمحلق في بعض صور كتاب المطالعة الإنجليزية - الذى كانت تحمله - وقد مالت برأسها إلى الأمام قليلاً . والوجه الجميل ، كالمغنطيس . يجتذب كل جمال في الوسط الذى يحيط به ! فقد لاح ضوء الشمس الجانحة إلى المغيب . وكأنه استحال - حين مس وجه الفتاة - إلى كائن حساس ! .. بل كان نهار الخريف تبلور - لوجودها - فأنخذ شكلاً وقالباً . فقد خيل لرامش أن الفتاة

تشد إلى فلكها السباء . والهواء . والنور . وكل ما يحيط بها - كما تشد الشمس الكواكب التى تدور في فلكها - فإذا بكل هذه الأشياء تتشكل بشكلها وهي جالسة صامتة . تمحلق في صور كتاب المطالعة « دون أن تنظن إلى جاذبيتها هذه !

■ وغادر (رامش) الحجرة ليعود حاملاً (صينية) مليئة بالتفاح والكثيرى والرماد ، وقال : « يبدو أنك تأبين أن تتناولى شيئاً يا كالا ، ولكنني جائع ، ولا أستطيع صبراً » . فابتسمت (كالا) وإذا ضوء ابسامة يبدد الضباب الذى كان ينتشر بينهما . وتناول (رامش) سكيناً وشرع ينشر تفاحة . ولكن المهارة كانت تنقصه . ولم تطق (كالا) صبراً على تسرعه المجرّد من البراعة . وعلى محاولاته الفاشلة لتقطيع الفاكهة . فانطلقت ضاحكة ! .. وأتلج صدر (رامش) ما انتابها من سرور لم تستطع أن تكبحه . فقال : « لعلك تضحكين لأنني لا أحذق تقشير التفاح ، إذن « أريني مهارتك ! » .. فقالت (كالا) : « بوسعي أن أريك لو أتني حصلت على سكين للفاكهة . ولكني لا أؤمن العمل بسكين المطبخ ! » .. فقال : « أظنني أن ليست لدينا سكين للفاكهة ! » . ونادى الخادم . وسأله إن كانت توجد سكين للفاكهة : فكان جوابه : « أجل يا سيدي . فقد ابتعنا كل ما يلزم » .. وإذا ذاك قال (رامش) : « إذن نظفها جيداً » وأحضرها ! » .

وعندما أحضر الخادم السكين ، خلعت (كالا) حذارتها ، وجلست . ثم راحت - في خفة بارعة - تقشر التفاحة . وتمحلت بعد



وقادر (رامش) الحجرة ليعود حاملاً صينية
ملينة بالتفاح والكمثرى والرمكان ..

ذلك تقضها إلى شرائح . وجلس (رامش) أمامها يتلقى الشرائح في طبق . وهو يقول : « لا بد أن تأكلي نصيباً منها ! » . فقالت : « لا .. شكراً » . قال : « إذن . فلي تأكل منها شيئاً ! » . وتطلعت إليه ، ثم قالت : « حسناً .. كل أنت أولاً . وسأكل بعدك ! » . فقال : « أتركك تعترمين أن تغري بي ؟ » .. فأجابته وهي تهر رأسها : « لا .. لن نخدعك حقاً ! » .. واقفّع بتأكدها . فتناول من الطبق شريحة دسها في فمه . وفي تلك اللحظة : رأى ما جعل فكاهة يجمدان .. رأى (جوجندرا) و « أكشاي » ينتصبان أمامه . لدى الباب !

وكان (أكشاي) أول من تكلم . فقال : « معذرة يا رامش بابو . ظننت أننا ستجعلك وحيداً . ما كان ينبغي يا « جوجن » أن تفاجئته هكذا دون ما إنذار . هيا بنا . لننظره في الطابق الأرضي ! » .. وتركت (أكالا) السكين ثقلت من يدها وفقرت مستوية على قدميها . وكان الرجلان يسدان الطريق إلى خارج الغرفة . فتنحى (جوجندرا) جانباً ليفسح لها الطريق . دون أن يقول بصره عن وجهها ، بل ظل يحدق فيها . ولادفت (أكالا) بالغرفة المجاورة . وقد تملكها الاستياء !

الفصل التاسع عشر

● قال (جوجندرا) متسائلاً : « من هذه الفتاة يا رامش ؟ » .. فأجاب هذا : « إنها إحدى قريباتي . وسأله (جوجندرا) : « وما صلة قرابتها بك ؟ » ما أخفيها من ذوي النسب إلا « أكالا » .. فحدثته عن كل أقاربك . فلم أسمع قط عن هذه .. وأذهلك .. أهمل ..

(أكتشى) قائلا : « اهدأ يا جوجن . من المؤكد أن ثمة أموراً يجب
أى رجل أن يكتمها حتى عن أصدقائه ! .. فقال (جوجندرا) :
« أفهذه من الأسرار الدفينة يا رامش ؟ » .. فتصرح وجه (رامش)
وقال : « أجل . إنها سر . وإنى لأؤثر أن لا أتناول أمر هذه الفتاة في
حديثنا ! » . غير أن (جوجندرا) بادره في جفاء : « ولكننى - لسوء
الطالع - أريد أن أتحدث معك بصدها بالذات ! .. فلم تكن مرتبطاً
بهنالينى . لما كانت ثمة حاجة إلى التنقيب عن فروع شجرة النسب
الخاصة بأسرتك . ولجاز لك أن تستبقي أسرارك لنفسك ! .. فقال
رامش : « كل ما أملك أن أقوله هو أنه ليس فى الدنيا شخص تربطنى
به علاقة من نوع يقف . ون زواجى من هنالينى وأنا مرتاح الضمير ! ..
جوجندرا : « أن الذى لا يبدو لك حائلاً . قد يكون حائلاً فى رأى
أهل هنالينى .. ولست أريد أكثر من أن نجيب عن هذا السؤال : سواء
أكنت قريباً لهذه الفتاة أو لم تكن ، فلماذا تنسرت على مقامها هنا ؟ »
رامش : « لو أننى ذكرت لك السبب . لأفشيت السر . ألا تنق
بقولى دون أن تسألنى الأسباب ؟ » .

جوجندرا : « ألا تدعى هذه الفتاة (كالا) ؟ » .

رامش : « بلى ! » .

جوجندرا : « هل وصفتها بأنها زوجتك . حين ألحقها بالمدرسة ،
أو لم تصفها ؟ » .

رامش : « بلى وصفتها » .

جوجندرا : « أفترى متى بعد هذا أن أصلحك ؟ - أريد أن

تقول إنها ليست زوجتك . فى حين أنك أنبأت كل مخلوق بأنها
زوجتك ! .. إنك لا تضرب مثالا طيباً فى الصدق والحقيقة ! » .

أكتشى : « أعتقد أنك تقصد أن هذا لا يكاد يكون مثالا يجوز
للرء أن يسوقه فى محاضرة عملية عن الصدق ! .. ولكنك تنسى
يا عزيزى (جوجن) أن الضرورة قد تدعو المرء إلى أن يروى قصتين
مختلفتين . لقرئتين مختلفين من الناس . فى بعض الظروف غير العادية .
وغالباً ما تكون إحدى القصتين صادقة . ففعل تلك التى رواها لك
(رامش بابو) هى القصة الحقيقية ! » .

رامش : « لن أقول لكما شيئاً على الإطلاق . ولن أزيد على ما قلته
من أننى لا أرتكب وزراً بزواجى من (هنالينى) . ولدى سبب جاد قوى
يجعلنى أرفض أن أبحث معكما موضوع (كالا) . بل من الخطأ أن أفعل ،
مهما رأيتما فى مسلكى ما يريبكما . ولو أن الأمر كان متعلقاً بسعادتى
أو سمتى وحدى . لما أنخضت عنكما شيئاً . ولكننى أرفض أن أقول
شيئاً » . إذا كنت بهذا القول أقيم عقبات فى طريق مستقبل شخص
آخر ! » .

جوجندرا : « هل صارت (هنالينى) بكل شيء ؟ » .

رامش : « لا . وإنما سأنبئها بعد زواجنا . ولو أنها شاعت ،
فلنقى على استعداد لأن أنبئها الآن ! » .

جوجندرا : « حسناً . هل أستطيع أن أوجه إلى (كالا) بعض أسئلة
فى هذا العدد ؟ » .

رامش : كلا بكل تأكيد ! .. إذا اعتبرتي مذنباً ، فاحكم على بما تراه . أما (كمالا) فبريئة كل البراءة ، ولن أعرضها للتحقيق الذي تريد إجراؤه ! .

جوجندرا : « لا داعي لسؤال أحد على الإطلاق - فقد تبين كل ما ينبغي أن يعرف - لقد زودتني بالدليل الكافي - وأحب أن أقول لك بكل بساطة ، أنك ستعترض للإهانة إذا أنت وطأت أرض دولتنا بتدمك ! » .

وشحبه وجه (رامش) . بيد أنه لم ينس بيت شقة .. بينما استنطرد (جوجندرا) قائلاً : (وهناك شيء آخر أود أن أقوله .. ليس لك أن تكتب إلى هناليني ، أو أن تحاول أن تتصل بها . أبسط اتصال ، في العلن أو في السر . ولو كتبت إليها ، فسأعلن للملا سرك الذي تخصص على التستر عليه . مع الأدلة المثبتة له . وإذا سألت أحد عن سبب ففهم خطبتك لهناليني ، فسأقول إن السبب يرجع إلى أنني رفضت الموافقة على الزواج . ولن أذكر السبب الحقيقي . أما إذا لم تازم جانب الحذر ، فسأذيع القصة كلها . وقد يدهشك أن أبدي كل هذا التسامح إزاء تصرفك البشع .. ولكن لا تغفل أن تغيب عطف عليك يحذوني إلى ذلك . وإنما أتساهل لأن هذه المسألة تمس أختي هناليني ، وكلمتي الأخيرة إليك هي أنه ليس لك أن تبين بالقول أو الإشارة أنك قد عرفت يوماً هناليني أقل معرفة . ولا قيمة لأن أتزعج منك وعداً ، فليست توقع منك أي وفاء بعد هذه الخدعة . ولكن .. إذا كانت

لديك بقية من الحياء ، أو من خشية القضيحة ، فلا ينبغي أن تستبين بهذا الإنذار ! ..

أكشاي : « حقاً يا جوجن ! .. ألسنت أسفاً من أجل رامش بابو ، يعد كل هذا ؟ .. ألا انظر كيف يتلقى الأمر بهدوء ! .. خليك بنا أن ننصرف الآن ! .. لا تبثس يا رامش بابو ، فنحن خارجان ! » .

● وانصرف (جوجندرا) و (أكشاي) تاركين (رامش) في حالة من الذهول . أفقدته القدرة على التحرك ! وعندما بدأت حواسه تفيق من الصدمة . كان أول ما خالجه « شعور بالرغبة في أن ينطلق على قدميه ، وأن يسير طويلاً ، ليستعرض الموقف في الهواء الطلق . بيد أنه تذكر أن ليس بوسعه أن يترك ، (كمالا) وحيدة في مكان غريب بالنسبة لها . وما لبث أن سعى إلى الغرفة المجاورة . فإذا الفتاة جالسة إلى جوار النافذة ، تطل على الطريق . خلال مصراع مفتوح من المصراعين الخشبيين . وأغلقت المصراع حين سمعت خطوات (رامش) وانضت إليه ، فجلسا الترفقاء على الأرض .

وسألته كمالا : « من يكون هذان الرجلان ؟ .. لقد وفداً على مدرستنا في هذا الصباح ! » : « فهتفت في دهشة : « ذهباً إلى المدرسة ؟ » .. قالت : « أجل .. ما الذي قاله لك ؟ » .

— سألاقي عن صلة القرى التي تربطك بي !

ومع أنه لم يقدر لكلاً قط أن تجلس عند قدميها فالتفت إليها برحاً في المناسبات التي يجدر بالزوجة الشابة فيها أن تجلس أمام زوجها .

إلا أن غريزتها دفعت حمرة الخجل إلى وجعها عندما سمعت كلمات (رامش) ، بينما كان يمضي في حديثه قائلاً : « وقد أخبرتكما بأن ليست بيننا أية صلة ! » . وبدأ قوله - في رأبها - دعاية ممجوجة ، فأشاحت في غضب قائلة : « لا تكن تخيفاً ! » .. وساءل (رامش) نفسه عما إذا كان يحسر على أن يروي لها الحقيقة بخدافها !

وقفزت (كمالاً) فجأة وهي تصيح جزعة : « أنظر .. ها هو ذا غراب يغتطف فاكهتك ! » . وهوعت إلى الغرفة الأخرى - فطردت الغراب ، ثم عادت بصفحة الفواكه . وسألته وهي تضع أمامه طبقاً : « ألن تتناول شيئاً منها ؟ » .. وهزته هذه الرعاية .. ورغم أن شبيبته كانت قد ولت - إلا أنه سأها : « وأنت ، ألن تتناول شيئاً يا كمالاً ؟ » .. فأجابته في لهجة الزوجة التي تأتي أن تأكل شيئاً قبل أن يشبع زوجها جوعه : « بل كل أنت أولاً ! » .. وكان الأمر بسيطاً ، ولكن أعصاب (رامش) كانت مرهفة . فكادت رعب الفتاة الساذجة أن تدفع اللدغ إلى عينيه . وعجز عن أن يجد قولاً مناسباً ، ولكنه سيطر على نفسه ، وتناول بعض الفاكهة ، ثم قال عندما فرغ : « يجب أن نرحل الليلة إلى بلدتنا يا كمالاً ! » .. وإذا الأسى يتبدى على وجه الفتاة - وهي تبادر قائلة : « لا أريد أن أذهب إلى هناك ! » .. فسأها : « وهل تخين أن تواصل الدراسة ؟ » .

كمالاً : « لا ، لا ترسلني إلى المدرسة ثانية : فإن الفتيات لا يفتأن يسألني عنك » ويثرون خجلي ! » .
رامش : « وما الذي تقولينه لمن ؟ » .

كمالاً : « لا أقول شيئاً .. لقد رحن يسألني عن سر رغبتك في أن تركني في المدرسة أثناء العطلة .. و .. » . ولم تنو على إتمام عبارتها ، فإن الذكرى تكأت جرح فؤادها . فقال (رامش) : « لم لم تقولي لمن أنتي لا أمت إليك بصفة ؟ » . فرمته (كمالاً) بنظرة لوم ونفاد صبر ، وعادت تكرر : « لا تكن شيئاً ! » .

■ وساءل (رامش) نفسه : « ترى ما الذي أفعله ؟ » . كان سره كاللدودة التي تلخر جويته ونشاطه ! .. وكانت هذه الدودة - في دأبها - موجعة مؤلمة . وراحت الأسئلة تعذبه وتضني باله : « ترى ما الذي يخطر أن يكون (جوجندرا) قد قاله لهناليني في هذه الأثناء ؟ .. وكيف تلقت (هناليني) النبأ ؟ .. وكيف يستطيع أن يشرح لها حقيقة الأمر ؟ .. وكيف يطيق أن يعيش العمر بعيداً عن (هناليني) ؟ » .. ولكن فكره المشتت عجز عن أن يوافيه بإجابات لهذه الأسئلة .. كل ما كان يدركه هو أن علاقته بكمالاً غدت موضع اهتمام أصدقائه وأعدائه في (كلكتا) ، ولن يؤدي زعمه بأن (كمالاً) زوجته إلا إلى استفحال الشائعات حوله . ومن ثم فلا سبيل للبقاء معها يوماً آخر في هذه المدينة !

ولم يغب انشغال باله عن (كمالاً) ، فرمته في تساؤل ، وقالت : « ما الذي يشغلك ؟ .. إذا شئت أن تعود إلى بلدتك وتقيم فيها ، فسوف أرافقك ! » .. ووخز فؤاده مرة أخرى هذا الانصياع من الفتاة لرغباته . وراح يسائل نفسه من جديد عن خير مسلك يساكنه وثاة فكره وهو يتأمل (كمالاً) دون أن يعقب على قولها بشيء ..
www.davidforab.com

أخطر من أن تمكث عليه ، فقالت : « أرجو أن لا يكون قد أغضبك عدم انصياعي لبقاء في المدرسة خلال العطلة .. صارحني - هل غضبت ؟ » .. فقال (رامش) : « الحق أني غضبت من نفسي ، وليس منك ! » .

وحرر نفسه في جهد من أفكاره المتداخلة ، المضطربة ، وتغول يجاذب (كمالاً) الحديث ، فقال لها بغتة : « ألا حديثي يا كمالاً عما تعلمته في المدرسة طيلة هذه الفترة » .. فشرعت تعرض عليه ما تعلمت ، وهي مفتبطة ، وحاولت أن تثير دهشته بما حصلته من معرفة عن الأرض وكرويتها ! ونظاير (رامش) من ناحيته بأنه يحفل بهذا الموضوع ولا يصدق ، فراح يتساءل : كيف يمكن أن تكون الأرض كروية : وحملت فيه (كمالاً) في دهشة ، وهي تقول : « إن هذا موجود في كتابنا ، وقد درسناه ! » .. فقال (رامش) متظاهراً بالعجب : « ما أراك جادة في قولك ، أوجد هذا في كتاب حقاً ؟ .. أي كتاب هذا ؟ » .. وخدعت (كمالاً) بنظايره . فقالت : « إنه كتاب غير ضخم ، ولكنه مطبوع .. ويتضمن صوراً أيضاً ! » .. وكأنما كان هذا دليلاً كافياً أفحم (رامش) ! .

وإذا فرغت (كمالاً) من سرد ما تعلمته . استطردت متحدثة عن زميلاتها ، ومدرساتها ، والمدرسة ونظمها . وشرذ ذهن (رامش) مرة أخرى ، بيد أنه ظل يتمم بضع كلمات من آن لآخر ، ليوحى إليها بأنه يتبع حديثها . وكان أحياناً يقف إلى بعض عباراتها ، فيكررها في تساؤل : وكأنه يستزدها إيضاحاً . على أن (كمالاً) لم تلبث أن

أن هممت : « إنك لا تصني إلى ! » .. ونهضت واقفة في استياء ، فيادر قائلاً : « مهلاً يا كمالاً ، لا تقضي .. لأنني لا أكاد أنمالك نفسي اليوم ! » .. فسأله وهي ترتد إليه : « أشعر بتوعلك ؟ .. ماذا بك ؟ » .
- لست متوعلك بما في الكلمة من معنى .. بل لأنني لا أشعر بآلم ذي بال ، وإنما هي حال تعاودني في بعض الأحيان . هلا استرسلت في حديثك من جديد ؟

فقالت (كمالاً) وقد عادت تحاول أن تدهشه بمعرفتها : « أئجب أن ترى الصور التي في كتاب مبادئ الجغرافيا ؟ » .. فتصنع اللهفة في طلب الكتاب . وإذا ذاك أسرع (كمالاً) إلى إحضاره ، وفتحته أمامه ، قائلة : « هاتان الكرتان اللتان تراهما ، ليستا سوى كرة واحدة في الحقيقة . إذ أن المرأة لا يستطيع .. كما تعرف .. أن يرى مجاني أية كرة . في وقت واحد ! » .. ونظاير (رامش) بأنه يتأمل الصورة في إيمان ، ثم قال : « وهكذا الأمر أيضاً في أي جسم مسطح » .. وقالت كمالاً وهي ماضية في حديثها : « ولهذا السبب رسم شفا الكرة الأرضية متفصلين في هذه الصورة ! » .

.. وعلى هذا النسق قضيا أول أيام العطلة !

الفصل العشرون

■ كان (أنادابو) يتمنى من صميم قواذه أن يعود إليه (جوجندرا) بأبناء طيبة . وأن يقبدهم سوء التفاهم كله . فلما دخل عليه (جوجندرا) و (أكشاي) الحجرية ، تطلع إليهما في قلق .. وشرح أمته يقول :

« ما كنت لأصدق قط يا أبت أنك تسمح لرامش بأن يتأذى إلى هذا الحد ، ولو أنني كنت أحس أنه يفعل ما فعل ، لما قدمته إليك ولا عرفتك به ! » .

أنادا بابو : « ما أكثر ما عبرت لي بنفسك عما يتولاك من سعادة لو أن (رامش) تزوج من (همناليني) .. فإذا كان قد خطر لك أن تحول دون ذلك ... » .

جوجندرا : « ما كنت لأفكر قط — في الواقع — في أن أقف ضد هذا الزواج . لولا ... » .

أنادا بابو : « لست أرى مجالاً للاستدراك هنا .. فإما أن يدع المرء الأمر يمضي إلى نهايته ، وإما أن يوقفه ، ولا سبيل لسلوك وسط في هذا الموضوع ! » .

جوجندرا : « ومع ذلك . فإن ترك (رامش) يتأذى ... » .
وهنا تدخل (أكشاي) في الحديث ، قائلاً في خبث : « هناك أمور تسير من تلقاء نفسها إلى أقصى مداها ، دون أن يكون للمرء يد في تطورها . ومع ذلك . فلا جدوى من البكاء على ما فات ، بل يحسن بنا أن نقرر ما ينبغي أن نفعل الآن ! » .. فتسائل (أنادا بابو) في هفوة : « وهل رأيتا رامش ؟ » .

جوجندرا : « رأيتاه حقاً .. رأيتاه في أسرته ، وتعرفنا إلى زوجته » .
وصنع (أنادا بابو) ! .. وعندما استطاع أن يتكلم أخيراً ، راح يردد : « تعرفنا إلى زوجته ؟ » .. فقال جوجندرا : « أجل .. زوجة رامش ! » .

أنادا بابو : « لست أفقه ما تقول .. أية (زوجة رامش) هذه ؟ » .
جوجندرا : « زوجة رامش .. صديقنا العزيز ! .. فهو لم يعد إلى بلدته عقب الامتحان إلا ليتزوج ! » .

أنادا بابو : « ظننت أن موت أبيه قضى على مشروع الزواج ! » .
جوجندرا : « لقد تزوج قبيل وفاة أبيه » .

وجلس (أنادا بابو) يتحسس رأسه ، مبهوتاً . ثم قال بعد هنيهة : « إذن . فلن يكون له أن يتزوج من عزيزتنا ديم ؟ » .. فأجاب جوجندرا : « هذا ما أردنا قوله ! » . فصاح (أنادا بابو) : « قولاً ما شتاء ، فإن قولكما لن يمنع الأمور الواقع .. إن الاستعدادات للزواج قد استكملت تقريباً . وقد كتبنا لجميع أقاربنا قائلين أن الزواج لن يتم في يوم الأحد من هذا الأسبوع . وأنه أرجئ إلى يوم الأحد التالي . وما أرى إلا أننا مضطرون إلى أن نكتب إليهم ثانية لنقول أن الزواج قد ألغى تماماً ! » .
فقال جوجندرا : « لا داعي للإلغاء .. كل ما نحتاج إليه هو إجراء تعديل واحد . لتبقى كل تدابيرنا كما هي ! » .. فسأله « أنادا بابو » في دهشة : « وأي تعديل هذا ؟ » .

جوجندرا : « إنه واضح جلي . يجب أن نحل رجلاً آخر محل (رامش) ، ونحضر في الاحتفال يوم الأحد المقبل ، وإلا فلن يكون بوسعنا أن نظهر أمام الناس ! » .. وألقى (جوجندرا) نظرة نحو (أكشاي) . ففرض هذا بصره استحياء . بينما قال (أنادا بابو) : « وكيف نحرر على رجل آخر ترشحه للزواج من (ديم) بهذه السرعة ؟ » .
فأجاب جوجندرا : « لا داعي للقلق » .

للك ١ .. وضاق (جوجندرا) بما ألقى لدى أبيه وأخته من ثقة لاهين
برامش « ومن ثم لم يحاول المضي في التلطف ، بل أتى إلى همناليني
النبا في قسوة ، قائلا : « هل تذكرين عودة رامش مع أبيه إلى بلديهما ؟
لقد ظللنا مدة طويلة - بعد ذلك - لم نلق خلالها نبأ منه ، فكان من
الطبيعي أن نستغرب تصرفه . كذلك تعرفين أنه كان فيها مضى يقم
في البيت المخاور ، ويتردد على دارنا مرتين في اليوم ، في حين أنه
عندما عاد إلى (كلكتا) حرص على أن يقطن في مكان يبعد عنا أميلا ،
ولم يزرنا قط . ومع ذلك ، فقد لبثت وأبوك تؤمان به ، وثقتان فيه ،
ومن ثم دعوتاه ، وعاملتاه كما كنتا تعاملانه في الماضي . وما كان هذا
ليحدث لو أنني كنت هنا ! » .. وأنصتت (همناليني) ، ولكنها لم
تنبس ببنت شفة .

جوجندرا : « هل عمد أحدكما إلى أية محاولة ليتبين ما وراء هذا
المسلك الشاذ منه ؟ .. ألم تشعرنا قط بأن فيه ما يثير فضولكما ؟ .. يبدو
أنكما كنتا شديدتي الثقة به ! »

ومع ذلك ، فلم تنبس (همناليني) ببنت شفة !

جوجندرا : « جميل جداً .. إن المرء ليجد نفسه مسوقاً إلى أن
يعتقد أنكما لا تبالان بطبعكما إلى الارتياح في الناس ١ .. على أنني
أرجو أن تصدقا ما سوف أتحدثكما به الآن . لقد ذهبت بنفسى إلى مدرسة
البنات « فوجدت أن لرامش زوجة ألحقها بالقسم الداخلي منها ، وكان
قد رغب في أن يتركها هناك إبان العطلة : « لا أن أتحقق عليها الساء ،
فهبط عليه - منذ يومين أو ثلاثة - بخطاب من ناظرة المدرسة تقول

أنادا بابو : « سيكون عليك أن تحصل على موافقة (هم) أولاً ! »
جوجندرا : « إنها متوافق حتماً ، إذا ما عرفت مسلك رامش ! »
أنادا بابو : « حسناً ! افعل ما تراه صالحاً ، ولكن هذا لا يجمع
أسنى على (رامش) . فقد كان ميسور الحال ، عاقلاً ، متعلماً ..
ولقد اتفقنا بالأمس فقط على أن يتروح إلى (إيتاواه) لممارسة الحمامة
هناك . بعد أن يتم الزواج .. فانتظر إلى ما جرى ! »
جوجندرا : « ما ينبغي لك أن تأسى على ما فات يا أبت ! ليذهب
(رامش) فيأمرس الحمامة في (إيتاواه) إذا شاء .. أما الآن - فيحسن
في أن أدهو (هم) فوراً .. فليس لدينا وقت نبدده . »



■ وخرج ، ثم عاد بهمناليني بعد دقيقة أو اثنتين . وتواوى (أكشاي)
خلف صوان للكتب في أحد الأركان . وقال جوجندرا : « اجلسي
يا هم ، فإن لدينا حديثاً مهمك » .. فجلست (هم) دون أن تنبس
ببنت شفة ، وقد تأهبت لكل ما يرتقب سماعه . وشرع (جوجندرا)
يتحایل على مفاتها في الأمر برفق . فقال : « ألم تلاحظي في مسلك
رامش ما يريب ؟ .. فاكنتف بأن هزت رأسها نافية .. وإذا قال :
« لقد أوجأ الزواج أسبوعاً » فأى سبب يمكن أن يحمله على ذلك .
ولا يملك أن يصارحننا به ؟ .. فأجاب دون أن ترفع بصرها نحوه :
« لا بد أن لديه سبباً » .

— أصبت .. هناك سبب بالفعل ، ولكن ألا ترين في هذا ما يريب ؟
وهزت (همناليني) رأسها إشارة إلى أنها لم تكن ترى داعياً

« يا أبت .. ألا سل أكشاي بابو أن يخرج ! » .. وترك (أكشاي) المروحة لقوره . وخرج إلى البهو .. وجلس (أنادا بابو) على الأريكة بجوار ابنته . ربت رأسها ، ويتحسس عرقها . دون أن يقوى على شيء سوى التهد وتريد : يا حبيبتي ! يا عزيزتي ! ..

وفجأة ، فاضت عينا (هناليني) بالدموع ، وبدأ صدرها يتهدج . ومالت بصدرها على ركبتي أبيها . تحاول أن تكتم أساهها . فغمغم (أنادا بابو) بصوت مهدج : « لأبأس يا عزيزتي لا تحفلي .. إنني أعرف (رامش) معرفة وثيقة ، وأوقن أنه لا يمكن أن يفر بنا البتة . لابد أن جوجن أخطأ ! » .. ونفذ صبر (جوجندرا) فصاح : « لا تمنحها بآمال زائفة يا أبت .. لو أنك حاولت أن تشفق عليها الآن بالكاذب ، فسوف تكون العاقبة وخيمة . دع لها فرصة كي تفكر في الأمر كله ! » .. فرفعت (هناليني) رأسها عن ركبتي أبيها ، واستوت جالسة ثم تفرست في وجه (جوجندرا) قائلة : « أصارحك بأني لن أصدق قط شيئاً » ما لم أسمعه من فم رامش نفسه ! .. وتنهضت على قدميها مترنحة ، فقفز (أنادا بابو) صائحاً في إشفاق ، وألقدها من السقوط . وتشبث هناليني بذراعه ، فأعانها على بلوغ غرفتها . وهناك ، قالت وهي تستلق على فراشها : « أرجو أن تدعني أخلو قليلاً إلى نفسي يا أبت ، ولن ألبث أن أنام » .. فسألها : « أرسل إليك مريبتك العجوز لتروح لك استجلاً للهواء » ..

— لا ، شكرًا لك ، بل أوتر أن أنفرد بنفسي !

وانتقل (أنادا بابو) إلى الغرفة المجاورة لخدمتها ، وقد عادت

له فيه إنها لا تستطيع أن تستقي (كالا) — زوجة رامش — في المدرسة أثناء العطلة . ولقد أغلقت المدرسة أبوابها اليوم ، فحملت عربتها (كالا) إلى المسكن الذي كان لرامش في (داروجيارا) .. وقد ذهبت إلى هناك بنفسها . فرأيت (كالا) تقشر تفاحة . بينما جالس (رامش) على الأرض أمامها ، يتلقى الشرائح منها ، ويضعها في فمه . وسألت (رامش) أن يشرح لي الموقف . فقال إنه لا يود أن يغضى بشيء . ولو أنه حاول — أقل محاولة — أن ينكر أن (كالا) زوجته . لصديقاه . ولعلنا على أن نبذل وسواسنا . ولكنه أي أن ينكر أو يؤكد . فهل في وسعكما بعد هذا أن تمضيا في الثقة به ؟ ! ..

■ وانتظر (جوجندرا) الجواب . وعينه لا تتحولان عن وجه أخته . فإذا بلونه يمتقع إلى درجة غريبة ، وإذا يداها تشدان على مسندتي المقعد بكل ما كان فيهما من قوة . وفي اللحظة التالية . انحنى رأسها على صدرها ، ثم هوت إلى الأرض مغشياً عليها ! .. وكان جزع (أنادا بابو) مثيراً للإشفاق . ورفع رأس ابنته عن الأرض . فأسندها إلى صدره وهو يصيح : « ماذا جرى يا عزيزتي ؟ .. ماذا جرى ؟ .. لا تصدق كلمة مما يقولان .. إنها يكذبان ! » .. فبادر (جوجندرا) ونحى أباه جانباً . ثم رفع (هناليني) إلى الأريكة . وألقى بجواره إناء ماء ، فثر منه قطرات على وجه الفتاة ، بينما أخذ (أكشاي) يستجلب الهواء إلى وجهها بمروحة مضى يحركها جهاداً . وما لبثت (هناليني) أن فتحت عينيها ، فاستوت جالسة في إعياء والتفتت إلى أبيها باكية :

ظللت طيلة الأيام الماضية صامتاً في أمان ، فلم يكن من الإنصاف أن تخرج بي في هذا المأزق !

جوجندرا : « حسناً ، سننظر في احتجاجك هذا فيما بعد . أما الآن فليست أجدر حيلة إلا إذا استطعنا أن نقتنع (رامش) بأن يعترف بنفسه لهتاليبي اعترافاً كاملاً ! »

أكشاي : « أجنون أنت ؟ وهل توقع من رجل ... ؟ »

جوجندرا : « ربما كان من الأفضل أن نعمله على الكتابة إليها . وهذه مهمتك .. فعليك أن تشرع في العمل فوراً ! » .
أكشاي : « سأرى ما الذي أستطيع أن أفعله » .

الفصل الحادى والعشرون

■ اصطحب (رامش) كمالاً في الساعة التاسعة من ذلك المساء إلى محطة (سيلداه) . في عربة أمر حوزيها بأن يسلك طريقاً دائرياً . خلال حارات (كالوتولا) . وإذا مرت العربة بدار معينة في ذلك الحى ، أطل (رامش) من نافذة العربة في لطفه . فلم يتبين ما ينم عن أى تغير طرأ على المعالم المألوفة للدار . وأرسل زفرة حرى . تبت (كمالا) من إغفاء كانت قد استغرقت فيها . فسألت عما به ، ولكنه قال وهو يشالك في مقعده : « لا شيء ! » . وظل جالساً في مكانه بلا حراك ، حتى بلغت العربة غايتها . وكانت (كمالا) طيلة الوقت مستسلمة للإغفاء في الركن الذى جلست فيه . ولم يتالك (رامش) نفسه من الشعور بإحسان طارئ جعله يكره مجرد وجودها !

إليه ذكريات أم (هم) التى ماتت والفتاة في الثالثة من عمرها ، فذكر وفاءها . وصبرها ، وبشاشتها التى لم تكن تفارقها : وشعر كأن قلبه يتمزق لوعة من أجل الابنة التى كرس لها مافات من السنين . كما يعدها لتحل محل أمها من حياته .. الابنة التى كبرت فصارت صورة حية للمرأة الغالية التى ماتت ! .. واخترقت أفكاره الجدار الذى كان يفصل بينه وبين الفتاة فألقى نفسه يخاطبها في وحدته :

« أرجو أن تزيل السماء من طريقك كل عقبة يا حبيبتى . وأن تسعدى ما حبيت .. أرجو أن أراك — قبل أن ألحق بأمك — هاتئة . ناعمة . مستقرة في أمان إلى جوار رجل يحبك وتحببه ! » .. ومسح بعطف سترته الدموع التى تفرقت في عينيه !



■ كان (جوجندرا) يؤمن دائماً بأن عقول النساء ناقصة . وقد عززت أحداث ذلك اليوم رأيه وتقديره . كيف يفهم المرء مع جنس يفض النظر عن الحقيقة الواقعة . الواضحة ؟ ! .. إن المرأة لتنكر بكل بساطة أن اثنين واثنين يصيران أربعة ، إذا ما تمشى ذلك الإنكار الخفيفة مع سمادتها الفردية ! .. وإذا قال لها العقل إن الأسود أسود . ثم جاء الحب فقال إن الأسود أبيض ، فلن تصفى للعقل المسكين ! . ولم يستطع (جوجندرا) أن يفقه كيف تسير الدنيا في طريقها . وتلك هى آراء المرأة ! .. ونادى (أكشاي) . فأقبل هذا إلى الغرفة متسللاً . وسأله (جوجندرا) : « أما وقد سمعت كل شيء . فما العمل الآن ؟ » .

— لماذا تخرج بي في الأمر يا صديق ؟ إنه ليس من شأنى : لقد

فاندست الفتاة في سريرها منصاعة « ولكنها ظلت لا تقوى على كبت الضحك بين آن وآخر ، حتى غلبها النعاس . أما (رامش) ، فلم ير في الحادث الذي وقع على رصيف الحطة ما يدعو للضحك .. كان يعرف أن ليس لأكشاي علاقة بالريف . إذ أن أسرته كانت تقيم في (كلكتا) منذ أجيال . فلم إذن كان مستميتاً في محاولة الحاق بهذا القطار بالذات ؟ .. كان التصير الوحيد لذلك ، هو أنه كان يتعجب رامش وكالا !

● وأحس (رامش) بأن انتهاء (أكشاي) إلى القيام ببعض تحريات عنه في بلدته . أمر من أبغض الأمور . إذ أنه يجعل سيرته وسمعته مضعة في أفواه قومه . وكان هذا من شأنه أن يزيد الأمر بشاعة . ولم يتالك أن راح يصور لنفسه انتشار الفضيحة في البلدة . والمرء في مدينة كبيرة مثل (كلكتا) يستطيع أن يجد مكاناً مغموراً يتوارى فيه . في مثل هذه الظروف . أما في بلدة ريفية صغيرة . فإن أنه الأمور كفيل بأن يثير ضجة لا مهرب منها ! .. وأخذ (رامش) يرتجف إشفاقاً من العاقبة كلما ازداد استرسالاً في تصور الموقف !

وعندما وقف القطار في (باراكبور) ، أطل (رامش) . فلم ير (أكشاي) يغادر القطار . وفي (نايهاتي) صعد إلى القطار عدد من الركاب . وهبط عدد آخر . ولكن (أكشاي) لم يكن بينهم . وعاد (رامش) يطل في (باجولا) . ولكنه لم يلبس (أكشاي) أبداً . ولم يبرح الرجل القطار في أي من المحطات التي يطل عليها على الرغم

ووصلا إلى المحطة مبكرين ، فالبنا أن استقرا في المقصورة التي كان (رامش) قد احتجزها في الدرجة الثانية . وأعد (رامش) فراشاً لكالا في أحد الأسرة المتخفضة في المقصورة ، وخضف الضوء ، وأغلق المضارب الخشبية للنوافذ ، ثم قال : « لقد فاتت ساعة نومك . فخير لك أن تأوى إلى الفراش ! » . ولكنها قالت : « ألا أستطيع أن أجلس هنا ؟ فانظر خلال النافذة حتى يتحرك القطار ، وبعد ذلك أنهباً للنوم ! » . ووافق (رامش) ، فجلست كالا على حافة السرير ، ورفعت نقابها ، وخضفت مصراع النافذة القريبة ، ثم مضت تراقب الناس ، بينما جلس (رامش) في منتصف مقعده مسرحاً بصره وهو تائه الفكر . وعندما بدأ القطار يتحرك ، وقع بصره فجأة على مسافر وصل متأخراً ، فانطلق يجرى على الرصيف .. وخيل إليه أن ملامح الرجل مألوفة لديه .

وقهت (كالا) فجأة في اللحظة التالية ، فأطل (رامش) من النافذة ، ورأى المسافر المتأخر يناضل ليتخلص من قبضة موظف من موظفي المحطة كان يحاول أن يبقيه بعيداً عن القطار الذي تحرك . وأفزع الرجل أخيراً في القفز إلى القطار ، وإن بقيت الملقعة — التي كان يلقيها حول وجهه — في يد الموظف ! .. وإذ مال الرجل خلال إحدى النوافذ ليتناول الملقعة من الموظف ، استطاع (رامش) أن يعرفه ، فإذا هو .. (أكشاي) ! .. وتماكنت (كالا) نفسها بعد قليل « فكفت عن الضحك من هذا الموقف . فقال لها رامش : « لقد تجاوزت الساعة النصف بعد العاشرة ، وها قد انطلق القطار ، فخير لك أن تنامي الآن ! » .

ما كان قد حل برامش من تعب ، فإنه لم يستسلم للنعاس إلا في ساعة متأخرة .

وفي باكورة الصباح التالي ، بلغ القطار محطة (جوالوندو) حيث يهبط الزاهيون إلى شرقي البنغال « ليجنازوا النهر - ولمح (رامش) أكشاي يسرع نحو البواخر النهرية ، وقد تلف وجهه في الملقعة ، وأمسك بحقيبة صغيرة . ولم تكن الباخرة الراحلة إلى بلدة (رامش) لتغادر الميناء قبل ساعات ، ولكن كانت ثمة باخرة أخرى على وشك الإقلاع وقد تصاعد البغبار منها ، وأخذت ترسل صغيراً قلقاً متعجلاً .. فسأل رامش أحد رجالها : « إلى أين تذهب هذه الباخرة ؟ » .. فكان الجواب : « إلى الغرب » .. وعاد يسأل : « وأين تنتهي رحلتها ؟ » ، فقيل له : « في بنارس ، إذا كانت المياه على ارتفاع كاف في النهر » .

وعمد (رامش) في الخلال إلى حजर قرة . حتى إذا استقرت (كالا) بها « هبط إلى البر ، فابتاع كيات من الأرز ، والقطاني (البقول) ، وطلع الموز ، واللبن ، كؤونة للرحلة . أما (أكشاي) فكان في تلك الأثناء قد سبق غيره إلى الباخرة الأخرى ، وجثم في مكان على سطحها يمكنه من أن يرى كل صاعد وكل هابط . ولم يكن يبدو على المسافرين على تلك الباخرة أى تعجل ، إذ لم يكن موعدها قد حان بعد : فراحوا يقضون وقتهم في غسل ثيابهم ، أو الاستحمام .. بل إن بعضهم راحوا يطهون طعامهم ويتناولونه على ضفة النهر . وظن (أكشاي) أن (رامش) قد اصطحب (كالا) إلى أحد المطاعم المجاورة ليتناولوا الفطور . ولما لم يكن على دواية بالمدينة ، فقد رأى من الأسفل

أن يبقى على الباخرة . وأخيراً ، انبعث صغير الباخرة ، ولما بيد أثر لرامش ! وشرع المسافرون يتقاطرون إلى سطح الباخرة ، على ألواح من الخشب استخدمت كعمرة . وإذا اشتد الضيق وتتابع ، أسرع المتلكئون من المسافرين ، ولكن (رامش) لم يظهر بين المتأخرين : ولا بين المتقاعين ! .. ورفعت المعبرة : وأمر ربان السفينة برفع المرساة . إذ ذاك صاح (أكشاي) : « مهلا ، أريد أن أهبط ! » ولكن الملاحين لم يعبأوا به . فلم يسهه سوى أن يقفز إلى الرصيف ..

ولم يلح لرامش أثر في المرفأ ! .. ولمح (أكشاي) قطار الصباح الزاهب إلى (كلكتا) ، وقد بارح المحطة ، فالتفت به تنكيره إلى أن (رامش) ولا بد قد فطن إليه .. أثناء محاولته اللحاق بالقطار — وحدهس نوابه ، فعدل عن رحلته إلى بلدته ، وأرتد عائداً إلى (كلكتا) في قطار الصباح . ومن الصعوبة بمكان أن تعثر على شخص في مدينة كبيرة مثل (كلكتا) !

الفصل الثاني والعشرون

● قضى (أكشاي) يومه كله منسكماً في (جوالوندو) . حتى إذا حل المساء ، استقل القطار الزاهب إلى (كلكتا) . وما أن وصل إليها — في الصباح الباكر من النهار التالي — حتى يم أولاً شطر مسكن (رامش) في حي (داردجيبارا) ، ولكنه ألغى الباب مغلقاً . وقدر له إن الدار خالية ، فتحول متجهاً إلى حي (كالكولا) ، فإذا بسكن

واغتسل (أكشاي) ثم جلس لتناول الشاي ، وذهنه لا يكف عن العمل ، حتى قطع عليه أفكاره مقدم (أنادا بابو) ، مسكاً بيد ابنته . فما إن رأت (هناليني) (أكشاي) حتى تكسبت على عتيبها وغادرت الغرفة . وإذا ذلك صاحب (جوجندرا) محققاً : « هذا تصرف سيء منك يا هييم ! .. يجب ألا تشجعها على مثل هذا المسك الثاني يا أبت : بل ينبغي أن تجربها على العودة إجباراً ! .. تعالى يا هييم ! .. هييم ! .. » ولكن الفتاة كانت قد اندفعت صاعدة السلم . وتدخل (أكشاي) قائلاً : « أعتقد أنك تصدق قضيتي يا جوجن . من الخير أن لا تذكر لما شيئاً عني : بل دع الزمن يسوي كل شيء . إنك إذا أجبرتني الآن على أمر ، فلن تكون النتيجة سوى ضرر لا سبيل إلى إصلاحه ! » ثم غادر (أكشاي) الدار ، بعد أن فرغ من تناول الشاي .

* * *

■ كان معين هذا الشاب من الصبر لا ينضب . وكان ، حين تبدو الظواهر ضده . يدرك أن ليس ثمة ما هو أفضل من القعود والانتظار . كما كان طبعه غاية في الهدوء والبرود ، فلو أنه أهين لما نظر في ترفع إلى من أهانه . ولا أشاح عنه في اشتزاز . بل إن الإهانات وأنواع اللزدراء لم تكن لتتال منه ! .. كان على قدر كبير من الصفاقة ! ومن ناحية أخرى . لم تكن تهتز في بدنه جراحة إذا عامله أصدقائه بكل لطف وشهامة !

وما إن انصرف الشاب : حتى أعاد (أنادا بابو) ابنته إلى مائدة الشاي . وكانت الحمرة قد غاضت من وجعها ، وكانت عليها هالات

(رامش) هناك خال : ومن ثم أوى إلى دار (أنادا بابو) المجاورة . وقال لجوجندرا : « لقد أفلت مني ! لم أستطع العثور عليه ! » . فهتفت (جوجندرا) : « ماذا تعني ؟ » . وانطلق (أكشاي) يروي له ما حدث بالتفصيل : فإذا شكوك (جوجندرا) في أمر (رامش) تتحول إلى يقين ، لا سيما حين علم أن (رامش) يادر إلى القمار مع (كالا) عندما رأى (أكشاي) . على أنه قال : « ومع ذلك - فإن هذه القرينة لن تجديني في بلوغ غرضنا . لأن الأمر لم يعد يقتصر على (هناليني) . بل إن والدي أصبح هو الآخر يردد عين اللغو الفارغ عن عدم فقدان الثقة بـرامش . حتى يسمع القصة بخلافها من (رامش) نفسه ! .. لقد تطورت الأمور إلى درجة تجعلني أعتقد أن (رامش) لو جاء اليوم وقال : « ليس في وسعي بعد أن أذكر لكم شيئاً » ، لما تردد أبي في أن يسمح له بالزواج من (هناليني) . ومع ذلك ، فالمرء مضطر إلى أن يتعامل مع أهل كهؤلاء ! .. إن أبي لا يحتمل أن يرى (هناليني) حزينة من أجل أي شيء . ولو أنها سعت إليه اليوم وقالت باكية : إنها تريد الزواج من (رامش) يرغم أنه متزوج من امرأة أخرى . لوافق على ذلك ! .. لا بد من أن نتزع اعترافاً منفصلاً من (رامش) بأية وسيلة . وكلما أسرعنا كان هذا أفضل ، فلا تدعنا نفقد الأمل . سوف أعالج الأمر بنفسى ، وإن كنت لا أدري كيف أتصرف ! .. بل من المحتمل ألا أجِد وسيلة مع (رامش) سوى أن أتعال عليه لكماً ! .. حسناً .. أعتقد أنك الآن في حاجة إلى الاغتسال ، وإلى تناول بعض الشاي ! » :

سراء . ولم ترفع بصرها إلى أخيها حين ولجت الغرفة . إذ كانت تعرف أن صبره قد نفذ إزاء (رامش) وإزاءها . وأنه قد أصبح حكمه بتسوة في أمرها . ومن ثم كانت تخفل من أن يلتقي بصرها بصره ! .. ومع أن (الحب) صان لإيمان هنالقي برامش من أي فتور ، إلا أنه لم يقو على كتم صوت العقل . وإذا كانت الفتاة قد أكدت لجوجندرا .. وهي تبرح الغرفة منذ يومين - أنها لن تفقد ثقها في (رامش) - إلا أنها - في وحدتها في جوف الليل .. شعرت بهذه الثقة تتململ في أعماقها ! .. فالواقع أنها لم ترى تفسير معقول يبرر المسلك الشاذ الذي أقدم عليه (رامش) . ولقد ناضلت جاهدة لتصد الشك عن حصن إيمانها ، بيد أن الريب راحت تتساقط كالطر على ذلك الإيمان . وكما تضم الأم طفلها إلى صدرها لتحميهِ . فإن (هنالقي) راحت تضم ثقها في (رامش) إلى فؤادها . كلما حاجتها قرينة من الترائن الباعثة للشك . ولكن .. ترى هل ستظل من القوة دائماً ، بحيث تدود عن تلك الثقة ؟!

وفي تلك الليلة . اتخذ (أناد بابو) مخدعه في الغرفة المجاورة لغرفة (هنالقي) . فعرف كيف قضت ليلتها مؤرقة . وكثيراً ما سعى إلى مخدعها . فوجد لها مسبدة . وكان الجواب الدائم الذي ترد به على أسئلته القالقة : « ولماذا لم تتم أنت يا أبت ؟ .. إنني أشعر بالنوم براود عيني .. بل ها قد بدأت أغفو ! »

واستيقظت مبكرة . فصعدت تمشي على سطح الدار . كانت جميع الأبواب والنوافذ في مسكن (رامش) موصدة ، ومحكمة الرناج .

ولم تلبث الشمس أن بزغت رويداً من وراء السقوف القائمة في الشاحية الشرقية . ولكن اليوم الوليد بدأ في عيني (هنالقي) كثيباً : راكداً ، خالياً من البهجة ، يل باعاً للانقباض . فلم تتألك أن ركعت في ركن من السطح . ودفت وجهها في راحتها ، ثم طفقت تبكي ! .. ومر اليوم دون أن تحظى بزيارة من حبيبها . وحانت ساعة الشاي في الأصيل فلم يكن مقدمه مرتقياً لتتعم بلذة انتظاره .. والآنكي من هذا ، أنها حرمت من تلك السلوى التي كانت تنشأ عن شعورها بأنه قريب منها ، في البيت المخاور !



● وأجملت إذ انبعث صوت أبيها يناديها : « هيم ! .. هيم ! » . فأسرعت تسبح آثار حزنها . وأجابت : « نعم يا أبت ؟ » .. وقال (أناد بابو) وهو يظهر على السطح ويقبل عليها يربت منكيبها : « لقد استيقظت اليوم متأخراً » .. كان قلقه على ابنته قد أقض مضجعه . فلم يواته النعاس إلا عند اقتراب الفجر ، ولم يستيقظ إلا حين داعبت أشعة الشمس عينيه . فاغتسل في عجلة . وأسرع ليطمئن على ابنته . ولكنه وجد غرقها خالية .. وذاب قلبه أسى وهو يراها في لوعتها . فقال : « هيا انزلي وتناولى الشاي يا عزيزتى » . وكرهت (هنالقي) أن تواجها (جوجندرا) حول مائدة الشاي . ولكنها أيقنت أن أى تحول عن عاداتها المألوفة كفيل بأن يضاعف من كدر أبيها ، لا سيما وقد اعتادت أن تصب له الشاي بنفسها ، فلم تشأ أن تشمل هذه الرغبة البسيطة .

وارتعتت يد (هناليني) : فتأثر الشاي وهي تصبه . وأسرعت تبتألك في مقعدها . بينما رمتها (جوجندرا) من ركن عينه وهو يمضي قائلاً : « لست أفقه الحافظ الذي دفعه إلى الفرار ، مع أن (أكشاي) عرف كل شيء عنه . لقد كان مسلكه السابق وضيقاً في حد ذاته . ولكن الآنكي منه أن يتولاه الخوف وأن يبادر هكذا إلى الفرار ! .. إن مسلكه في رأيي لا يستحق سوى الاستمزاز . لست أعرف رأي (هم) في ذلك . ولكني أعتبر فراره دليلاً كافياً على جرمه ! » .. قهضت (هناليني) وكل جسمها يرتجف ، وقالت لأخيها : « لست راغبة في دليلك هذا . فشكر ألك .. بوسعك أن تدبته كما تشاء . أما أنا فلا أجد من حق أن أحكم عليه ! » .

جوجندرا : « أليس هناك ما يجعل من حقنا أن نهنم بالرجل الذي كان موشكاً أن يتزوج منك ؟ »

هناليني : « لم أقل شيئاً عن الزواج . انصم الخطبة أو لا تفصمها . كما يخلو لك .. ولكن ، لا تحاول أن تعظم إصراري على موقفي ! » .. واختنق صوتها بالبكاء . فلم تقو على المضى في الحديث . ونهض (أنادا بابو) فضم وجهها المندى بالدموع إلى صدره . واكتفى بأن قال : « هيا يا عزيزتي .. لنصعد إلى الطابق العلوي » .

الفصل الثالث والعشرون

■ أقلعت الباخرة التي استقلها (رامش) و (كالا) - من ميناء (جوانونو) - في الموعد المحدد لها . ولم يكن ثمة ركاب في الدراجتين الأولى والثانية غيرهما . ومن ثم استأجر (أكرمي) متصلة

وحين اقتربا من باب الغرفة ، سمعت (هناليني) صوت (جوجندرا) وهو يتحدث مع شخص ما : فحقق قلبها إذ خط لها أن (رامش) قد يكون في الغرفة ، فما كان مواء يرتقب في مثالها الساعة المبكرة . ودخلت الحجرة وكل جارحة في جسمها تفتلج . ولكنها صدمت إذ رأت .. (أكشاي) ! ولم تعد تقوى على تمالك نفسها . فلذت بالفرار . فلما أعادها أبوها ثانية إلى الغرفة . جلست لصق مقعده ، وانصرفت بكليتها إلى إعداد الشاي . واشتد حتى (جوجندرا) لتصرفها ، فما كان تعلق (هم) بـ (رامش) إلى هذا الحد بالأمر الذي يطيقه . وزاد من امتعاضه ما رآه من مشاطرة (أنادا بابو) لأساها ، ومن محاولتها اتخاذ حب أبيها لها حجاباً بينها وبين الدنيا . وراح يقول لنفسه : « إننا جميعاً مذنبون ! .. عندما نعلمنا حبنا لها على أن نؤدى واجبنا وأن نعمل لسعادتها الحقيقية ، فإننا لا نحظى منها بكلمة شكر .. بل إنها تعتبرنا في قرارة نفسها مذنبين ! إن أبي لا يعرف مطلقاً كيف يعالج هذا الموقف ، فخلق به في هذه المرحلة أن يعمد إلى الشدة بدلاً من أن يذلها . إنه يؤخر مواجهتها بالحقيقة القاسية خوفاً من إيلاها ، ومن ثم فسوف تكون صدمتها أعنف ! » .

وقال أخيراً بصوت مرتفع : « أنعرف ما الذي حدث يا أبي ؟ » فأجاب (أنادا بابو) في لهفة : « لا .. ماذا جرى ؟ »

— لقد رحل (رامش) في طريقه إلى بلدته بقطار (جوانونو) في الليلة السالفة « مصطحباً زوجته . فلما رأى (أكشاي) يستقل القطار ، عدل عن خطته . وعاد إلى (كلكتا) .

بالقمرة التي احتجزها من قبل . واحتست (كمالا) قلحاً من اللبن .
ثم جلست تتأمل مناظر النهر خلال باب القمرة المفتوح : وقد تملكها
الإعجاب . فسألها رامش : « أوتدريين إلى أين نحن ذاهبان يا كمالا ؟ »
قالت : « إلى البلدة » .

رامش : « إنك لم تكوني راغبة في الذهاب إليها . ولذلك هلن
نذهب ! » .

كمال : « هل عدلت من أجل ؟ »

رامش : « نعم .. من أجلك ! »

فعضت شفتها وقالت : « لم فعلت هذا ؟ ما كان لك أن تعني
بكلمة عابرة لم أكن أعنيها .. إنك سريع الاستياء » . فابتسم رامش
وقال : « بل إنني لم أستا مطلقاً ، ولكنني لم أكن راغباً أنا الآخر في
الرحيل إلى البلدة ! » . وهنا سأته (كمالا) في لفظة : « إذن ، فإلى
أين نذهب ؟ » .. فقال : « إننا ذاهبان إلى ريف الغرب » . وبحثت
(كمالا) إذ ذاك عينيها على سعتيها .. أى معنى حافل يتمثل في كلمة
(الغرب) ، فيخالب أبواب أولئك الذين لم يغادروا من قبل مواطنهم .
معنى حافل بصور الأضرحة المقدسة ، والجو المتعش ، والأماكن غير
المألوفة ، والمناظر الجديدة ، والأبعاد الغائبة للملوك والأباطرة ،
والمعابد الرائعة ، وأساطير الماضي ، وحكايات عصر البطولة !

وتساءلت (كمالا) وقد استخفها الطرب : « وإلى أى مكان من
الغرب نذهب ؟ » . فقال : « إنني لم أقرر بعد . ستمر بمونفير . وباتنا ،
ودينا بور . وبوكسار ، وغازيبور » وينارس .. وسنهيض في أحد هذه

الأماكن . . وكان بعض هذه الأسماء مألوفاً لدى (كمالا) ، والبعض
غريباً عنها ، ولكن ذكرها أذكى خيالها ، فصفت هاتفة : « ما أبدع
هذا ! » . فقال رامش : « وما بعد ذلك أبدع ! .. على أننا يجب أن
ندبر الآن أمر غذائنا أثناء الرحلة ، فأحسبك راغبة في أن تتناول
وجباتك من مطبخ الملاحين ! » : فابتسمت صائحة : « لتحفظنا السماء !
لا ، بالطبع ! » .

رامش : « إذن . فإذا نفعل ! »

كمال : « سأتولى طهو وجباتنا بنفسى ! »

رامش : « وهل لك دراية بالطهو ؟ »

فقهقهت (كمالا) قائلة : « لست أدري ما الذى تظنه في ؟ .. هل
لي دراية بالطهو ! أو تظننى بلهساء ؟ لقد كنت أقوم بالطهو دائماً في
بيت خالى . . . وإذ ذاك قال (رامش) معتدراً : « ما كان ينبغي أن
أوجه إليك هذا السؤال . ولكن . يحسن بنا أن نبدأ استعدادنا من الآن
أليس كذلك ؟ » .. وأسرع فغاب عنها برهة ، ثم عاد يحمل موقداً
حديثاً (من النوع المعروف بالكانون) . على أن هذا لم يكن كل ما في
الأمر من تدبير .. إذ كان على الباحرة غلام يدعى (أومش) ينتمي
إلى طبقة (الكاباستا) أو (الكتاب) - (وهى طبقة لا يعلو عليها في
البنغال سوى البراهمة) - فاستأجره (رامش) ليساعد (كمالا) مقابل
تكفله بأجر سفره إلى (بنارس) ومبلغ زهيد يدفعه إليه كل يوم . ثم
سأل (كمالا) : « ما الذى نتناوله في القفص ؟ »

— وماذا نرجو إذا كنت لم تحضر لي سوى أرز وعذس ؟ ..
سأكل (كشرى) اليوم !

وحصل (رامش) على بعض التوابل من بحارة السفينة - بتوجيه من (كمالا) : فسألته وقد استخفها جهله بشئون المطبخ : « ما الذى تتوقع أن أفعله بهذه التوابل الآن ؟ ليس بوسعى أن أفعل ما من ومصدق كما تعلم ! » . وابتلع (رامش) هذا التأنيب ، وأسرع باحثاً عن مطلبها . ولم يجد ما أرادته تماماً ، ولكنه استطاع أن يستعير من البحارة مدقاً حديدياً . وجرنا . ومع أن (كمالا) كانت قد اعتادت عن التوابل والبهارات في الماوان الخاص بها ، إلا أنها كانت مضطرة لمسايرة الظروف . واقترح (رامش) أن يكل هذه المهمة إلى شخص آخر ، ولكنها استبعدت هذا الرأي « وأقبلت على العمل بنشاط ونحمس . ووجدت في العمل بأداة لم تألفها متعة . فكانت تضحك إذا ما تطايرت التوابل وتناثرت في كل صوب . وسرت عدوى الطرب والمرح منها إلى (رامش) ، فحذا حنوها . ولما انتهت مرحلة صحن البهارات ، شمرت (كمالا) ذيل ثوبها ، واختارت ركناً أحاطته بسياج ليكون مطبخاً لها . وكان ثمة وعاء كبير من الفخار ، لاخران الحاوى « فاستخدمته كآنية للظهور . وإذ وضعت فيه ماء وتركته يغلى على النار ، اقترحت على (رامش) أن يذهب فيغسل . بينما تعد له فطوره ، فاستجاب لها . ووجد الطعام قد طهى بالفعل عندما عاد . وإذ ذلك ، كان السؤال : ما الذى يمكن استخدامه كطبق ؟ .. وأبدى (رامش) اقتراحاً وهو : « وجس .. اقترح أن يستعير طبقاً من أحد الملاحين المسلمين . بيد أن

(كمالا) ارتاعت لهذه الفكرة ، وإن اعترف لها (رامش) - بصوت خفيض - بأن هذه لن تكون المرة الأولى التى يخرق فيها تقاليد الديانة الهندوكية فيما تحتقه طهرأ ؟ .. وقالت (كمالا) معتبة : « ليس لك أن تتحلل من هذه التعاليم الآن ، كما ينبغي ألا تعود إلى ذلك ، فإني لا أسمع في تلك الأمور ! » .. ثم تناولت الغطاء المسطح الذى كان يعلو الوعاء . فنظفته بعناية ، ثم وضعته أمامه قائلة : « استعمل اليوم هذا ، على أن نستبدله متى استطعنا بشيء أفضل منه ! »

وجلب (رامش) ماء فعمل بقعة من سطح المركب ، وجلس يتناول طعامه . وهو مرتاح إلى أنه لم يتجاوز التزاماته الدينية . وما أن تناول حفنة أو اثنتين ، حتى هتف : « لعمري ! .. ما أبدع طهوك ! » .. فصاحت مستاءة : « لا داعى لأن تسخر ! » .. قال : « لست أضر ، بل سترين بنفسك عندما تتناولى نصيبك من هذا الطعام » .. وسرعان ما أتى على ما كان في الطبق ، وطلب مزيداً ، فأعطته (كمالا) أكثر من النصيب الأول .. وهتفت بها : « ما هذا الذى تفعلين ؟ .. هل أبقيت لنفسك ؟ » .. قالت وقد سرها أن ترى (رامش) يستطيب الطعام : « آه .. لا بأس ! .. لا يزال في الآنية كثير ! » .. فسألها : « وفيه متأكدين ؟ » . وأجابت ، وهى لا تجد بأساً في أن تستعمل طبقه ما دامت زوجة له : « سأستعمل غطاء الآنية طبعاً ! » . واستنكر (رامش) هذا ، فن تقاليد الهندوكيين ألا يستعمل امرؤ مناع امرئ آخر . ولكن (كمالا) صاحت : « ولماذا ؟ » .. قال : « لأنه لا يجوز » . — بل يجوز .. إني أدرك صيته .. ولما كان هذا الأمر

الفصل الرابع والعشرون

بلغت الباخرة — بعد الظهر — منطقة ضحلة من النهر ، أخفقت كل الجهود في تعويمها فيها ، وما لبث أن اقترب الليل وهي ما تزال معطلة عن السير . وفوق الحافة العليا للضقة — وكانت بارتفاع أعلى منسوب تصل إليه مياه النهر إذا ما حان موسم الفيضان — بدت الأرض مسطحة من الرمال يتحدر إلى حافة الماء ، تظهر عليه آثار أقدام الطيور المائية ، كما لو كانت تنحرف دقيقة . وأقبلت القرويات يحملن الجرار نعالنهن للمرة الأخيرة قبل هبوط الظلام ، فتطلعن بأعين فضولية إلى الباخرة .. وكانت المتسككات بالحياض منهن يرسلن النظرات من وراء أفتعين المسدلة على وجوههن .. أما ذوات النفوس الجريئة ، فقد تخلصن من هذه الحجب ! .. وراح الصبية يرقصون ويصيحون على الضفة ، ساخرين من الباخرة وهي في مأزقها . بعد أن كانت تمر بهم من قبل « شائعة بأنفها في الهواء ! »

وانحدرت الشمس للغيب وراء الرمال . وكان (رامش) يقف عند حاجز السفينة ، مسرّحاً بصره عبر النهر إلى سماء الغرب وهي تنوّهج بآخر أشعة الشمس الآفلة . حين خطت (كالا) من وراء سياج المطبخ ووقفت لدى باب القمرة ، ثم سعلت في صوت خافت لتنبه (رامش) . غلّا لم يلتفت ، تناولت حزمة المفاتيح ، وأخذت تنزها وتتعمد ارتظامها بالباب ! .. واضطرت إلى أن تعنف في المز ، قبل أن يلتفت (رامش) . حتى إذا رآها ، اجتاز سطح السفينة إليها وقال : « إذن فهذه طريقتك في ندائي »

قال الصبي : « هناك رجل يبيع الحلوى في السفينة . وسأحصل منه على بعض أوراق الشجر فأستخدمها كطبق ! »

وقال (رامش) لكالا : « إذا كنت ستستخدمين هذا الغطاء ، فهاته أغسله لك غسلاً جيداً ! .. » ولكنها أجابته في استهجان : « فيم اهتمامك بأمر لا يستحق كل هذا العناء ؟ .. » وما لبثت بعد دقائق أن هتفت : « لقد نسيت أن تحضر لي بعض نبات القوفل . ومن ثم فلن أملك أن أقدم لك ما تمضغه منه ! » ، فأجاب : « في السطح الأسفل من الباخرة رجل يبيع » . وسرعان ما جاءها بعدد من هذه الأوراق . على أن (رامش) كان مضطرب البال ، لا يفكر في سائل نفسه : « كيف يمكن أن أترع من ذهني ما تعتده من أننا زوجان ؟ .. كانت (كالا) منساقفة إلى أن تقوم بأعباء الزوجة ، دون ما معونة أو تدبير ، إذ كانت حياتها في دار خالها — من قبل — سلسلة من الظهور ، وتربية الأطفال ، والتدبير المتزلى . ولقد بهرت (رامش) بعنايتها . ومهارتها والنشاط المرح الذي راحت تؤدي به أعمالها . ولكنه كان لا يلبث أن يرتد إلى السؤال الذي كان يقضيه : ما الذي ستصير إليه علاقتهما في المستقبل ؟ .. ألم يكن ليتصور أن يستقيها معه ، لا ولا أن يقصصها عنه ! .. ثم أين يجب أن يقوم الحد الفاصل بين ما ينبغي وما لا ينبغي في اتصالهما اليومية ؟ .. وتمنى لو أن (هناليني) كانت معها ! .. ولكن هذه غدت أمنية مستحيلة ، لا ينبغي أن يفكر فيها وهو يتدبر حلاً للموقف الراهن ! .. وأخيراً ، انتهى تفكيره إلى أن التكتّم لا ينبغي أن يمضي إلى أبعد من هذا الحد ، بل لا بد من أن تعرف (كالا) الحقيقة كلها !

— لم تخطر ببالى طريقة أخرى !

— وكيف ؟ ... لماذا تظنين أن أهلى أطلقوا على اسمى ، إذا لم يكن هذا الاسم للنداء ؟ .. لم لا تصيحين عالياً : (يا رامش بابو !) ، إذا أردتني لأى أمر ؟ .

واستكرمت منه — مرة أخرى — هذا اللون غير المستساغ من الدعابة .. أفيلقي بالزوجة الهندوكية أن تخاطب زوجها باسمه ؟ .. وضارعت حمرة خدى (كمالا) حمرة الشمس الآفلة ، وصاحت وهى تشيح بوجهها : « لست أقنع ما تقول .. ألا اسمع ، إن عشاءك معد ، فيحسن بك أن تقبل لتناوله . فلأنك لم تحظ بفطور طيب اليوم ! » .. وكانت نسمات النهر قد أبقت شبيهة (رامش) ، وإن لم يقل لكمالا شيئاً بهذا الصدد ، خشية أن تغلم نفسها بإيثاره بالقسط الأوفر من الطعام . على أن رضاه تضاعف حين دعت له للعشاء دون أن ينبهها إلى جوعه . ومن الصحيح أن هذا الرضى كان راجعاً — فى أحد عناصره — إلى توقع إشباع الجوع المادى ، ولكن كان هناك عنصر آخر ، تمثل فى لذة الشعور بأن ثمة من كانت تفكر فيه ، وتعمل من أجله ! .. ولم يستطع أن يثنى عن نفسه إدراك هذا العنصر . ولكنه برغم ذلك كان مضطراً إلى أن يواجه الحقيقة المعضة « التى كانت تذكره بأنه لم يكن صاحب الحق الشرعى فى هذه الرعاية التى قدورها أعظم تقدير ، والتى قامت على أساس من وهم زائف ! .. وتهد فى أسى ، وهو يلج القمرة مثقل القلب . وما كان وجوهه ليخفى على (كمالا) . فقالت فى دهشة : « لا يبدو عليك أنك راغب فى العشاء .. لقد توقعت أن تكون راغباً ! »



لما لم يلتفت ، تناولت حزمة الغائب ، وأخذت تهزها وتعمد ارتطامها بالباب .. !

قد تعجلتك دون رغبة منك ! » . فسارع (رامش) إلى التظاهر بالسرور ، وقال : « ما تعجلتني أنت ، وإنما جوعي هو الذي جاءني » . ثم تلفت حوله هاتفاً : « عجباً ! .. ولكني لا أرى شيئاً يؤكل . صحيح أنني جائع ، ولكني لا أحسب معدتي تقوى على هضم شيء كهذا ! .. وأشار إلى أغطية الفراش وأثاث القمرة . وهو مترسل في القول : « لم أعود منذ نشأتني مثل هذا الغذاء ! » .

وانفجرت (كمالاً) ضاحكة . حتى إذا تمالكت نفسها ، قالت : « عجب منك ألا تصبر الآن قليلاً ، في حين أنك كنت في شغل عن الأكل والشرب وأنت تسرح بصرك نحو الشمس الغاربة ! .. فهل استيقظت شهيتك فجأة عندما ناديتك ؟ .. حسناً .. انتظر دقيقة واحدة » ريثما أحضر لك الطعام » .. فقال : « ألا فأسرعي ، وإلا فلا تلومي غير نفسك إذا أنا التهمت أغطية الفراش ! .. ولم يخفف التكرار من تأثير النكتة ، فانطلقت (كمالاً) مقهقهة ، وأخذت جرس ضحكها النضى يجلجل في القمرة بعد أن بارحتها لتحضر الطعام .. بينما غاضى مرح (رامش) بمجرد أن أولته ظهرها ! .. وسرعان ما عادت (كمالاً) تحمل الطعام « فسحت الأرض بطرف ثوبها ، ووضعته عليها . وهتف رامش : « ماذا تفعلين ؟ » . فقالت وهي تكشف عن بعض الكعك المقلو ، والخصر : « لا بأس ، فأنتي سأغير الثوب حالا » .. وصاح (رامش) : « مرحى ! .. من أين حصلت على الكعك المقلو ؟ » .. ولم تبد رغبة في أن تطلعها على السر في الحال ، إذ أجابت في تكلم : (احدس !) .. والدفع (رامش) يذكر عدداً من الافتراضات الخيالية

التي كانت (كمالاً) ترفضها في استنكار ، وما لبثت في النهاية أن قال : « لا بد أن علاء الدين - صاحب المصباح السحري في (ألف ليلة وليلة) - قد أرسل ماردته فأحضرها لك ساخنة من بلوخستان ! .. » . وإذ ذاك فقد صبرها ، فتحولت مستاءة منه ، قائلة أنها لن تصارحه بالحقيقة حتى يكف عن هذا المزاح . وهنا قال في رجاء : « لقد عجزت عن التخمين ، فأثبتني .. الحق أنني لا أدري كيف استطعت أن تحصل على كعك مقلو ، ونحن في عرض النهر .. على أنه كعك للبدن ، على أية حال ؟ » .. وأبدى عجباً مدي إعجابه الذي جعل شهيته تنقلب على فضوله !



■ وكانت الحقيقة تتمثل في أن (كمالاً) انتهزت فرصة وقوف السفينة لانخفاض مياه النهر ، فأوفدت (رامش) إلى أقرب قرية لبياع مايعوض القدر الذي استهلك من المؤونة . إذ كان قد تبقى معها عدد من الروبيات التي نالتها - كصروف لها - من (رامش) ، حين ذهبت إلى المدرسة : ومن ثم طلبت بعض الدقيق والمسل ، ثم سألت (رامش) ، عندما جاءها بما طلبت : « وماذا تبتغي لنفسك ؟ » .. فقال : « لقد نجحت بعض اللين الخبز (الرايب) عند لبنان في القرية . ولدينا كثير من الموز الأخضر في القمرة ، فإذا ابتعت مع اللين بعض الأرز المسحوق ، صنعت لثنى عصيدة رائعة ! .. وأشفتك (كمالاً) على الصغير ، فسألته : « هل تبقت معك نقود ؟ » .. ولكنه أجاب : « لم يبق شيء ! » . وكانت هذه هي المشكلة ! .. فقد كانت (كمالاً) تظن أنها تطلب من

(رامش) نقوداً . وما لبثت بعد قليل من التفكير أن قالت : « حسناً ، إذا لم تستطع أن تنال عصيدتك اليوم ، فعليك بالكعك المقلو . هيا وساعدني في إعداد العجينة » . ولكنه عاد يسأفاً : « واللين الخمر يا أماه ؟ » ، فقالت : « اسمع يا أوش .. انتظر حتى يتناول سيدك العشاء . فأنيته بأنك تريد نقوداً لشراء بعض لوازم لنا » .

وفيما كان (رامش) في منتصف وجهته ، ظهر (أومش) ، ووقف يحك رأسه في ذلة ، فلما تطاع إليه (رامش) ، تمتم : « جئت بشأن نقود لشراء اللوازم يا أماه .. وفطن رامش فجأة إلى أن المرء لن يجد قوتاً ما لم ينق من ماله . وأنه لا يملك (مصباح علاء الدين) حتى يغنيه عن الإنفاق . فهنف : « حقاً يا كالا .. ما أظن أن لديك نقوداً ! » .. فتعللت (كالا) بأنها نسيت أن تطلب . وحين فرغ (رامش) من عشاءه ، أسلمها خزانة صغيرة بها نقود . وقال : « يحسن بك أن تحفظي نقودنا ونفائسنا في هذه الخزانة إيان رحلتنا » .

وإذ تبين (رامش) أن منطلق الظروف أصبح يقتضي إلقاء أعباء تدبير حاجات الأسرة على (كالا) ، عاد إلى موقفه لدى سياج السفينة ، ووقف يتأمل آخر فلول النور وهو يغبو في الناحية الغربية من السماء ، بينما أسرع (أومش) إلى القرية . وعاد فقام بإعداد (العصيدة) التي كان يشتبهها ، وانكب عليها بلهيمها . وفي خلال ذلك ، وفقت (كالا) تستدرجه حتى ألقت بطرف عن حياته .. كان ابناً غير مرغوب فيه ، في بيت تسيطر عليه زوجة أب ، فهرب من الدار ، وكان في طريقه إلى (بنارس) حيث يقيم أحد أقارب أمه .. وقال الغلام : « لو سمحت

لي بالمقام معك يا أماه ، فلن أفكر في الذهاب إلى أي مكان آخر ! » . وحرك قوله - في نفس (كالا) - غريزة الأمومة الكامنة في أعماق قلب كل فتاة ، لاسيما حين راح يخاطبها بلقب (أماه) في سداجة بريئة ، فقالت تطمئنه : « حسناً يا أومش .. ستصبحنا ! » .

الفصل الخامس والعشرون

● لاحظت الشجيرات التي كانت متناثرة على ضفة النهر كسياج معتم أحاط بالسماء التي اصطبغت بألوان الشفق . وأقبل البط - في أسراب تحلق خلال الظلمة التي كانت تجمع أطرافها - عائداً من رحلته اليومية في موارد قوته ، إلى مواطنه الليلية في البرك والبحيرات المنعزلة وسط الضفاف الرملية ، كما عادت الغربان إلى أوكارها ، وهي ترسل صياحها في الجو . وجنحت كل القوارب إلى البر ، عدا مركب كبيرة شددت إلى الشاطئ في صمت ، فبدت كقطعة سمراء على صفحة الخضرة الذهبية التي استحالت إليها النهر الساكن . وسحب (رامش) مقعداً من الخيزران إلى مقدمة الباخرة ، وجلس في الضوء الخافت المنساب من الحلال الجليد . وابتلعت ظلال الليل آخر خيوط الشفق في الغرب ، وبدأ وجه الأرض وكأنه يذوب في ضباب شفاف يتيره ضوء القمر الواهن . وغتم رامش : « هيم ! .. هيم ! » ، فإذا الامم الحبيب يلتف حول قلبه في حنان ناعم . وتجسم لفظ الاسم في صورة لعبتي الحبيبة المفقودة وقد تألفتنا بخنان ملائكي ، وأخذنا ترمقانه خلال ضباب حالم ، وهما تسكبان ما كان يكمن فيهما من أسى ، فسرت رجفة في جسد (رامش) وترقق الدمع في عينيه .

وانبسطت حياته خلال العامين الماضيين أمام عينيه . تذكر أول لقاء له بهمناليني .. ما خطر له بياك في تلك المناسبة . أن ذلك اليوم سيكون من الأيام الخاصة في حياته ! .. كان (جوجندرا) قد اصطاحه إلى داره ، فارتبك الشاب الخجول حين رأى (همناليني) على رأس مائدة الشاي . وما لبث الحياء أن فارقه رويداً - فبدأ يرتاح إلى صحبتها : وعندما أتحدث الألفة بينهما تزداد وتتمو . خيل إليه أن كل ما قرأ من أشعار الحب والحوى - إنما نظم من أجل (همناليني) وحدها . وبدأ يزهو - في قرارة نفسه - حين أحس بأنه صريع الغرام - وراح يرفى لزملائه الذين كانوا مضطرين إلى استذكار قصائد الحب ليؤدوا امتحاناتهم ، في حين أن الحب غدا بالنسبة له حقيقة واقعة . حبة !

وتبين إذ ذكر هذا - أنه كان في تلك الأيام يقف على عتبات « الحب » ! .. ولم يتخذ غرامه بهمناليني شكلاً حقيقياً ، ولا غدا نابضاً حياً ، إلا عندما ظهرت (كمالا) فجأة على مسرح حياته . فجعلت هذه الحياة لغزاً لا سبيل إلى حله ! .. وأسند (رامش) رأسه إلى يده ، وهو مستغرق في التفكير . وامتدت صفحة الحياة أمامه .. حياة حافلة بجوهر القلب .. جوع لم يتخذ قفلاً بالشع ! .. حياة مخلوق هوى في شبك يحاول جاهداً أن يحرر نفسه منها ! .. أليس يوسعه أن يمزق هذه الشباك ، إذا هو استجمع قواه ؟ .. ورفع رأسه في أوج الحواس ، وإذا ذلك لمح (كمالا) تقف جد قريبة منه ، وقد استندت بذرأعيها إلى ظهر مقعد آخر . وأجفلت إذ رفع رأسه . وهتفت : « لابد أنك كنت نائماً » ، وها أنت ذا قد استيقظت ! .. وهمت بأن تتحول عنه وقد تقد صبرها ،

نولاً أن ناداهما : « لا بأس يا كمالا ، لم أكن نائماً .. تعالى فاجلسي » وسأورى لك قصة ! » .. واستهواها ذكر القصة : فقربت مقعدها من مقعده ، واستقرت إلى جواره . وكان (رامش) قد عقد العزم على أن ينبئها بالخيبة كلها . ولكنه خشى أن تكون الصدمة أقسى من أن تحتملها إذا ما أُرجى إليها باعترافه دون تمهيد .. ومن ثم كانت فكرة القصة التي مناهها بها !

* * *

● شرح (رامش) يروي القصة قائلاً : « كانت هناك ذات مرة قبيلة تسمى قبيلة الراجبوت .. » ، وهنا سأله كمالا : « متى كان ذلك ؟ » . في سالف الأوان ؟ » . قال : « أجل ، منذ زمن بعيد .. لم تكوني قد ولدت بعد ! » .. فقالت ساخرة : « أما أنت فكنت قد ولدت طبعاً . فأنت كهمل كبير . أليس كذلك ؟ » .. وبعد ؟ » .. فاستأنف الحديث : « وكان هؤلاء الراجبوت عادة خاصة .. فعندما يقدم أحدهم على الزواج ، لا يذهب بنفسه إلى دار عروسة ، وإنما يرسل إليها سيفه . وكانت العروس تحضى في طوقس الزفاف مع السيف ، ثم تنتقل إلى بيت الزوج وتترف إليه شخصياً ! » .

كمالا : آه ! .. لعمرى ! .. ما أغربها من طريقة للزواج ! » .

رامش : « إنني شخصياً لا أكاد أتصورها ، ولكن هذا ما كان يحدث ! .. هكذا جاء في القصة .. والظاهر أن أولئك (الراجبوت) كانوا يرون أن الذهاب بأنفسهم إلى العروس أمر لا يليق بهم ! .. وكان الملك الذي تدور حوله هذه القصة ينتمي إلى هذه القبيلة التي يدعى بهم ! » .

كمالا : « ولكنك لم تذكر لي في أى بلد كان هذا الملك ؟ » .

رامش : « كان ملك (مادورا) .. فتي ذات يوم ... » .

قالت (كمالا) ، في إصرار على أن تعرف كل شيء بدقة وإيضاح :
« يجب أن تذكر اسمه أولا ! .. ولو أن (رامش) فطن إلى هذا الاتجاه منها ، لاستعد للأمر قبل أن يقدم عليه . وأدرك أنها رغم تلغفها على سماع القصة ، لن تغفل أية صغيرة ولا كبيرة ، ما لم تكن واضحة . وعاد يواصل رواية القصة بعد تردد وجيز : « كان اسمه رانجيت سينغ .. فرددت (كمالا) : « رانجيت سينغ ، ملك مادورا .. وبعد ؟ » .

رامش : « في ذات يوم « سمع الملك من شاعر رحالة ، أن للملك آخر من نفس جنسه ، ابنة رائعة الجمال ... » .

كمالا : « وفي أى بلد كان ذلك الملك ؟ ! » .

رامش : « لنفترض أنه كان ملك كونيغرام ! » .

كمالا : « ولماذا نفترض ؟ .. ألم يكن ملك كونيغرام بالفعل ؟ » .

رامش : « بلا شك ! .. أتخمين أن تعرفي اسمه أيضاً ؟ .. كان اسمه

آمار سينغ ! » .

كمالا : « ولكنك لم تنبئني باسم الفتاة .. الابنة الرائعة الجلال » .

رامش : « آسف ، إذ نسيت ذلك .. كان اسمها .. كان اسمها .. آه ..

أجل .. كان اسمها تشاندرا ! » .

كمالا : « إن نسيانك للأمور عجيب ! .. ولكن ، ألم تنس اسمي

من قبل ؟ ! » .

رامش : « حسناً .. عندما سمع ملك (أود) هذا من الشاعر ... » .

كمالا : « أى ملك (أود) هذا ؟ .. ألم تقل أنه كان ملك مادورا ؟ »

رامش : « ما أظنك تحسبين أنه كان ملكاً لبلد واحد ! .. كان

ملك (أود) و (مادورا) معاً ! » .

كمالا : « لعلهما كانا متجاورين . إذن ! » .

رامش : « أجل . كانا متلاصقين ! .. وراحت (كمالا)

— خلال القصة — تلتقط التقاط المتعارضة ، وتكشف نواحي النقص .

على أنه ما لبث في النهاية أن استكمل كل شيء ، فضى يروى لها هذه

الخراقة : « أولاد رانجيت سينغ « ملك مادورا ، رسولا إلى ملك

كونيغرام يطلب إليه يد ابنته الأميرة . فبادر آمار سينغ إلى الموافقة ..

وإذ ذاك ، سار (أندراجيت سينغ) — شقيق رانجيت الأصغر — على

رأس جنوده إلى مملكة آمار سينغ ، رافعاً الأعلام ، محوياً بضجة

الطبول والمزامير . وضرب خيامه في ساحة قصر الملك . وأقامت مدينة

كونيغرام الأفراح احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة . ورصد الفلكيون

التابعون للملك كواكبهم ، وحددوا يوماً وساعة محفوفين بالسعد ،

ليتم فيما الزواج . وكان الموعد هو الساعة الثانية بعد منتصف الليلة

الثانية عشرة من النصف المظلم من الشهر . وفي تلك الليلة ، ازدانت

كل اللور بأكاليل الزهور ، وتلاألت الأنوار في المدينة « احتفالاً

بزواج الأميرة (تشاندرا) ..

« ومع ذلك ، فإن الأميرة لم تعرف من هو الزوج الذي قدر لها :

إذ كان الحكيم (برامندا سواي) قد أعلن أنها عند مولدها زوجة قال

فيها : « إن أحد الكواكب ينذر بشر يخيق بابنتك . فلو لم يكن لها أن

تزوج ، حذار من أن تكشف لها عن اسم الرجل الذي ستقترن به ! .. ومن ثم ، تمت مراسم الزفاف مع السيف ، وقدم (أندراجيت سينغ) الهدايا التقليدية نيابة عن الزوج ، وقدم آيات الولاء لزوجته أخيه . وكان (أندراجيت) عظيم الوفاء لأخيه ، فلم يرفع طرفه إلى وجه الحسنة البيلة التي كانت حمرة الخجل تكسو أساورها وراء قناعها ، وإنما ثبت عينيه على قدميها البديعتين المخضبتين بالحناء ! .. حتى إذا كان اليوم التالي للاحتفال ، رفع (أندراجيت) الأميرة إلى غرفة وثيرة مرصعة بالآلئ ، وانطلق بها إلى بلده . ووضع ملك كوتنجفرا م يده على رأسها بباركها مودعاً ، وقلبه متقبض إذ تذكر كوكب النحس الذي يتهدد طالع ابنته . ولم تمالك الملكة دموعها وهي تقبل شفتى ابنتها . واجتمع ألف كاهن في المعابد ، يرددون الصلوات لدفع المصير المنحوس عن العروس ..

« وكانت كوتنجفرا م جد بعيدة عن مادورا .. كانت الرحلة بينهما تستغرق شهراً تقريباً . فلما كانت الليلة الثانية ، ضرب (الراجبوت) خيامهم على ضفاف نهر (فيتشا) . وكانوا يتأهبون للنوم ، عندما بدت أضواء مشاعل في غابة مجاورة . فأوقد (أندراجيت) أحد حراسه يستطلع الخبر ، فعاد الرجل يقول : « مولاي ، إن الأنوار للجماعة مثلنا عائدة من زفاف ، وهم من أبناء قبيلتنا الراجبوت ، يرافقون عروساً يقلونها إلى بيت زوجها » ويصطحبون حراساً مسلحين . ولما كانت الطريق غير مأمونة ، فإنهم يلتصقون من سموك أن تستطروا عليهم حياتكم ، ويرجون أن تسمحو لهم بمرافقتي في جزء من الطريق » .. فأجاب الأمير :

« إن الشهامة تجعل نجدة أولئك الذين ينشدون الحياة واجباً مقدساً . فلندافع عنهم بكل ما أوتينا من قوة » .. وهكذا ، اتحد الفريقان .

« وكانت الليلة الثالثة هي آخر ليالي النصف المظلم من الشهر . وبلغ الفريقان بقعة تحف بها سلسلة من التلال - من الأمام - وغابة كثيفة من الخلف . وما أن ضربت الخيام ، حتى استغرق الجنود المبهوكو القوى في النعاس ، بين زقزقة العصافير الصداحة ، وخرير المياه . وفجأة انبعثت جلبة أبغظت الجميع من سياتهم ، واندفعت الجياد تجري وهي جامحة ، خلال معسكر مادورا ، إذ مرحتها أيد خفية من عقالمها . وشبت الثيران في بعض الخيام ، فارقت ألسنتها نضج صفحة السماء المعممة . ومرعان ما أدرك الجنود أن عصابة من الأشقياء هاجتهم . ودار قتال مستمر . وكان من المتعذر في الظلام أن يميز أحد عدوه من صديقه . الأمر الذي مكن للفوضى من أن تضرب أطنابها . وفي غمرة الاضطراب والفوضى « حمل قطاع الطريق كل ما كان في المعسكر ، وانطلقوا فاختفوا بأسلابهم في التلال » .

« وعندما انتهى القتال ، لم يعثر أحد للأميرة على أثر ، فقد هربت في ذعرها من المعسكر ، وانضمت إلى جماعة من الهاربين ظنهم قومها . ولكنهم كانوا في الواقع من الجماعة التي كانت ترافق العروس الأخرى . وكان قطاع الطريق قد اختطفوا هذه العروس في غمرة الفوضى ، فظننت الجماعة أن الأميرة (تشاندرا) هي عروسهم ، وانطلقوا بها إلى بلدهم بأقصى سرعة في وسعهم . وكانوا يتشبهون إلى عشيرة مغفورة من قبيلة الراجبوت ، تقيم على ساحل (كاراناب) »

رامش : « خليك بك أن تحتي على المؤلف : على أنني لا أريد سوى أن أوجه إليك هذا السؤال » ما الذي يجدر بتثيت سينغ أن يفعله بشأننا ؟ »

وفكرت (كامالا) طويلا « وقد سرحت بصرها في النهر ، ثم قالت في النهاية : « لست أدري ما الذي يخلق به أن يفعله .. لا أستطيع أن أعتدى إلى رأي » : فتردد (رامش) لحظة ، ثم قال : « هل يصارع تثيت سينغ الأميرة بكل شيء ؟ » .

— ما أعجب ما تقول ! : إذا لم ينبها ، فسوف تترتب على الصمت ورفعة فظيعة .. ستكون العاقبة بشعة ! : لذلك فن الخير أن يخبرها بالحقيقة !

وردد (رامش) عبارتها وقد شرد ذهنه : « من الخير ! » : وصمت برهة ، ثم قال : « حسناً يا كامالا : لنفترض ... » : كامالا : « ما الذي تفترضه ؟ » .

رامش : « هي أنني كنت تثيت سينغ ، وأنتك تشاندرا ! » . كامالا : « أرجو أن لا تقول لي مثل هذا الكلام ، فلست أحبه ! » . رامش : « ولكن ، لا بد لي من قوله ! : ما واجبي في هذه الحال ، وما واجبك ؟ » .

ولم يجبه (كامالا) ، بل نهضت بفتة عن مقعدها وغادرته . وألفت (أومش) جالسا لدى باب القمرة ، يتأمل النهر في صمت ، فسألته : « هل قدر لك يوماً يا أومش أن ترى شيئا ؟ » : قال : « أجل يا أماء ، رأيت شيئا ! » : فقالت وهي تبحر : « متحشياً إلى الخبز »

التفت بزعم العشرة ، وكان اسمه (تثيت سينغ) : وهو الزوج الذي كان يرتقب العروس الأخرى . ورجحت أم (تثيت سينغ) بالفتاة . ورافقتها إلى عندعها : بينما كان التوم يرددون فيا بينهم : « ما رأينا قط مثل هذا الحسن ! » .

« ووجد (تثيت سينغ) أن عروسه كانت منحة من السماء ، فأحبها من أعماق قلبه ، وتلدله في هواها . وكانت الأميرة من ناحيتها تعرف ما يجب على الزوجة الفاضلة ، فزمت على أن تكرر حياتها للخدمة (تثيت سينغ) ظناً منها أنه زوجها . وإن هي إلا أيام - حتى ارتفع عنهما الحياء والخجل والكلفة .. وإذا (تثيت سينغ) يستبين خلال أحاديثهما أن الفتاة التي أخذها في داره كزوجة ، لم تكن سوى الأميرة (تشاندرا) ! » .

الفصل السادس والعشرون

■ قالت (كامالا) ملووفة : « وبعد ؟ » ، كانت القصة قد ملكت عليها حواسها . وأجاب رامش : « الواقع في أجهل نهاية القصة ، فلست أعرف منها شيئاً بعد . نبتني أنت ، ما الذي تقلنته حدث في النهاية ؟ » . قالت : « لا ، لا .. ليس هذا من الإنصاف في شيء .. لا بد لك من أن تروي لي ما بقي » . فتهف : « عجباً يا كامالا ! .. إنما أصلحك القول ! .. » . لم ينشر من الكتاب الذي أخذت عنه القصة ، سوى جزئه الأول ، ولا أدري متى ينشر الجزء الثاني ! : فصاحت في استياء : « ما أشد لؤمك ! : ما كان أسوأ هذا ! » .

وتجلس إلى جواره : « وماذا كان شكل هذا الشيخ ؟ .. حدثني عنه : »

● وإذا خلا (رامش) إلى نفسه « قرر أن لا يدعو (كمالاً) لتعود .
إذ لم يخامره شك في أنها غضبت أشد الغضب ، فأيقن أنه لن يستطيع
استرضاءها في اللحظة الراهنة !

وما لبثت الرقعة الضئيلة من الحلال الوليد أن توارت خلف عيذان
من الغاب على البر : وكانت أضواء الباخرة قد أطفئت ، وأوى الملاحون
إلى مخادعهم . ولم يكن ثمة ركاب آخرون في القمرات . أما ركاب
الدرجة الثالثة ، فقد هبطوا إلى الشاطئ ليطهوا عشاءهم . وعلى بعد ،
كانت أضواء شارع القرية تبدو هنا وهناك « خلال الشجيرات
والعيذان . وأخذ تيار الماء يداعب سلسلة المرساة (الملب) . وكان
يعنف .. بين وقت وآخر .. فيز السفينة بأسرها . ومضى (رامش)
في هذا الوسط الغريب .. تحت قبة الليل المترامية .. يتجاذف في عناء .
ليحل عقدة المشكلة العويصة التي واجهه بها ضميره . كان من الواضح
أن لا بد له من أن يتخلى عن إحدى الفتيات : إما كمالاً وإما همناليني .
فما كان ثمة حل ممكن يستقيمهما معاً في حياته .. لا « وما كان ثمة شك
في الطريق التي يدعو الواجب إلى اتباعها : وكان لهمناليني الخيار :
فلها أن تقصيه عن ذهنها وتمنح يدها تخليط آخر .. أما أن يتخلى عن
(كمالاً) ، فقد كان معنى هذا أن يلقى بها في الدنيا وهي عارية ،
عزلاء ! .. ومع ذلك ، فما أشد أنانية الرجل ! .. فإن (رامش) لم
يجد عزاء في احتمال نسيان (همناليني) إياه ، وفي أن لها من الموارد

ما لا يجعل حياتها متوقفة عليه .. بل إن هذه الفكرة أهاجت حنينه
إليها . وخيل إليه أن طيفها راح يحوم أمام بصره ، ولكن غير بعيد عن
متاوله ، بحيث لم يكن عليه سوى أن يميل إلى الأمام ، بأسعاً ذراعيه «
يمسك بصاحبه !

وأسلم رأسه إلى راحتيه وهو مستغرق في التفكير : وانبعث على
البعد غواء ذئب أيقظ كلاب القرية ، فارتفع نباحها بغير انقطاع .
وإذا ذاك رفع (رامش) رأسه ، فإذا (كمالاً) تقف على مقربة منه ،
مستندة إلى سياج الباخرة في جنح الظلام : فنبش عن مقعده قائلاً :
« أو لم تلوذى بعد بمحمدك يا كمالاً ؟ .. فسألته بدورها : « أو لن
تذهب أنت إلى الفراش ؟ » .

-- إنني ذاهب لتوى .. سأبسط فراشي في القمرة التي في الجانب
الأيمن من سطح السفينة ، فلا تشتطرنني .. وجرت (كمالاً) قدميها
في صمت إلى القمرة التي خصصت لها . ولم تطاوعها نفسها على أن تذكر
لرامش أنها قد استمعت إلى قصة عن الأشباح ، فأصبحت تخاف
الوحدة . وخفق قلب (رامش) إشفافاً حين رأى ما في خطواتها من
تلكؤ : فصاح بها : لا تخاف يا كمالاً .. سأحتل القمرة الملاصقة لقمرك،
وسأترك الباب الذي يتهما مفتوحاً .. رفعت (كمالاً) رأسها في شمم
وقالت : « وما الذي يملأني على الخوف ؟ » .. على أن (رامش)
احتل القمرة المجاورة : وما لبث أن أطفأ المصباح واستلقى على فراشه
وأخذ يقول لنفسه : « ليس بوسعي قط أن أهدر (كمالاً) : ومن
ثم فودعاً يا همناليني ! .. هذا قراري النهائي .. »

يغير الأمي في فؤادها ؟ .. ومن أين كانت تلك العبرات التي تراجعت في صدرها ، وتندفعت إلى حلقها « وأوشكت أن تجلبب الدموع إلى عينها ؟ .. ولماذا أصبحت تأسي على حياتها الماضية ؟ .. كانت قد نسبت منذ أربع وعشرين ساعة أنها وزوجها يتيان ، وأن ليس لها من أقارب أو معارف . فما الذي جعلها الآن تشعر بالوحدة ؟ .. ألم يلك (رامش) كافياً لأن يملأ عليها حياتها ؟ .. لماذا يغضبها الشعور بعظم الكون وبضآلتها هي ؟ !

وفيما كانت في وقفها الشاردة على عتبة الباب المفتوح ، بدا سطح النهر يتألق كصفحة متأرجحة من ذهب . واستأنف الملاحون أعمالهم ، وأخذت شراكات الباهرة تدور ، وأيقظت جلجلة السلاسل وضجيج الآلات صبية القرية . فأقبلوا إلى الشاطئ . واستيقظ (رامش) كذلك ، فأسرع إلى باب قمرته ليظمن على (كالا) . وأجفلت مأخوذة حين رآته . ومع أنها كانت تيسط قناعها على وجهها ، إلا أنها حاولت أن تخفي عنه عيها تماماً ، فسألها : (هل اغتسلت يا كالا ؟ .. وبدا السؤال بريئاً . خالياً من كل تأنيب ، ومع ذلك فلأنها استاءت منه ، وهزت رأسها وهي تنأى بنفسها .. فعاد (رامش) يقول : « لن يلبث القوم أن يصعدوا إلى السطح ، فيحمن أن تسرعى ! .. ولم تحب (كالا) بشئ* : بل تناولت الثوب الذي اعتادت أن ترتديه في النهار . وسارت إلى الحمام . وهي مغضبة .. فإن استيقظ (رامش) ميكراً ليرشدها إلى نظافتها ، أمر بدا لها غير ضروري .. بل إنها رأت فيه شيئاً من مجافاة الذوق ! .. وكانت

ولكنه في رقدته . في الظلام - راح يتحسر على ما كان يخسره بهجران (همناليني) . وما لبث أن عجز عن احتمال أفكاره ، فوثب من فراشه ، وغادر قمرته : وأوحى إليه الظلام الدامس الخيم ، بأن أساء وعلاب قلبه ليسا بلا نهاية ، وليسا في امتداد الزمن والقضاء ! .. وتطلع إلى السماء المعتمة .. إن النجوم اللامعة أشياء بعيدة : ولن تصل إليها قط قصة حب (رامش وهمناليني) : إذ أن هذه القصة على ما فيها من أسى . تتضائل بالنسبة إلى النجوم ولا تتناول إليها ! .. وكَم من ليالٍ خريفية ، سيفضل النهر ينساب فيها خلال الخبزي المخطط بالرمال : تحت ضياء النجوم . وبين أعواد الغاب المترنحة ، على مقربة من القرية التي تحف بها الشجيرات .. بعد أن تكون أنفاس (رامش) قد خمدت . وجسده الفاني قد أحرق وتحول إلى رماد يختلط بالثرى الدائم !

الفصل السابع والعشرون

■ استيقظت (كالا) في جوف الليل ، فلما تلفتت حولها تبين أنها كانت وحيدة . ومرت دقيقة أو اثنتان ، قبل أن تذكر أين كانت ، ثم انسحبت من فراشها ، وفتحت باب القمرة وأطلت خلاله . كانت تخيم على الماء الساكن غلالة من ضباب أبيض ، وشاب الظلام طيف من بياض مغبر ، إذ بدأ الفجر يتسم في السماء خلال الأشجار التي حفت بالضفة الشرقية . وفيما كانت في تأملها ، لاحت أشعة مراكب الصيد « وقد بدأت توشى صفحة النهر . وشعرت (كالا) بانقباض يغزو قلبها ، دون أن تدرك مبعثه .. لم كان منظر صباح الخريف بضبابه

أنه رسم لنفسه في معاملته إياها حداً لا يتجاوزه ، ولا يعن في رفع الكلفة بعده :: وما كان من حظها يوماً أن جلست عند قدمي حاة تلقها أصول السلوك ، ومتى يقتضي الأدب والحياء أن تخفض حجباها :: ومع ذلك ، فقد غالبا الخجل في حضور (رامش) في ذلك الصباح وعندما عادت (كالا) إلى قمرتها بعد الاعتقال ، وجدت عملها اليومي في انتظارها ، فتناولت حزمة المفاتيح من طرف مئزرها الملقى على كتفها ، وأقبلت تفتح الحقيبة التي كانت تخوى على ثيابها ، فإذا بها تلمح الخزانة الصغيرة التي كان (رامش) قد عهد بها إليها . لقد بدت لها هذه الخزانة بالأمس مبعث سرور جديد ، فإن وجودها في حوزتها بعث في نفسها شعوراً بالسلطان والاستقلال ، وقد غيبتها في الحقيبة بحرص ، وكأنها تخفي كنزاً ثميناً . ولكن السرور الذي كانت تبعثه الخزانة في نفسها، نصب في ذلك الصباح ..! وحدثها نفسها بأن هذه الخزانة ملك لـ (رامش) - وليست لها هي - رغم كل شيء .. فهي ليست حرة التصرف فيها ، وليس بوسعها أن ترى فيها أكثر من مسئولية ملقاة على عاتقها ! .. ودخل (رامش) القمرة في تلك الأثناء ، فقال لها في عجب : « إنك بادية الوجوم اليوم ، فهل وجدت في الحقيبة شيئاً ، حين فتحها ؟ » .. ولكنها مدت إليه يدها بالخزانة قائلة : « هذه خزانتي ! .. فسالها : « وماذا أفعل بها ؟ » .

— ليس عليك إذا احتجت إلى شيء سوى أن تأمرني فأتيك به !

— ولكن .. ألن تحتاجي أنت الأخرى إلى نقود ؟

فهزت رأسها في كبرياء وهي تقول : « لست بحاجة إلى نقود » .

واينسم (رامش) قائلاً : « ما أندر من يقولون قولك ! :: ومع ذلك » فإذا كنت لا ترين للنقود قيمة ، فلماذا لا تمتحيا لأي غريب ؟ :: لماذا تعطينا من دون جميع الناس ؟ » .. فوضعت (كالا) الصندوق على الأرض في صمت . وعندئذ قال : « ألا صارحيني بالحقيقة يا كالا .. أنت مغضبة لأنني لم أرو لك نهاية القصة ؟ » .. أجابت وقد غضت بصرها : « لست غاضبة ! » .

رامش : « إذن فاحتشطي بهذا الصندوق فلن أوقن من أنك صادقة ، إلا إذا فعلت ذلك ! » .

كالا : « لست أرى بين الأمرين علاقة . إنه ملك لك ، فخليقين بك أن تحتفظ به ! » .

رامش : « ولكنه ليس ملكاً لي ! .. إن الذين يستردون هباتهم ، يصبحون أشياء إذا ما ماتوا . فهل تريد أن أكون شيئاً ؟ » .

ولم تستطع أن تكبح الضحك لهذه الفكرة « وقالت : « لا ، بالتأكيد ! .. ولكن ، أحقاً يصبح الذين يستردون الهدايا أشياء ؟ ما سمعت بهذا من قبل » . وقضى ضحكها على الخصام ! .. وقال (رامش) : « لا يمكن التأكد من صحة ذلك إلا بطريقة واحدة .. هي أن تسأل أحد الأشياء بنفسك إذا ما صادفته ! » :: وأثار قوله قضاؤها ، فسألته : « أحقاً يرى الناس الأشياء :: هل رأيت شيئاً حقيقياً يوماً ما ؟ » — لم أر شيئاً حقيقياً ، ولكنني رأيت كثيراً من الأشياء الزائفة :

فإن الشيء الحقيقي نادر !

كالا : « ولكن أومش يقول :: »

رامش : « أومش :: ومن يكون أومش ؟ » .

كمالا : « عجباً ! .. الصبي الذي يرافقتنا ، لقد رأى شيئاً ! » .

رامش : « إذن ، قلنى أعترف بأنه قد تفوق على هذه البقرة » .

■ وكان الملاحون قد وقفوا بعد جهود كبيرة إلى تعويم السفينة . في تلك الأثناء . ولكنهم لم تكن قد بعدت عن الشاطئ مسافة تذكر ، حين بدا على الشاطئ صبي يحمل سلة في إحدى يديه ، وقد أخذ يعلو بأقصى سرعته ، ويلوح بذراعه الأخرى للباخرة كي تقف . ولكن الريان لم يعبأ به . وإذ رأى الصبي (رامش) راح يصيح به : « بابو ! .. بابو ! » فقال (رامش) : « لعله يظنني محصل التذاكر ! » .. وأشار إليه بأن لا سلطان له على الباخرة . ولكن (كمالا) هتفت : « عجباً ، إنه أومش ! لا ينبغي أن تتركه .. يجب أن تأمر بإحضاره إلى السطح » : فقال : « ولكنهم لن يقبلوا أن يوقفوا الباخرة من أجل » .. وصاحت (كمالا) في أسى صادق : « بل يجب إن تأمرهم بالوقوف ! .. ألا قل لهم ! .. ! إننا جدد قريين من الشاطئ » . ومن ثم أسرع (رامش) إلى الريان برجوه ، فكان الجواب الذي تلقاه : « إن القانون يمنعنا بإسبالي » . وكانت (كمالا) قد لحقت به ، فأنصمت إليه في الرجاء . قائلة : « ما ينبغي أن تتركه ! .. ألا تقفوا لحظة ! .. يا لولدى أومش اليائس ! » . على أن (رامش) لم يلبث أن جنح إلى أسلوب بسيط في مغالبة رفض الريان . وبعد منحة طيبة ، أوقف الرجل المركب ، وسمح للصبي بأن يصعد إلى سطحها : ثم أقبل يهيل عليه اللوم والتأنيب ، ولكن

(أومش) لم يتأثر بشئ .. وإنما وضع السلة عند قدمي (كمالا) وهو يتبسم ، وكأن لم يحدث شئ . وإذا ذلك قالت (كمالا) : « ولم تكن قد تماكنت بعد نفسك من الإشفاق الذي غشيها من أجله : » ليس في هذا ما يضحك . ما الذي كان يحدث لك لو أن الرجل رفض الوقوف ؟ » . ويدلا من أن يجيب (أومش) ، أفرغ محتويات السلة على سطح السفينة ، فإذا بها حزمة من نبات الطلح ، وكية من « السبانخ » ، وعدد من القرع والباذنجان . وسألته (كمالا) : « من أين أتيت بكل هذا ؟ » .. ولم يكن رده من النوع الذي يرضى عنه الشرطة : فلقد لاحظ عندما ذهب إلى القرية لإحضار اللبن الخضر والأشياء الأخرى — في اليوم السابق — أن هذه الخضر كانت موفورة في كثير من الحدائق وعلى كثير من أسطح الدور . ومن ثم هبط مبكراً إلى البر في ذلك الصباح . منتهزاً فرصة وقوف السفينة ، وأخذ ينقي ما أعجبه دون إذن من أحد !

وصاح (رامش) في غضب : « كيف تسول لك نفسك السرقة من حدائق الناس ؟ » .

— ما هذه السرقة .. إنما أخذت قسماً ضئيلاً من كل حديقة ، ولن يضار أحد من ذلك !

— إذن فاقنصارك على أخذ مقادير ضئيلة لا بعد سرقة ! .. يا لك من أفاق ! اغرب عن وجهي ، وشذ معك هذه الأشياء !

وقطع (أومش) إلى (كمالا) في ضراعة ، وهتف : « إن هذا النوع من السبانخ يا أماء ينمو في بلدى . وإني من أشهى الأنواع .. » .

ولكن (رامش) صاح فيه وقد اشتد غضبه : « امش من هنا أنت وسياخك ، وإلا ركلت كل شيء فألقيت به في البحر ! » .. وعاد « أومش » يتطلع إلى (كمال) يرتقب منها إرشاداً ، فأشارت إليه بأن يجمع الخضر ويحملها من المكان . وفهم من مسلكها أنها لا تزال تحتفظ له بركن شغوق من قلبها ، فجمع الخضر ، وردّها إلى السلة . ثم سار مبتعداً عن المكان ، بينما قال (رامش) لكمالاً وهو يسير إلى قمرته ليكتب رسالة : « كان هذا المسلك خطأ منه ، وما يجب أن ترضى عن مثل هذا العمل ! » .. وتلفتت (كمال) ، فرأت (أومش) يجلس في مؤخرة السفينة ، خلف سطح الدرجة الثانية . وبالقرب من مقبضها : ولما لم يكن يشغل الدرجة الثانية راكب : فقد سعت (كمال) إلى حيث كان الصبي يجلس ، بعد أن أسدلت قناعها . وسأله : « هل رميت الأشياء في البحر » . قال : « لا .. بل هي هنا » . فقالت محاولة أن تبدى شيئاً من الحزم والصرامة : « كان هذا العمل منك ذنباً كبيراً . كما ترى ، فلا تعد إليه ثانية . فكر فيما كان يجري لو أنك تركت على الشاطئ ! » . وسارت إلى مطبخها ، ثم صاحت : « ناولني سكيناً ! » . فلبى (أومش) طلبها ، وانهمكت (كمال) في نقشير الخضر وتقطيعها : وقال الصبي : « إن الخردل المسحوق (المستردة) يزيد من لذة طعم هذا السباخ يا أماء .. فقالت : « حسناً .. احسن قدراً من الخردل إذن ! » وحرصت على أن لا تبدى تلعفلاً لتشعره بذنبه ، ومن ثم راحت تقطع السباخ والفرع والباذنجان ، وهي عابسة : وماذا كانت تملك سوى أن تعبس لهذا الصبي البائس ! .. والواقع أنها كانت ترى سرقة

الخضر أمراً تافهاً ، لاسيما والغلام شريد . بلا أهل ، فهو يصبو إلى الرعاية ! .. ثم إن في ذنبه ناحية هفت بقلها ، فما أقدم التعس على الإغارة على الحدائق « معرضاً نفسه للتخلف عن الباخرة : إلا لكي يرضيها : .. لذلك لم تليث أن قالت : « هناك بعض اللبن الخثر المتخلف من الأمس يا أومش ، فعلك به . ولكن ، تذكر أنك يجب أن لا تعود قط إلى مثل الذنب الذي ارتكبيته ! » .. فسألت في تقرب يحو به أثر لثمه : « ألم تتناولي من ذلك اللبن أمس يا أماء ! » :

.. لست أحبه كثيراً مثلك : ألا اسمع ، إن لدينا كل شيء ، إلا السمك . فكيف نستطيع أن نحصل على بعض السمك لقطور سيدك ؟ .. أستطيع أن أتيك بسمك يا أماء « على أن تدفعي هذه المرة ثمناً : وألفت نفسها مضطرة إلى تقريعه مرة أخرى : فتالت وهي مقطبة الجبين : ، ما رأيت ولداً أعجب منك يا أومش .. كأنما طلبت منك شيئاً من قبل . دون أن أدفع له ثمناً ! .. والواقع أن ما جرى في اليوم السابق كان قد أوحى لي (أومش) بأن (كمال) كانت تجد أن الحصول على نقود من (رامش) مهمة عسيرة ، ومن أجل هذا ، أحس في سريره بنفور من مخدومه . ولم يزد هذا إلا قربي من (كمال) وانسجاماً معها ، فلم يكن لرامش مكان بينهما ، في رأيه !

* * *

■ إذا كانت الظروف قد أثبتت أن الحصول على الخضر أمر سهيل ، فإن الحصول على السمك لم يكن بهذه الصعوبة المولع

بكالا « أن هذه الدنيا لا تستحق من الإنسان عطقاً ، لأنها قامت على نظم لا تمكن المرء من الحصول على قدر صغير من السمك أو من اللبن الخمر لإرضاء عزيز يحبه ، إلا بالمال !.. وقال يرون على (كالا) : « لو استطعت أن تحصلي من السيد على خمس « آتات » (عملة هندية) فقط ، لاستطعت أن آتيك بحزمة كبيرة من السمك !.. ولكن (كالا) أجابته مؤنية : « لا ينبغي أن أسمح لك بمغادرة الباخرة مرة أخرى . فلو أنك تأخرت لما سمحوا لك في هذه المرة بالخاق بنا !.. » فهتف : « ولكنني لن أميل إلى البر . لقد اصطاد الملاحون شبكاتهم قدرأ كبيراً من السمك في هذا الصباح « وفي وسعهم أن يبيعونا بعضاً منه . » وإذا ذلك ، ناولته (كالا) روية ، وقالت : « إذن - ادفع الثمن من هذه « وأعد إليّ الباقي . » وسرعان ما رجع (أومش) ، بالسمك ، دون بقية من النقود ، قائلاً : « لقد أبوا أن يتقاضوا ثمناً أقل من روية . » وأدركت (كالا) أنه لم يكن صادقاً ، فقالت مبسمة : « سنعمل - حين تقف الباخرة في المرة القادمة - على أن نستبدل بعض العملات الصغيرة بعدد من الروبيات . » وتصنع الصبي الجحد ، قائلاً : « هذا ما ينبغي فعله ، فإنك ما تكادين تظهري روية أمام هؤلاء القوم ، حتى يضعوا نصب أعينهم أن يفوزوا بها كاملة !.. »

وبعد قليل ، جلس (رامش) إلى فطوره ، فما كاد بصره يقع على الطعام ، حتى صاح : « مرحى ! : هذا بديع !.. ولكن ، من أين جئت به ؟ .. عجباً ، هاهو ذا رأس سمكة : لا ، ما هذا يعلم ،

ولا هو من خداع البصر في شيء ، بل وليس من مذاعبات الخيال ، وإنما هذا رأس سمكة بالتأكيد !.. » وكان الفطور في ذلك اليوم رائعاً حقاً . فلما استق (رامش) - بعد أن انتهى منه - في مقعد طويل على ظهر السفينة ، ليتيح لمعدته أن تتولى هضم الطعام في هدوء : حان دور (أومش) . فإذا هو يستمرئ (طابجن) السمك إلى درجة عظيمة ، حتى إنه راح يأكل في نهم ، فخشيت عليه (كالا) أن يتخم ، وصاحت به : « لا تؤد على ما أكلت الآن يا أومش .. لقد أبقيت قسطاً منه لتتناوله في العشاء !.. » وسرعان ما انتزعها نشاطها ، ومرحها الذي لا ينضب ، من غمرة الاكتئاب الذي غشيها في الصباح . وانصرم اليوم . وأخذت الشمس تتحدر إلى المغيب . وفي الدروب الضيقة التي كانت تتخلل الخضرة النامية على ضفتي النهر ، أخذت الريفيات يتقاطرن إلى الشجري ، مستندات جوارهن إلى أردافهن . وقضت (كالا) فترة الأصيل في إعداد طعام من طلع الموز ، ثم اغتسلت ، وعقصت شعرها . واوردت ثياباً نظيفة ..

واختفت الشمس وراء أحراش الغاب التي تقوم كعالم ترشد إلى القرى الواقعة على الضفتين ، ورست الباخرة في إحدى المرائ التي اعتادت أن تبتلع إليها في الليل . وكانت (كالا) قد تفقدت ما بقي من الخضر وألفته كافياً للعشاء - دون ما حاجة إلى طهو جديد - حين أقبل (رامش) معلناً أنه قد أسرف في الأكل أثناء الغداء ، فلم يعد في حاجة إلى عشاء . وسألته في أسف : « ألن تناول شيئاً على الإطلاق .. ولا سمكة صغيرة ، مقلوبة ؟ » فأجاب في اعتصاب : « لا ، شكرأ لك . »

فأظهرت أسارىه أن ذهته كان بعيداً .. بعيداً عنها ! .. وخيل إليها أن
بين رامش - وهو مستغرق في أحلامه - وبين نفسها ، يقوم شيخ الليل
كديديان جبار ، ملتف من رأسه إلى قدمه في غلالة من ضوء القمر ..
وقد رفع أصبعاً إلى شفثيه !

وعندما دفن (رامش) وجهه في راحتيه ، وترك رأسه يستند إلى
المضضدة التي أمامه « تسللت (كالا) عائدة إلى قمرتها ، دون أن تجرؤ
على إصدار أى صوت ، حتى لا يسمعه ويتبين أنها جاءت تبحث عنه !
وبدت قمرتها مظلمة ، مقبضة للنفس « فارتعشت حين اجتازت عتبتها »
واجتاحها شعور بأنها مهجورة ، وحيدة . وخيل إليها أن جوف الغرفة
الصغيرة ، المظلمة ، فم انفرج فكاه وكأنه وحش غريب ، ولكن ..
أين نجد ملجأ سواه ؟ .. لم تكن ثمة بقعة تريح فيها جسدها الضئيل ،
وتغمض عينيها ، وهي تشعر أن هذه البقعة ملك لها ، ومن حقها
وحدها ! .. وحدها في القمرة المظلمة ، ثم تراجع : وفيها هي
تتجاوز العتبة ، وقعت مظلة (رامش) ، فارتطمت بحقيبة من الصباغ :
وأفزع الصوت (رامش) ، فوثب عن مقعده ، ثم هتف حين رأى
(كالا) واقفة في مدخل قمرتها : « أهذه أنت يا كالا ؟ .. ظننتك
قد أويت لخدعك منذ زمن . أخشى أن تكوني قد تأخرت عن موعد
نومك » بل يخيل إلى أنك متفلة . : لن أمكث على السطح طويلاً ،
ولئلا سأوى سريعاً إلى القمرة الملاصقة لقمرتك ، وسأترك الباب مفتوحاً
بيننا .. فقالت (كالا) في ترفع : « لست خائفة ! » : وخطت في
عجلة إلى داخل قمرتها ، وأغلقت الباب الذي كان يربط بين القمريتين ،

ثم انصرف مبتعداً ، فعمدت (كالا) إلى وضع كل ما تبقى من الطعام في
طبق (أومش) « فسألها الصبي : « ألم تستيق لنفسك شيئاً ؟ » .. فكان
ردها : « لقد تناولت عشاءى » .. وبهذا انتهى عملها في ذلك اليوم ، في
مطبخها العام !



● وكان قمر الشهر الجديد قد أسبغ ضيائه على النهر والبر . ولم تكن
ثمة قرية قريبة من محطة الباخرة . وبدا الليل الصامت . المناق السناء ،
كحارس ساهر ، أو كسيدة لم يوافها حبيبها في موعد اللقاء . على
خضرة حقول الأرز المترامية .. وعلى مقعد بسيط ، في كوخ ذى
سقف من الصفيح على الضفة ، جلس كاتب كهول ، ضئيل الجسم .
يجمع أرقاماً على ضوء مصباح بترولى . وكان (رامش) يراه خلال
الباب ، فنهد قائلاً لنفسه : « ليت القدر يفضنى في مثل كوخ هذا
الكاتب .. كوخ ضيق ولكن الحياة فيه واضحة المعالم ! : أى ضرر
يحق بالمرء في حياة كهذه : أفضى النوم كله في تسجيل الحسابات ،
وألتقى لوم الخدم إذا ما ارتكبت أخطاء » ثم أعود إلى البيت في الليل ،
وقد أدبت عمل يومى ؟ ! .. وكانت (كالا) تقف وراءه - بجوار
السياج - منذ فترة « ولكن (رامش) لم يك شاعراً بوجودها . كانت
قد توقعت أن يناديها ليتمر معها بعد الغروب « وقد فرغت من عملها ،
ولكنها لم تلتق نداء ما ، ومن ثم تسللت من قمرتها إلى سطح الباخرة في
هدوء ، حتى إذا شاهده ، يحدث في مكانها فجأة ، وأبت أوصالها أن
تحملها خطوة أخرى ! .. وكان القمر يرسل أشعته على وجهه ،

مقاتلها .. ولم يكن ثمة داع لقمعها ، فساقت في قطرات كبيرة :
وأشاحت (كالا) بوجهها ، لتخفي دموعها عن (أومش) : وكما
أن السحابة المثقلة بالماء تهيم في السماء ، حتى إذا التقت بزميلة هائمة
— تتمثل في نسمة باردة — عجزت عن أن تسبق حملها « فترسله
مطرأً » : كذلك كانت حال (كالا) !.. لما أن سمعت رنة العطف
في لمحة الصبي المشرّد ، حتى عجزت عن قمع دموعها التي انبثقت من
فؤادها . وحاولت أن تتكلم ، ولكن الشبهات خنقت صوتها . وتلفت
(أومش) حوله يبحث في حيرة عن وسيلة لمواساتها :: وظل صامتاً
فترة ، ثم قال في استحياء : « لقد نسيت أن أقول لك يا أماء إن ثمة
سبع « أنات » تبتق من الروبية » !

وجففت (كالا) دموعها « وابتمت وقد خفق قلبها لسذاجة
الطفل ، ثم قالت : « ابقها معك ! » .. ثم أردفت : « والآن » اجر
إلى فراشك ! » .

وغاص القمر خلف الأشجار . وفي تلك الليلة ، أغمض النعاس
عيني (كالا) بمجرد أن أسلمت رأسها إلى الوسادة . وعندها أرسلت
الشمس أشعتها الحامية في الصباح ، تأمر الأرض باليقظة ، كانت
(كالا) مستغرقة في سبات عميق !

الفصل الثامن والعشرون

■ بدأت (كالا) يومها التالي متفائلة ، تشعر بالخير ، وقد خيل
إليها أن الشمس فقدت إشرافها ، وأن النهر كان ينساب أسياً والأشجار
على الضفة تنهالك على نفسها ! .. فلما أقبل (أومش) لبسها لها في

ثم ألقت بنفسها على السرير : ولقت وجهها في (شاك) : واشتد
شعورها بوحشتها ، ويدهها المطلق عن كل أنيس : فإذا كل كيانها
يهب نائراً ! .. إذا كان قد قدر عليها أن لا تحظى بالرجل الذي يحبها
من كل ما يغيظها ، وأن لا تكون .. من ناحية أخرى .. سيادة نفسها .
فأية حياة هذه ؟ .. إنها حياة لا تطاق !



■ ومر الوقت : واستغرق (رامش) في النوم ، في القمرة المجاورة ،
ولم تعد (كالا) تقوى على مغالبة خوفها ، قهضت ببطء ، ثم سارت
إلى سباح السفينة ، وراحت تتأمل شاطئ النهر ، فلم تر أو تسمع ما ينم
عن وجود مخلوق حي . وكان القمر يوشك على الغروب . ولم يعد في
الوسع تبين الدروب الضيقة المتغلغلة خلال الحقول . وحدثت نفسها
قائلة : « كم من نساء جان الماء خلال هذه الدروب ، وقد سعت كل
منهن إلى بيتها ؟ ! » .. البيت ! .. وقفز قلبها للتفكير ! .. آه ! لو كان
لها بيت في أي مكان ! .. ولكن « أين ؟ .. ولاحت ضففتا النهر
وكأنهما تمتدان في الفضاء إلى ما لا نهاية . وفوق رأسها « كانت القبة
الهائلة — قبة السماء — تمتد بلا حدود . ولكن : ما قيمة الأرض
والسما على سعتها ! .. كل هذا الكون الشاسع لم يكن — بالنسبة لهذه
الذرة الآدمية ! — ذا نفع .. فما كانت تصبو إلا إلى :: بيت صغير !
وجزعت (كالا) إذ فطنت إلى شخص يجوارها : وإذا صوت
(أومش) يقول : « لا تخشى يا أماء :: هذا أنا ! » ، فقالت : « إننا
في ساعة متأخرة » فلماذا لم تنم ؟ :: وما لبثت الدموع أن انسابت من

عملها ، قالت له في إعياء : « لا يا أومش : لا تشغل بالك اليوم بعمل ! » . ولكن (أومش) لم يكن سهل الانصياع : إذ قال : « لن أزعجك يا أماء . إنما جئت لأخبرك لك التوابل » .. وما لبثت نظرتها الحزينة أن اجتذبت انتباه (رامش) حين أقبل . فسألها : « هل تحسبن بتورك يا كمالا ؟ » .. ولكنه لم يتلق جواباً . بل نادت عن (كمالا) إشارة من رأسها تمت عن اعتقادها بأن سؤاله مصطنع ، ومستهجن ، ثم تحولت عنه إلى المطبخ . وبين (رامش) أن كل يوم يزيد مشكلته تعقيداً ، وأن من الواجب أن لا يتأخر في حلها أكثر من ذلك . وانتهى إلى أنه لو استطاع أن يقضى إلى (هنالقي) بما في نفسه لسهل عليه أن يقرر الواجب الذي ينبغي عليه أدائه . ومن ثم جلس — بعد تفكير طويل — يكتب للقناة . وقضى وقتاً يكتب ، ثم يمحو ما يكتبه ! .. وما لبث أن سمع صوتاً غريباً يسأله : « هل لي أن أسألك اسمك يا سيدي ؟ » . فالتفت مأخوذاً ، وإذا به يرى سيداً متندماً في السن ، ذا شاربين أشيبين « وشعر خف نموه عند الجبين . وكان ذهن (رامش) مركزاً في الخطاب ، فلم يستطع أن يستجمع فرخته فوراً » وقال الغريب : « إنك براهياً .. أأنت كذلك ؟ .. صباح الخير » . إنك تدعى (رامش بابو) وهذا جل ما عرفت عنك : إن سؤال المرأة عن اسمه هو أولى خطوات التعارف في بلادنا « فهو في الواقع لون من الجمالة ، ولكن الناس يستامون من ذلك في هذه الأيام . فلذا كنت قد أسأت إليك » فأرجو أن ترد علي الإساءة ، مع الفوائد ! .. سلتى

أجبتك ذاكراً اسمي . واسم أبي أيضاً .. بل إنني لا أجد مانعاً — في الواقع — من ذكر اسم جدى كذلك ! » .

وضحك رامش قائلاً : « إنني لم أسأ إلى هذه الدرجة ! .. يكفيني أن تذكر لي اسمك » فقال الرجل : « اسمي (ترايلاكيا تشاكرا بارقي) وكل أمرئ على امتداد النهر يلتقي به (العلم) . وما أظنك إلا قد درست التاريخ : وعرفت أن (ياراتا) كان (الملك تشاكرا بارقي) ، أى الملك الأعظم .. إمبراطور هندوستان . وكذلك (العلم تشاكرا بارقي) — أى أنا — في كل الريف الغربي « ولابد أن تسمع عني كلما أوغلت في القرب . وبهذه المناسبة يا سيدي . إلى أين أنت راحل ؟ » .. فقال رامش : « لم أقرر بعد أين أبرح الباخرة » ، فقال (ترايلاكيا) : « لا حاجة ندعوك إلى الإصرار في مبارحة الباخرة ! » .. وعاد (رامش) يقول : « لقد سمعت الباخرة ترسل صفيها وأنا أبرح للقطار في (جوالندو) ، ثم تحفقت أنها لن تنتظر حتى أقرر وجهتي ، ومن ثم عدت إلى العجلة ، حيثما تستحب العجلة ! » . قال ترايلاكيا : « إنني أرفع قبعتي احتراماً لك يا سيدي ، فأنت من النوع الذي أعجب به : إنك على النقيض مني . كان لابد من أن أقرر قبل أن أصعد إلى الباخرة ، لأنني شخص غير سريع البت ، ومن ثم فإني أحترم الرجل الذي يستطيع أن يقرر الصعود إلى الباخرة قبل أن يعرف وجهته : هل زوجتك على الباخرة يا سيدي ؟ » .. وشعر (رامش) بتردد طارئ قبل أن يجيب . ولاحظ (تشاكرا بارقي) تردده ، فقال : « يجب أن تغفر لي ، ولكنني علمت — من أوثق — أنها على الباخرة » .

فقد كانت زوجتك الطيبة تطهو « حين جرى جوعي إلى مطبخها ،
 فقلت لها : « لا تخجلني متى ياسيندي ، فأنا العم (تشاكرا باري) من
 ريف الغرب » .. وبألمها من زوجة شابة ، كاملة ! .. واستطردت
 قائلاً : « أرى أن لديك مطبخاً » ولما كنت لا أجده من يعنى بي :
 فأرجو ألا تفضي عليّ بنصيب من خيرائك » .. فابتسمت ابتسامة عذبة
 أكدت لي أنها ستكون حقيقة بي ، وإن متاعبي قد انتهت : ولعلك
 تعرف أنني دائماً أبحث عن يوم سعيد ، في التقاويم الفلكية ، قبل أن
 أبدا أية رحلة : ولكنني لم أصب قط ما أصبت في هذه الرحلة من
 حظ !.. أرى أنك مشغول ، لذلك لن أعطلك أكثر مما عطلتك . فإذا
 سمحت لي ، ذهبت فساعدت زوجتك الصغيرة ، إذ يجب أن لا تنلف
 يديها الجميلتين بحرك النار وأنا هنا . أرجو أن لا تنهض من مكانك ،
 بل امض فيما تكتب » فأنا أعرف كيف أقدم نفسي « .. ثم سار (العم
 تشاكرا باري) إلى المطبخ !

وقال وهو يلج المطبخ : « هناك رائحة زكية تنبعث من هذا المكان
 وفي وسع المرء أن يقول أنها لطايع أرز بالسلك ، قبل أن يتذوقه !..
 على أنني أرى واجباً عليّ أن أصنع لك (سلاطة لبن) ، فليس مثل
 اللذين يعيشون في حر الشمال الغربي من يجيد صنع هذه السلاطة !..
 أعرف ما يدور بخلدك ، فإنك تعجبين من حديث هذا الكهل . ومن
 زعمه أن يستطيع أن يصنع (سلاطة لبن) بدون (تمر هندي) !..
 حسناً ، لا تشغلي بالك بشأن (التمر هندي) ، فهو معي هنا : اصبري
 لحظة ريثما أعخذ استعداداتي ! » :

وأحضر الكهل جرة صغيرة ملفوفة بالورق ، ثم قال : « إذا
 ما صنعت (سلاطة اللبن) فخذني منها ما تحتاجين إليه في يومك ،
 واحفظي الباقي لأربعة أيام ، ثم تذوقيه ، وسوف ترين أن (العم
 تشاكرا باري) لا يغالي في الزهو ، حين يقول إنه يستطيع أن يعد
 (سلاطة اللبن) ! .. والآن ، اجري فاغسلي يديك ، فقد حان وقت
 القطور : وسأولى عنك ما بقي من مستلزمات الطهو :.. ولا تقلقي ،
 فإني واسع التجربة : إذ أن زوجتي ضعيفة الشبهة ، ومن ثم تعلمت
 صنع « سلاطة اللبن » لأحاول أن أثير شهيتها . إنك تضحكين من الشيخ
 المسن ، ولكنني لا أمزح ، بل هذا هو الحق ! » : فقالت (كمالا)
 مبتسمة : « إذن ، فعليك أن تعلمني صنعها ! » : وإذ ذاك هتف
 الشيخ : « مهلاً !.. إنني لا أنزل عن معرفتي بهذه السهولة !.. إن ربة
 المعرفة ستغضب مني إذا بددت كرامة المعرفة بالتزول عنها في أول
 أيام تعارفنا . بل لا بد أولاً من أن تتلقى الشيخ لثلاثة أيام أو أربعة .
 ولا تشغلي بالك في البحث عن طريقة لإرضائي ، فسوف أرشدك إلى
 هذا . القاعدة رقم ١ : أنا مشغوف بطلع الموز ، ولكنني لا أحب أن
 أمضغ كل ورقة . وليس من السهل على امرئ أن يفزو قلبي ، ولكنك
 مضيت بعيداً في هذا الغزو يا عزيزتي ، بفضل وجهك المليح . أهلاً
 بك ، ما اسمك يا صبي ؟ »

ولم يجب (أومش) ، لم يذرق له ألفة الشيخ ، وما كان ليتقبل
 فكرة وجود من يزاحمه في عواطف (كمالا) .. على أن الشيخ مضى
 قائلاً : « إنه ولد لطيف !.. إنه لا يملك غوراً على ما يجول بجوارحه

ولكني أؤكد لك أننا لن نلبث أن ننسجم معاً ، والآن ، ينبغي أن لا نضيع مزيداً من الوقت ، بل لابد من أن أسرع في استكمال الظهور ! .. وهكذا ملأت صحبة الشيخ الفراغ الذي كان قائماً في وجود (كمالا) ، كما كان ظهوره مبعث ارتياح لرامش . فمن المؤكد أن للفارق بين مسلك (رامش) الراهن ، وبين الآفة المطلقة التي سادت علاقته بكمالاً في الأشهر القلائل الأولى - حين كان يعتقد أنها زوجته - قد جرح شعور الفتاة « ومن ثم كان خليقاً به أن يرحب بكل ما يحول فكر الفتاة عنه » لا سيما وأن هذا يتيح له أن ينصرف إلى التفكير في علاج لآلام قلبه !

وفيما كان (رامش) منفرداً بنفسه ، وهو يثير أفكاره ، ظهرت (كمالا) لدى باب قمرتها ، كانت تعتزم أن تستأثر بصحبة (تشاكر بارقي) خلال فترة الأصيل الطويلة ، التي لم يكن لديها ما يشغلها فيها . ولكن ، ما إن رآها الشيخ « حتى هتف : « هذا لا يليق يا عزيزي .. إنه لا يكتفي ! .. » وأجفلت لقوله ، وأدهشتها لهجته . وإذ ذاك قال الشيخ بحجياً عن التساؤل الذي بدا في عينها : « إنما أعني حذائك بالطبع .. هذا ذنبك يا رامش بابو . قل ما شئت ، ولكن هذا ضلال ! .. إن الذي يضع حائلاً بين قدميه وأرض بلاده المقدسة « إنما يزدري بلاده !.. قد تضحك من قولي يا رامش بابو ، فأنت لا تقتنع به ، وهذا لا يدهشني ، فكل شيء يرتقب من أولئك للذين يتقربون إلى سطح باخرة وهي تشبه للإقلاع « دون أن يحفلوا بتعرف وجهتها ! .. » وقال (رامش) إذ ذاك : « يحسن بك أيها ألم ، أن

تقرر بنفسك أين تروح الباخرة ، فلسوف يكون لرأيك أثر يفوق صفيح أية باخرة ! .. فقال الشيخ : « عجباً ، إننا لم نتعارف إلا منذ ساعات قلائل ! .. حسناً ، خليك بكم أن تهبطوا في (غازيبور) : هل تأتين إلى (غازيبور) يا عزيزي ؟ .. لمتهم يزرعون هناك وروداً جميلة .. وبها يعيش هذا الكهل الملعوب بك ! .. » وتطلع (رامش) إلى (كمالا) ، فهزت رأساً فوراً ، بإعلاناً لموافقتها !

ولزم (تشاكر بارقي) و (أومش) قرة (كمالا) خلال فترة الأصيل ، بينما بقي (رامش) وحيداً في الخارج ، مما جعل الشابة تشعر بالخروج ! .. ومضت الباخرة تشق طريقها قلعماً : والمناظر على الضفتين تتراجع بسرعة في وهج شمس الخريف ، بعضها يمثل حقول الأرز ، وبعضها يمثل مرافئ الشحن ، ومنها المنحدرات الرملية ، والأراضي للزراعية ، ومنها الأسواق ذات السقوف المصنوعة من الصفيح .. وقد تنثر المسافرون - هنا وهناك - في جماعات صغيرة ، تحت الأشجار الظليلة ، في انتظار القوارب التي تنقلهم من ضفة إلى أخرى . وكانت قهقهة (كمالا) تنبعث من القمرة أحياناً ، فتنتهي إلى أذن (رامش) خلال السكنية الناعمة التي تتودأصيل الخريف ، فيخفق قلبه ، ويهمس لنفسه : « ما أجمل كل هذا .. وما أبعد عن متناولي ! »

الفصل التاسع والعشرون

● لا تجد الخناوف والشكوك والقلق ، مكاناً في القلب ترسب فيها ، في مثل السن التي كانت فيها (كمالا) ، إذ سرعان ما شعرت بالوقت يتخلل عن تناقله وينصرم سراعاً ، ولم تعد حبيبتها إليها إلا أن تشغل

لما وجدتوني هنا على الإطلاق ، بل لكنت وكيل ضيعة .. أليس كذلك يا جندى ؟ .. فكان الشيخ يشفع له قائلاً : « لرجي القضية يا رامش بابو » ريثما تناول الفطور ، فإنك لن تملك أن تصدر حكماً سليماً إلا بعده ، وأنا لا أستطيع في الوقت الحاضر إلا أن أقف في صف الغلام : على أن فن التدبير ونيل المطالب ليس من القنون السهلة يا أومش ، والذين يستطيعون أن يمارسوه ليسوا كثرة . حقيقة إن الذين يحاولون ، كثيرون ، ولكن الذين ينجحون قلة بينهم ! .. إنني لا أملك سوى أن أطرى المواهب أينما صادفتها يا (رامش بابو) . فنعن نعرف مثلاً أن القول لا ينمو في هذا الفصل ، وما أظن أن هناك كثيراً من الصبية الذين يستطيعون أن يأتوك بقدر منه في مثل هذا الصباح المبكر ، وفي مثل هذا المكان الغريب .. إن الشك ميسور لكل إنسان يا سيدى ، أما التدبير ونيل كل مشيئ ، فهبة لا يعطى بها سوى واحد في الألف من الناس ! »

ويعقب (رامش) على هذا قائلاً : « إنك لتعرف أن هذا ليس صحيحاً يا عمه » فلا ينبغي أن تناصر الغلام ! .. فيصيح الشيخ : « إنه لم يؤت مواهب كثيرة ، فإذا تركناه يتخلى عن هذه الموهبة ، نتيجة الضن بالتشجيع ، فنسندم على ضياعها قبل أن نبرح هذه الباخرة : اسمع يا (أومش) : سأحتاج غداً إلى بعض أوراق اللبخ ، ويحسن أن تجمعها من الأشجار العالية . إنني في حاجة إليها يا عزيزى ، فهم يعتقدون أنني أجيد العلاج والتطبيب . ولكن ، نعتسا للظب .. إنني لا أفعل أكثر من التحايل على شغل الوقت : .. احرص على أن تفصل الورق جيداً يا أومش :

بالها .. فى أسى - بسلك (رامش) نحوها . وكان ضوء شمس الخريف يكشف البر بمختلف نواحيه ومناظره « والنهر يتخللها كشرط ذهبي متألئ . وأصبحت (كالا) تجد في دورها - كربة بيت - متعة تسرها وأصبحت الأيام في تواليها أشبه بصفحات جديدة في ديوان شعري من وحى المليقة ، دون ما صنعة أو تميم ! .. وغدت تقبل على عملها اليوى - في كل صباح - متحمسة . ولم يعد (أومش) يتأخر عن موعد إقلاع الباخرة . وكان يعود من بعثاته دائماً بسلة مفعمة ، لم تعجز عنوياتها في أية مرة عن إثارة العجب في نفوس أعضاء الجماعة الصغيرة : « يا عجباً .. انظروا القرع اليابس ! .. ومن أين استطاع أن يأتي بهذا القول ؟ .. انظر يا عمه » لقد أحضر لفتاً ملمحاً ! ما كنت أعرف أن المرء يستطيع أن يحصل على مثل هذا في البقاع الريفية ! »

وهكذا كانت تتعالى صيحاتهم في دهشة ، وهم منكبون على السلة ، في كل صباح ! .. ولم تكن الزجاجة تسمع إلا عندهما يكون (رامش) موجوداً ، إذ كان يرتاب دوماً في أن الصبي يسرق .. فكانت (كالا) تصيح : « كيف ؟ .. لقد عددت النقود بنفسى قبل أن أسلمها إليه » ، فيقول (رامش) : « إن هذا يتيح له فرصة مزدوجة للسرقة : سرقة النقود ، وسرقة الخضر ! » .. ثم يدعو إليه (أومش) ويسأله حساباً عما أنفق . وما كانت أرقام الصبي لتتفق مع المقول بطبيعة الأمر : فلو أن المرء صدق بياناته ، لوجد أنه كان ينفق دائماً أكثر من المبلغ الذى عهد إليه به . ولكن هذا لم يكن يزعج الصبي في شيء ، بل كان موقفه كما عبر عنه مرة للشاكر ابارقى : « لو كنت أجيد الحساب »

وكان الصبي يزاد تعلقاً بـ (كالا) ، كلما أسرف (رامش) في الارتياح فيه وتأنيه .. وبمقدم (تشاكرابارتي) ، أصبح فريق (كالا) مستقلاً عن (رامش) ، إذ كان ثلاثهم يعملون ويلعبون معاً ، في تعاطف يربط بينهم . ولقد سرت بعض عدوى ولاء (تشاكرابارتي) لـ (كالا) إلى نفس (رامش) ، ولكنها لم تذهب به إلى درجة الاندماج في فريقها . كان كسفية كبيرة ، لا تستطیع أن ترمسو على الشاطئ وإنما تضطر إلى أن تلقى مراسيها في عرض الماء ، ثم ترقب البر عن بعد ، بينما تجتج القوارب والزوارق الخفيفة إلى الشاطئ بسهولة .

* * *

■ وأوشك القمر أن يكتمل بدرًا ، والباخرة ماضية في رحلتها هـ وفي ذات صباح ، استيقظ ركابها ليجدوا السماء فوقهم مدلممة ، مغلقة بالغيوم ، والريح شديدة الهبوب . وأخذ المطر ينهمر ، والشمس تشرق في توأل وتناوب . ولم يكن في عرض النهر من سفينة أخرى ■ وإن بدت بعض قوارب صغيرة جانحة إلى الشاطئ ، والقلق يبدو في حركات ملاحيا . وكانت الريفيات الثلاثي مبعطن إلى الشاطئ لماء الجرار ، لا يمكن طسويلا . وبين الفينة والفينة ، كانت الرعشات تسري في صفحة النهر ، من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر ، والباخرة ماضية تنشق طريقها ، و (كالا) حريصة على أن لا تدع هذه التقلبات تصرفها عن واجبها في المطبخ . وقال لها (تشاكرابارتي) وهو يتأمل السماء : « قد لا نستطيع أن نطهي الليلة شيئاً ، فيحسن بك أن تعدى طعام العشاء الآن . ألا ضعى (الكشري) على النار ، ربمّا أعد لك العجينة الخبز » .

وهم يفرغوا من فطورهم - في ذلك الصباح - إلا في ساعة متأخرة وأخذت الرياح تشتد عنفاً ، شيئاً فشيئاً ، والموج يعلو وينخفض ، واختفت الشمس وراء جحافل السحب ، قبل موعد غروبها بأمد طويل . فلم ينتبه أحد إلى هذا الغروب . ثم ألقت السفينة مراسيها .

وما لبث الليل أن هبط ، وأخذ القمر يبرز من وقت لآخر خلال السحب المتراكمة . مرسلًا إلى الكون ابتسامة واهنة ! .. وهبت الريح في زوبعة ، ثم انهمر المطر سيلًا دافقًا . ولما كانت (كالا) قد تعرضت للغرق يومًا ، فقد كان من الطبيعي أن يستبد بها الجزع ، وقال (رامش) بطمشها : « لا داعي للخوف يا (كالا) .. إننا في أمان على سطح الباخرة . فاذهي إلى فراشك ولا تلتقي . سأكون إلى جوارك في القمرة الملاصقة . ولن أسلم لنوم فوراً ! » .. وأقبل (تشاكرابارتي) إلى بابها قائلاً : « لا ترنعي يا عزيزتي ، فان تجسر العاصفة اللعينة على أن تمسك بسوء ! » .. ولكن (كالا) وثبتت إلى الباب وصاحت ضارعة : « ألا ادخل واجلس بجانبني .. أرجوك يا عماء ! » .. وتردد (تشاكرابارتي) ، ثم قال : « لقد حان الوقت كي تستسلمي وزوجك للنعاس ، فخير لي ... » واجتاز العتبة وهو يتكلم ، قسرعان ما تبين أن (رامش) لم يكن في القمرة . وإذا ذلك هتف في دهشة : « عجباً .. أين (رامش) يا بؤ ؟ .. ما أظنه ذهب ليسرق بعض الخضر في مثل هذه الليلة العاصفة ! » .. فواته صوت (رامش) صائحاً : « أهلاً .. أهذا أنت يا عماء ! .. أنا هنا في القمرة المجاورة ! »

وأطل (تشاكرابارتي) في القمرة الأخرى . فرأى (رامش) مستلقياً

على القرائن ، ملتقاً في الأغلبية « وقد انصرف إلى القراءة على ضوء المصباح » فقال له : « إن زوجتك الطيبة في قلق من وحدتها . ألا دع كتابك جانباً ، فلن ترهب به العاصفة ! .. تعال هنا ! » . واستولت على (كمالا) غريزة قوية سلبها سلطاتها على نفسها ، فصاحت في انفعال وبصوت غشيق ، وهي تشبث بيده « لا ، لا يا عمه ! .. ولم يصل صوتها إلى أذني (رامش) وسط زفير العاصفة . ولكن (تشاكرا بارتى) سمعه ، فالتفت في عجب واكتتاب . وترك (رامش) كتابه وأقبل على القمرة الأخرى متسائلاً : « ماذا جرى يا عم تشاكرا بارتى ؟ .. يبدو أنك وكمالا ... » ، فقاطعته (كمالا) وهي مغفلة ، دون أن ترفع إليه بصرها : « لا ، لا ! .. إنما سأله أن يأتي فيؤنسني بعلده ! » . ولم تدر في الواقع ما الذي كانت تنفيه إذ صاحت : « لا ، لا ! » ، ولكن الشعور الحقيقي الذي بعث النني إلى لسانها كان يقصد : « تخطئ ! إذا ظننت أنني بحاجة إلى شخص يبدو خوق .. لست بحاجة إلى أحد .. تخطئ ! إذا خلت أنني أطلب رفيقاً ! » .. ونحولت للشيخ قائلة : « إننا في ساعة متأخرة يا عمه ، فخليق بك أن تأوى إلى فراشك . وأرجو أن ترى ما إذا كان (أومش) بخير ، إذ أخشى أن يكون مرتاعاً بسبب العاصفة » : وواتها صوت الصغير من جوف الظلام في خارج القمرة : « لا شيء روعى يا أمه ! » .. وظهر أن (أومش) كان يجلس خارج باب (مولاته) وهو يرتجف ، فس ولاؤه قلبها « وجعلها تحف إليه صائحة : « لسوف تبتل بالمطر يا أومش .. أسرع فقم في قمرة العم ، أيها الولد الشقي ! » . وأسرع

الغلام طائعاً ، يصحب العم (تشاكرا بارتى) ، وقد أنقل قلبه أن وصفته (كمالا) بالولد الشقي ، رغم حبها الرقيقة !

● وسأخا رامش : « هل أونسك إلى أن تنائي ؟ » . فقالت كمالا : « لا ، أشكرك .. إن التعاس يشغل جفني » . وأدرك الشاب حقيقة ما كان يحول بخاطر الشابة ، ولكنه لم يحاول أن يلح عليها . إذ رأى على محياها أمارات الكبرياء الجريئة « ومن ثم عاد في تناقل إلى قمرته : والواقع أن (كمالا) كانت في ذعر وانفعال يمنعها من النوم ، ولكنها أجبرت نفسها على الاستلقاء في فراشها !

واشدت الأنواء باشداد العاصفة ، فسهر الملاحون ، وتوالت تعليمات الربان إلى غرفة المحركات ، إذ أن المرساة لم تعد كافية لأن تشد الباخرة إلى مرسأها ، فأدبرت المحركات ببطء . وما لبثت (كمالا) أن نضت عنها الأغشية ، وخرجت إلى السطح . وكانت الأمطار قد توقفت هنيئة ، ولكن الريح كانت تعوي ك مخلوق تنهال عليه السباط ! .. وكان البدر يطل شاحباً من بين السحب التي كانت تجرى أمام العاصفة كأشباح تنذر بالويل . وكانت ضفنا النهر لا تكادان تظهران . بل إن النهر نفسه لم يكد يظهر للبصر ! .. واختلطت السماء والأرض ، والتربيب والبعيد ، والموتى وغير الموتى ، في كتلة هوجاء ما لبثت أن اتخذت رويداً شكل الجاموسة السوداء التي يركبها ملك الموت .. تلك الجاموسة الرهيبة التي تشهر قرنبيها في هياج !

وعجزت (كمالا) عن أن تحدد كنه الشيء الذي جاش في صدرها

وتضادى رامش الإجابة ، قائلا : « يا له من صباح عاصف ! .. كيف قضيت ليلتك يا عمه ؟ » فقال تشاكرا بارنى : « لعلك تظننى أحمق يا (رامش بابو) ؟ فالواقع أن كلاي يوحى بذلك ، بيد أنى لم أصل إلى هذه السن ، دون أن أتعرض لكثير من المشكلات . ونفذت استطعت أن أحل معضلتها . ولكنك أصعب معضلة قابلتها ! .. فتخرج وجه (رامش) عن الرغيم منه ، ولكنه أسرع بتلك نفسه وابتمت قائلا : « هل من الجرم أن أكون مستعصى الحل يا عمه ؟ .. يبدو أنك تتعجل الحكم على ما لا تفهم . فعندما يلتقى المرء بمرور غريبة ، لا ينبغي له أن ينظر إليها قانطاً - وأن يأس من إمكان حلها ؟ .. فقال الشيخ : « اغفر لى يا (رامش بابو) . قد يكون من الغرور الباطل أن أحاول فهم رجل لا أحقق بنفسه .. ولكن الحياة أحياناً تجمع المسره بأخ يحيل إليه وبألفه من النظرة الأولى . لئنى أستهبد بذلك الرجل ذى اللحية .. بأن باخرتنا فهو ولا بد يعترف أنه يعتبر زوجتك الشابة صديقة عزيزة . سله ، وإذا لم يعترف فتن يكون مسلماً صادقاً . وعندما تكون الأمور على هذا النسق . فمن المؤلم جداً أن تجد نفسك فجأة أمام لغز من الألغاز التى لا سبيل لى فهمها . ولو أنك أطلت التفكير فى الأمر ، لما رأيت فيه ما يؤلمك ! .. فتهد (رامش) قائلا : « لقد أطلت التفكير بالفعل . وهذا لم تألم . ولكن .. سواء تألمت أو لم تألم وسواء جرحت شعورك أو لم أجرحه . فإن الرموز المستعصية تستظل مستعصية .. لأنها من الشيم القاسية للطبيعة ! »

وبدا (رامش) يسائل نفسه عما إذا

وهى تتأمل السماء المعتمة ، والليل الهائج . ربما كان ذلك الشعور هو الخوف .. وربما كان القرح كذلك ! .. كانت فى ثورة الطبيعة قوة وحشية .. انطلاق جامع مس وثرأ خاملاً فى نفسها ! .. لقد بهرها عنف ثورة الطبيعة . ترى ، ضمد من كانت تلك الثورة ١٩ .. ولم تسمع (كمالاً) - فى زفير العاصفة - جواباً واضحاً : كان الجواب مبهماً : كذلك الزوبعة التى هبت فى صدرها ! .. كانت ثورة الطبيعة مجهوداً لا شك فيه لتزيق رباط غير مرئى ، لا شكل له ولا حدود .. رباط من الخلداع ، والوهم ، والغموض ، يمز الأرض - من أسسها - مع صراخ العاصفة الرهيبية : « لا ، لا ، لا .. هذا الرفض البسيط ، الصريح ، هو الذى كانت الزوبعة تصرخه وهى تندفع من أقصى الفضاء اللانهائى إلى جوف الليل البهيم ! .. ترى ما الذى كانت ترفضه ؟ .. ولم تجد (كمالاً) رداً ولا جواباً ، وإنما ظل الصراخ يبدى فى سمعها : « لا ، لا ، لا ، أبداً .. لا ، لا ، لا ، لا ، لا »

الفصل الثلاثون

● خفت وطأة الأنواء فى اليوم التالى ، وإن ظلت الريح عميقة بقوتها ، وأخذ الريان يجيل بصره فى السماء ، وهو غير مستقر على رأى . وقام (تشاكرا بارنى) بزيارة لرامش فى القمرة المجاورة لقمرة (كمالاً) فى الصباح الباكر ، وكان (رامش) لا يزال فى قراشه ، ولكنه لم يكذب براه حتى استوى جالساً . وإذا لاحظ الشيخ أن الشباب قضى ليلته فى تلك القمرة ، وتذكر ما حدث فى الليلة الماضية ، بدأ يشعر بأن فى الأمر ما يريب ، فقال متسائلاً : « لعلك تمت هذه الليلة الماضية ؟ »

في (غازييور) . وكان أول ما جال بخاطره « أن صداقته وكلاما للشيخ قد تفيدهما ، إذا آن لها أن يتخذنا مقرأ في بلد غريب عنهما . ولكنه ما لبث أن شعر بأن للصداقة مع أحد من أهل ذلك البلد بعض المضار ! فلو أن علاقته بكلاما صارت موضع نقاش ، لكان الأمر شاقاً على الفتاة . ومن الأسلم له ولها « أن يعيشا مغمورين في بلد كل أهله أعراب عنهما . فلا يجد أي شخص من الألفة ما يبيع أن يوجه إليهما أسئلة ما . ومن ثم فقد قابل تشاكرا بارقي في اليوم السابق على وصول الباخرة إلى (غازييور) : « ما أظن (غازييور) تناسيتي - من ناحية مهنتي - يا عمه . ومن ثم قررت أن أذهب إلى بنارس ! . وعجب الشيخ لرنة البت التي بدت في لهجة رامش . وقال : « ليس من الحزم أن تغير خططك باستمرار ! .. ومع ذلك . فهل استقر رأيك الآن على الذهاب إلى بنارس ؟ » .. فأجاب باقتضاب : « نعم » .. وسار الشيخ في صمت إلى قمرته ليحزم متاعه . فسألته كمالا في خاتمة : « هل كرهتني اليوم يا عمه ؟ » .. وبادر قائلا في مداعبة : « وما الذي تنظرينه إذا كنا ننشاجر من الصباح إلى المساء ؟ .. إنك لتعلمين أنني لم أسألك بعد ! » .. قالت : « ولكنك تحاشيتني منذ الصباح » . فقال تشاكرا بارقي : « أنجسرين على أن تهينني بتحاشيتك ؟ » .. بل أنت التي توشكين أن تهينني ! » .. فحملت (كمالا) فيه وهي لا تكاد تنفقه . وإذا ذلك قال لها : « ألم يفتك رامش بابو ؟ » .. لقد قرر أن تذهب إلى بنارس . ولم تؤيد (كمالا) البناء ، ولم تنفقه . ولكنها قالت بعد فترة : « لن نستطيع أن نحزم متاعك يا عمه . فدعني أحزمه لك ! »

« وتأم تشاكرا بارقي كثيراً ، لعدم اكتراث كمالا بالعدول عن عشروخ (غازييور) . وإن كان قد قال لنفسه : « لعل هذا أفضل .. ما قصة تكوين روابط جديدة في حياتي ؟ » . وإذا ذلك ظنير (رامش) ليعلم كمالا بتعديل خطته . قائلا وهو يراها ترتب ثياب تشاكرا بارقي : « كنت أبحث عنك .. لن نذهب إلى (غازييور) في الوقت الحاضر يا كمالا . فقد قررت أن أمارس مهنتي في بنارس .. هل توافقتين ؟ » .. فأجابت دون أن تحول بصرها عن متاع تشاكرا بارقي : « لا . بل سأذهب إلى غازييور ! » .. وبهت رامش لرفضها الخامس . فسألها : « وهل مستعيب وحده ؟ » .. فقالت وهي ترمق الشيخ في ود : « لا .. بل سأحجب العلم ! » .. ولم يستغ الشيخ هذا الموقف ، ولكنه قال : « إنك بإبداء مثل هذا التحيز يا عزيزتي . تثيرين غيرة رامش بابو ! .. غير أن كمالا اكتفت بأن رددت : « سأذهب إلى غازييور ! .. » .. وبدا من لهجتها أنها اعتبرت نفسها حرة في أن تفعل ما تشاء ، فقال (رامش) : « حسناً يا عمه .. لنهبط في (غازييور) ! »

وصفت السماء في المساء . بعد معطر طويل . وظل رامش جالس يفكر في ضوء القمر إلى ساعة متأخرة : « لن نستطيع أن نحصى هكذا مدة أخرى .. لسوف يستعصي الموقف إذا تحردت كمالا . ولست أدرى كيف سأقيم معها . ملتزماً بالحدود التي رستها لعلاقتي بها ! .. لم أعد أحتسب أنها ... رغم كل شيء - زوجتي في الواقع والحقيقة . لقد اعتبرتني زوجتي منذ البداية ، ويجب أن يوافق عينا عدم تلاؤف الصيغة الدينية المعهودة . فإن الموت نكاح في رأيها .

ووجد بيننا في تلك الليلة التي قضيناها معاً على الشاطئ الرملي ! .. وفي الحلق أنه أقوى نفوذاً من أي كاهن دينوي ! »

كان يقف بينه وبين كمالا جيش يكامل عدته : فلا بد له من أن يقهر العفيات والشكوك ، والفجول ، والحزى ، قبل أن يقف أمامهما رافع الرأس ! وأنجل إذ تصور المعارك التي كان عليه أن يخوضها ، أي أمل لديه في الانتصار ؟ .. كيف يثبت براءته ويظهر غايته ، إذ يكفل كمالا ، مع أنها ليست زوجته شرعاً ؟ .. وحتى لو استطاع فسوف يشجع الجميع عنه ، ويحرص عن الاتصال به ، فتكون النتيجة وبالا على كمالا .. ولكن ، بعدا للذين وفتردد .. لا حل للموضوع سوى أن يتخذ كمالا زوجة بالفعل ! .. لابد أن هماليني تذكره الآن في الزورار وإعراض ، وسيكون لهذا الإعراض فضل حملها على أن تحبل أي حبيب آخر .. وتهدد (رامش) في أسى ، وهو يلقي بأماله في (هماليني) إلى الرياح !

الفصل الحادى والثلاثون

● صاح (رامش) : « إلى أين ترمع الذهاب يا أومش ؟ » ، فأنجاب الصبي : « سأذهب مع أمي ! » ، قال رامش : « ولكنني دفعت أجراً لرحيلك حتى ينارس ، وهذه غازيبور » .. فقال أومش : « ولكنني لن أذهب إلى بنارس ، ولم يكن رامش يتوقع أن يغدو الصبي عضواً دائماً في أسرته ، ومن ثم استولت عليه الدهشة لثقة الصبي من موقفه .. فسأل كمالا : « هل تنصحب أومش ؟ » ، وكان جوابه : « ليس له سوانا ! » .. قال : « بل له أقارب في بنارس .. فليجاء بهم » ، ولكنه



ونالهم (تشارابارتي) كثيرا لعدم اكتراث (كمال) بالمسئول عن مشروع (غازيبور) ، وإن كان قد قال لنفسه : لعل هذا أفضل ..

يؤثر أن يأتي معنا . والآن . تذكر أنك في بلد غريب يا أومش . فاقبح العلم وإلا فقدناك في الزحام ! » . وبدا أن كمالا أصبحت تتولى وحدها القيادة ، وتعمل عبء تقرير وجهة الجماعة ومقرها . لقد انتهت فجأة الفترة التي كانت تتقبل فيها ما عليه عليها رامش في خضوع . وهكذا ورافقهما أومش دون ما جدال . وقد تأبط حزمة صغيرة تضم ملاسه

وكان المقيم في دار صغيرة من طابق واحد . بين المدينة والحي الأوربي . تقع أمامها بئر ذات فوهة مشيدة بالحجر . وخلفها بستان من أشجار (المانجو) . ويفصل الجميع عن الطريق سياج منخفض زرعت بينه وبين الدار حديقة صغيرة للخصر . تروى من البئر . ودعى رامش وكمالا إلى أن يترلا ضيفين على أهل تلك الدار . حتى يعثرا على دار يستقران فيها . ومع أن العلم كان يصف زوجته - (هاريبايني) . دائما بأنها ضعيفة الجسم والصحة ، إلا أنها لم تكشف عن شيء من هذا الضعف في مظهرها . فقد كان وجهها يضيئ بقوة ونشاطا - رغم تجاوزها أوسط العمر - ولم يدب الشيب إلا إلى شمرات قليلة فوق صدغها . كان من الواضح أن الشيخوخة أصدرت أمرا بضمها إلى رعائياها . ولكنها لم تنفذ بعد .. أما ما كان زوجها يبنى عليه وصفه إياها بالضعف . فكان كله راجعا إلى أنها بمجرد زواجها من تشاكو بارتي وقعت صريعة للسلاوي . ولم يكن من علاج - في رأي زوجها - سوى أن تنتقل من الجو الذي اعتادت العيش فيه . ومن ثم سعى للحصول على منصب مدرس في (غازيبور) . ثم ترح

وأمرته إلى هناك . وكانت (هاريبايني) قد استردت صحتها منذ أمدا طويلا . ولكن زوجها لم يكف عن العناية بها ورعايتها !

ورحب (تشاكو بارتي) بضييفه في حجرة تقع في مقدمة الدار . ثم غاب داخل الدار يبحث عن زوجته . حتى وجدها في ساحة محاطة بسياج . تعرض آتيها الفخارية للشمس . وتطحن القمح . فصباح بها : « ما هذا ؟ إن البوم يميل إلى البرودة . أما كان يحسن بك أن تأتري بشال ؟ » . فأجابته : « ما هذا الذي تقول ؟ برد ! .. إن الشمس تكاد تشرق ظهري ! » . وإذا ذلك تحول تشاكو بارتي قائلا : « ما ينبغي هذا ! .. عانيت أن نقيم لك مظلة تيك من الشمس ! » . فقالت (هاريبايني) : « فليكن . ولكن . قل لي الآن .. أين كنت طيلة هذه المدة ؟ » . فأجاب : « هذه قصة طويلة .. لقد اصطلحت ضيفين . بحث أن نكرمهما قبل أن تفعل أي شيء آخر ! .. ووصف لها ضيفيه بيانا . وما كانت هذه أول مرة يستضيف فيها غرباء . ولكن (هاريبايني) لم تكن ترقب أن تستضيف زوجين فهتفت : « عفوا ! ولكننا لا نملك مكانا يليق بهما ! » . فقال زوجها : « خليك بك أن ترحي بهما أولا ، ثم تدبر أمر مقامهما . أين سابل ؟ » . فأجابته : « إنها تغسل جعم طفلها » .

وما لبث تشاكو بارتي أن نصب كمالا إلى حيث كانت زوجته . فقدمت الشاة طيابيني التحية التي تليق فيها . ومعت العجوز بزوجها ذقن كمالا بإحدى أصابعها . ثم قبلت تلك العجوز

« ألا تراها شديدة الشبه بعزیزتنا بیلو ؟ ... وكانت (بیلو) ابنتهما الكبرى . وتعيش مع زوجها في مدينة (الله آباد) . وعجب تشاكرا ببارني في نفسه من هذه المقارنة . فما كان ثمة أنه شبه بين بیلو وكالا . ولكن هاريبايني لم تكن تفر مطالعاً بتقوى أية فتاة عن انبساط في الجوان أو الشك ! .. أما ابنتهما الأخرى (سايلاجا) فكانت تتبع معبها . وكان وجودها هذا كفيلاً بأن يدحض زعم أمها . إذا ما قابلت جنات بيجان أية فتاة . ومن ثم كانت الأم تقتصر المقارنة على الابنة الثانية ! وقالت هاريبايني : « يسرنا أن نغطي بكما . وإن كنت أخشى أن لا نستطيع أن نوفر لكما الراحة الكافية . فإن أعمال الإصلاح في بيتنا الجديده لم تستكمل بعد . ومن ثم فنحن مضطرون إلى أن نحشر أنفسنا ومتاعنا هنا ! .. والواقع أن تشاكرا بارني كان قد اشترى بيتاً في سوق المدينة . وأخذ يجرى فيه بعض الإصلاحات . ولكنه لم يكن من السعة بحيث يصلح لسكنائهم . ولا خطر بهائم أن ينخدوه مسكناً ! . ذلك ضحكك (تشاكرا بارني) من فرية زوجته . ولكنه لم يشأ أن يفضحها . بل قال لكالا : « لو أنك عارضت في التعرض لأي نعب . لما أحضرتك إلى هنا » . والتفت إلى زوجته قائلاً : « يحسن بك أن لا تبقى بعد الآن في المساحة . فإن شمس الحريق غير مأمونة ! »

■ وإذ خلت (هاريبايني) إلى (كالا) : راحت تحطرها بالأسئلة : « إن زوجك محام ؟ أليس كذلك ؟ .. كم مضى عليه في المهنة ؟ وما دخله ؟ آه . ألم يبدأ بعد في ممارسة مهنته ؟ إذن . فكيف تظفيران

بعيشكما ؟ هل ترك له حالك ثروة كبيرة ؟ ألا تعرفين ؟ يا لك من فتاة عجيبة ! ألا تعرفين شيئاً عن أهل زوجك ؟ كم يعطيك زوجك لنفسك البيت في كل شهر ؟ إن فتاة في مثل سنك يجب أن تشرف بنفسها على كل شيء . ما دامت حماتها قد فارقت الحياة ! .. إن زوج ابنتي (بیلو) يسلم كل ما يكسب ! .. بمثل هذه القذائف من الأسئلة . والتعليقات . أظهرت السيدة المعجوز كالا على عجزها وجبريلها بشون زوجها وأسرته . ففتنت إلى أنها لم تحظ قط بفرصة تتحدث فيها مع راض عن غيبته . بل تبنت أنها لا تكاد تعرف شيئاً عن الرجل الذي صار زوجها ! .. وللمرة الأولى . انبثت إلى غرابية هذا الوضع . ففشيا شعور بالأسى لفكاحه شأنها . وعادت هاريبايني تقول : « أربني أساورت يا حبيبتي ؟ .. إن ذهباً ليس جيداً جداً .. ثم نمتحك أبوك حنياً عند . وبحث ؟ آه . إنه ميت ! .. يجب أن نقتني بعض الحلي على أية حال .. ألم يقدم إليك زوجك شيئاً منها ؟ .. إن زوج (بیلو) يعمل على أن يقنع إليها سواراً عريضاً في كل شهرين تقريباً ! ..

وقفع عليها هذا التحقيق دخول (سايلاجا) . تهر ابنتها (أوى) التي كانت في الثانية من عمرها . كانت (سايلاجا) سمره . دقيقة القسمات . عريضة الجبين . يتم عيها عن حيوية ونفحة دم . وعن نعل وتلون .. وتأملت (أوى) الضيفة لحظة . ثم هضت : « خالتي ! .. ومع أن كالا لم تكن تشبه بیلو . إلا أن الضفة . كانت تضع في مرتبة حاتها كل شيء قبل إليها ! .. ورفعت كالا الطفلة إلى ركبتها . بينما قدمت هاريبايني فسيها إلى ابنتها غائلة : « زوج هذه شبهة محام .

وقد وفد على بلدنا نمارس مهنته . والتقى بأبيك وهو في طريقه عائداً فاستضافهما . وتقابلت أعين الفتاتين . فكانت النظرة عربون صداقة وثيقة . ودعيت ربة البيت تستعد لإكرام الضيفين . فأمسكت سايلاجا بيد آتالا . ودعتها إلى غرفتها الخاصة . ولم يمض وقت يذكر . حتى كانتا تتحدثان في ود والألفة . إذ كان القارق بين عمرهما لا يكاد يكون ملحوظاً . وكانت آتالا تنفوق سها في سعة الأفق ورجاحة الفكر . ولعل ذلك كان راجعاً إلى أن روحها الفردية لم تتعرض لسيطرة حاة . فلم تخفق أذنها يوماً عبارات مثل : « اعقلي لسانك ! » . « ما أترك به ! » . « ما ينبغي للصغيرات أن يكترن من قول (لا) لمن يكبرن ! » . ومن ثم واجهت الحياة بقامة منتصبة . وورأس مرفوح . كتبات قامت ساقه معتدلة . صلبة !

وسرعان ما اندمجت الصديقتان الجديدتان في الحديث . رغم أن الصغيرة (أوى) لم تكف عن محاولة الاستئثار باهتمامهما . على أن آتالا ما لبثت أن فطنت إلى أنها . على الرغم من رجاحة فكرها - لم تكن تعادل (سايلاجا) لباقة . . . ولم تستطع بعيداً عن حياتها الزوجية إلا أن ترسم صورة سريعة . ناقصة . متخيلة من الألوان . لم تقطن قط قبل اليوم إلى حقيقة هذه الحياة الزوجية . وإن كانت قد أحست . بغزيرتها . أنها كانت تفتقد شيئاً . طالما أثار الجليل يكنه فورات من القرد في نفسها ! . وهكذا . ما إن زالت الكلفة بين السنتين . حتى راحت (سايلاجا) تتحدث عن زوجها . ولكن (آتالا) كانت تعلم أنها لا تحصن القصر على هذا الوتر . فما كان لديها ما يمكن أن يقابل

عن زوجها ! . . كانت مادتها في هذا الخيار ضئيلة ! . . وعرفت أن (بيبي) - زوج سايلاجا - كان موظفاً في مصنع للأفيون بغازيبور . وأن تشاكرا بار في باتين - تقع كبراهما مع أخت زوجها . وأن الشيخ لا يقو على فراق ابنته الصغرى . ومن ثم اختار لها زوجها . شاباً قبيحاً . رضى بأن يتولى المنصب الذي حصل له تشاكرا بار في عليه يلقب « الصغرى » . وقبل أن يعيش مع أهل زوجته . وقطعت (سايلاجا) الحديث فجأة . لتقول : « استحي لي بضحك ذائق يا عزيزتي ولن أغيب عنك طويلاً » . وشرعت تذكر في اعتداد أن زوجها قد انتهى من استحمامه . ولا بد لها من أن تقدم له الفلور قبل أن يخرج إلى عمله . فالتفت آتالا في مذاجة : « وكيف عرفت أنه عاد من الحمام ؟ » فقالت سايلاجا : « آه . لا تعيبي لي . كيف تعرف المرأة شيئاً كهذا ؟ » ألا تعرفين وقع خطوات زوجك إذا سار ؟ ! . . وضحكت وهي تفرس خد آتالا مداعبة . ثم رفعت طرف وشاحها إلى كنفها . وجرت (أوى) مغادرة الحجرة . وما أدركت آتالا من قبل أن توضع الأقدام لفة . لكن فبهما ! . . فسرحت بصرها خلال النافذة وهي مسرعة في التذير . . كانت النافذة تشرف على شجرة (جوافة) راح الفحل يحوم حول أغصانها المثقلة بالبراعم .

الفصل الثاني والثلاثون

■ استأجر رامش داراً تقع في بقعة منعزلة على شاطئ نهر (الجانج) وكان لابد من أن يقل متاعه . وأن تقوم بالاجراءات التي يمكنه من أن يدار من مهنته أمام محاكم غازيبور . وكان الأمران مطلبان

زيارة (كلكتا) . في حين أنه كان يوجس من العودة إلى المدينة . فقد كان لأحد شوارعها ذكريات تقض هدوءه باله !! وكانت الظروف قد تجمعت بحيث لم يعد في وسعه أن يموف طويلا في قبول المركز الذي كنت تحسه عليه الأوضاع .. مركز الزوج لكالا . بكل ما يتعلبه الزواج . وإن ظل عاجزه عن مواجهة الواقع يزين له أرجاء الرحلة إلى (كلكتا) !

وكان المكان في دار تشاكرا باري الصغيرة محدودا . وقد أفرس لكالا غرفة في داخل الدار . بينما أقام رامش في الغرفة الخارجية . فلا يكاد كل منهما يرى الآخر . وأسرت سايلاجا إلى كالا بأسنن من هذه الفقرة . فسألها (كالا) : « وغم اهتمامك ؟ » ليس هذا بالوضع البغيض ! .. فضحكت سايلاجا : « يالك من ساذجة قاسية القلب .. إن تخضعيني بهذا التظاهر ! إنني أعرف ما يدور بخالد ! .. فئات كالا : « أهدئي القول .. هي أن يبين بابو لم ينترب منك يومين . فهل ؟ » فصاحت سايلاجا مزهولة : « وكيف ؟ .. إنه لا يجلس البعاد عني يومين ! »

ومضت تروي حكايات عن الفتان (بيبين بابو) بها . وقصت عليها الخيل التي كان يتركها بعد الخطية ليجتز خطوط الاعداء . أي رقابة أبيها وأنها - حتى يتمكن من رؤيتها . وكيف كانت حبيسة تنكشف في بعض الأحيان فيحقق . وكيف أتت بها وجدا .. حين حرمت عليها اللقاءات - عزاء في تبادل النظرات خلال مرآة قاعة الجولس . عندما كان (بيبين) يفد لزيارة أبيها ! .. وأشرق وجه سايلاجا وهي

تروي البهجة التي كانت تملأ قلوبها في تلك الأيام الخالية . ولقد اضطرت (بيبين) في فترة من الزمن إلى أن يلزم عمله طوال تبارده . فمضت (سايلاجا) تصف كيف كان كل منهما يشتاق إلى الآخر . وكيف كان الشاب يتسلل من عمله أحيانا كى يوافيا في البيت ! .. واضطر مرة إلى أن يتغيب في (باتنا) بضعه أيام لأمر يتعلق بأعمال أبيه . فقالت له زوجته : « حل ترى بوسعك أن تذهب إلى (باتنا) فتسكك فيها بمفردك ؟ » .. وأجابها في زهو : « بالطبع ! » . فألت لحت شعورها وأقسمت أن لا تبدى أقل أسى في الليلة السابقة على رحيله . ولكن قسمها ذاب في قبض من الدموع . فلما أعد كل شيء للرحيل في الصباح التالي . أصيب (بيبين) بصداع . وبمرض خفي استلزم إلغاء رحلته . وعاده طبيب فوصف له بعض الأدوية التي عمد وسايلاجا إلى صياها في البالوعة خفية .. ولم يلبث المريض أن شفى بمعجزة غامضة ! .. وبدأ على سايلاجا أن هذه الذكريات حملتها بعيدا عن العالم وهي ترويها . على أنها لم تكد تسمع صرير الباب الخارجي بعد قليل . حتى وثبتت من مكانها . وأعلنت أن (بيبين) قد عاد من عمله .. فلقد كانت - رغم استغرافها - تنصت إلى أنه صوت ينفي بتدوم زوجها !

ولم تكن (كالا) ترى وصف سايلاجا لحياتها الزوجية شربا من الخيال . فلقد خبرت يوما وميض هذا الشعور بالذات . وكانت تحس في بعض أوقات الشهور الأولى لإقامتها مع (رامش) : بوتر يدق في أعماقها . ويوحى إليها بلعن يحلو لغز الرابطة الزوجية . وعندها انطلقت من أسوار المدرسة وعادت إلى رامش . وكانت ترويها - فتمت من نسوة

روحية - فتشعر بالحنن الغريب ينبعث من أعماقها . فلما سمعت أفاضيل صايلاجا ، بدأت تفهم بعض معاني تلك المشاعر . على أن تجاربا هذه لم تكن من العمق أو الثبات بحيث تخلت أثراً باقياً . ولم يكن بينها وبين رامش ما يقاس على هذه اللفظة التي تربط بين صايلاجا وبين . فإثنا هذا الفراق الموقوت الذي ضرب بينها وبين رامش أوى أسى في أعماقها ولا استطاعت أن تتصور أن يفكر رامش في حيل للتسلل إلى (الحرم) والغفر بنظرة منها !

■ وشعرت صايلاجا بخرج حين أقبل يوم الأحد . فقد سبق عليها أن تترك صديقها الجديدة وحيدة طول يومها ذاك . ولا وجدت من القوة ما يمكنها من أن تفسح بهذا اليوم الوحيد في الأسبوع . فتحرم نفسها حبة بيبي . وكانت تدرك أنه لا يوجد ثمة اتصال بين كمالا ورامش . رغم أنها يتحان تحت سقف واحد . ومن ثم تمت لو توفق إلى الجمع بينهما ! .. ولم تعتمد على استشارة والديها . ولكن تشاكرا بارقي لم يكن في حاجة إلى من يستشير . إذ أعلن عن عزمه على أن يقضى ذاك اليوم في المدينة بسبب أعمال خامة . وقال لرامش وهو موشك على الرحيل - : إن بوسعك أن يوصد الباب الأمامي للدار . وتعهد أن يرفع صوته لتسمعه ابنته . وهو موقن من أنها لن تعمى عن غرضه !

وقالت صايلاجا لكمال بعد أن اغتسلتا في النهر : « حيا يا عزيزتي . لنجفف شعرك وننمقه » .. وانكبت على هذه المهمة . فنمتت شعر صديقها بشكل أليق . ثم دار بينهما جدال بشأن الثوب الذي يحسن

بكمالا أن ترتديه . إذ أصرت صايلاجا على أن يكون زاهي اللون . وكمالا في حيرة من سر هذا الإصرار . وإن اتصاعته له إرضاء لصديقته . وما أن اتبوا من الغداء . حتى همست (صايلاجا) في أذن زوجها بكلمات . فلم يلبث أن بارح المكان متعللاً بحاجة ما . ونحولت صايلاجا تغري كمالا على أن تزور زوجها في غرفته الخارجية . ولم تكن (كمال) قد أبدت أى تلهف لروية (رامش) . إذ لم يعلمها أحد أن في مسكنها هذا خروجاً على العرف . ولا كان في درايها المحدودة بالمسائل الجنسية ما يثبها إلى شذوذ تصرفها .. ومع ذلك فلما أعرضت عن الانصياع لإغراء صايلاجا ! .. وخيل إلى هذه الأخيرة أن كبرياء الفتاة تمنعها من أن تكون الساعية إلى زوجها . فانتهزت فرصة استسلام أمها للقيولة . وأوحت إلى بيبي بأن يذهب إلى (رامش) فيذكر له أن (كمال) تريد أن يوافيها في داخل الدار !

وكان رامش مستقياً على ظهره . على سحابة في الغرفة الخارجية . وقد نثى إحدى ركبتيه في وضع رأسى ، وأسند إليها الساق الأخرى . ومضى يقرأ صحيفة (البايونير) . فلما سمع الرسالة . ذهلى ! .. كان قد عقد العزم على أن يجعل من كمالا زوجة له اسماً وفعلاً . ولكن الفراق الذي حال بينهما في تلك الدار رده إلى تروده القديم . ولقد كانت تراوده رؤى السعادة التي تنتظره إذا ما غدت كمالا شريكة حقة لحياته ولكنه أحس في تلك اللحظة بأن تحطم الجليد الذي اكتشف علاقاتها ليس بالأمر اليسير ! .. ومع أن الرسالة التي حملها إليه بيبي أوحت إليه أن (كمال) ربت رغبت في محادثته في أحد الساعات . إلا أنه هرجعن

الانفعال العاطفي نغمرت قلبه ، فطرح الصحيفة جانباً . وتبع (بيبي) خلال السكينة المخدرة للأعصاب : التي نشوب فترة ما بعد الظهر في فصل الخريف . وأحس بذلك الانفعال الذي يغشى العاشق وهو يسعى إلى حبيبته !

وكانت (كمالاً) قد اطمأنت إلى أن سايلاجا عدلت عن إلحاحها . وخلت إلى زوجها ، فجلست على عتبة باب غرفتها تتأمل الحديقة . وكانت أحاديث سايلاجا قد فحنت قلبها للحب دون أن تظن . فتحدثت تصاعداً من صدرها - بين الحين والحين - زفرة تثير أشجانها . كما تثر القسمة الدافئة أوراق الشجر !.. وفجأة أقبل رامش !.. وانجلت إذ أخرجتها صيحته الخافتة من استغراقها : « كمالا ! .. وجرى الدم في عروقها . وهي التي لم يعتوها الخجل مرة أمامه . فنكست رأسها . وبست له في زينتها . وفي اعتدادها بنفسها . مخلوقاً جديداً . فإذا به يقع تحت سحرها !.. واقترب منها في بطء ، وتردد لحظة أو اثنتين قبل أن يقول في لثافت : « هل استدعيتي يا كمالا ؟ .. ودهشت لسؤاله ، فتهتفت : « لا . بكل تأكيد . ما دعوتك . ولماذا أدعوك ؟ » . قال : « لو أنك أرسلت في طلبي بالفعل . لما كان عمك جرماً ! .. فكررت في تحمس وتأكيد : « ما دعوتك مطلقاً ! .. ولكنه قال : « فليكن .. لقد جلست دون دعوة . وما أراك ستطرديني خيراً مني ؟ » قالت : « سيصرفون أنك جئت فيغضبون .. أرجوك .. انصرف فوراً ! .. فأمسك بيدها قائلاً : « حسناً .. إذن . تعال إلى غرفتي . فليس من سواي هناك ! .. ولكن كمالاً انتزعت يدها وهي ترتجف . وهربت إلى غرفة أخرى !

وأدرك (رامش) ما حدث ، وفهم أن إحدى نساء البيت دبرت الخطة . فعاد إلى حجرته وقد تورطت أعصابه . واستلق في مرقده « مسكاً بالصحيفة » ، وقد راحت الأفكار تتوالى على رأسه . هذا بينما كانت (سايلاجا) تفت مدهولة . وقد رأته (كمالاً) منكفئة على أرض غرفتها . ووجهها بين راحتها . وهي منخرطة في البكاء . وراحت تهف في جرح : « ماذا بك يا عزيزتي ؟ .. ماذا جرى ؟ .. لم تبكين ؟ .. فصاحت (كمالاً) : « آه . لماذا أرسلت له ؟ .. كان خطأ لا يغفر ! .. فقد أدركت أن أحداً لا ينسر على مثل هذا التدبير سوى صديقها . وإن كانت تروق - في الوقت ذاته - من أن أحداً لا يعرف على الإطلاق سر الأسى الذي خابنها في الأيام السالفة ! .. كانت تبني لنفسها قصوراً في الهواء . وقد أوشكت أن ترسم آخر خطوطها ، عندما أقبل رامش . ولو أنه تسلل برفق إلى المنظر الذي كانت تراه بعين الخيال . لمضى كل شيء على ما يرام . بيد أن دخوله المفاجئ وهو مطمئن إلى أنها استدعته . جعله بصطدم بتصور الأحلام فيهدمها ! .. وذكرته محاولته إبقاءها سبيبة المدرسة خلال العطلة . وإهماله شأنها على الباعرة . وتراحت في ذهنها الذكريات . ثم إن الود والألفة شيء « ويجرد تلبية الدعوة شيء آخر ! وما كانت قبل قدومها إلى (غازيبور) . قد فطنت إلى أن بين الأمرين عالماً واسعاً .. ولكن (سايلاجا) لم تكن لتستطيع أن تفهم هذا . كان فرق إدراكها أن تلمس وجود حاجز حقيقي بين رامش وكمالاً . على أنها رفعت رأس كمالاً في جهد ، وأمسكتها إلى حجرها . وأخذت تقول : « يا عزيزتي ..

هل تمسا عليك (رامش بابو) في القول...؟ لعله ويحك لأن زوجي دعاء إليك.. كان خليفاً بك أن تذكرى له أنتي المدينة ! » .

— لا . لا . لا .. إنه لم يقل شيئاً عن هذا ! ولكن . لماذا علمت على حضوره ؟

— كان خطأ مني . فاغفر لي !

واستوتت كمالا جالسة فجأة . وطوقت عنق سايلا بذراعيها . وهنت : « ألا اسرعي الآن يا عزيزتي ، فلا بد أن يبين بابو قد ضاق ذرعاً بغيبابك ! » . وفي تلك اللحظة . كان رامش يسرح بصره في صحيفة (البايونير) في تكاسل . ثم اعتدل جالساً . وألقى الصحيفة جانباً وقال لنفسه : « كفى .. سأذهب غداً إلى كلكتا . فأبجز أعمالي .. فإني لأزداد شعوراً بقسوتي كلما تأخرت في جعل كمالا زوجة حقيقية لي ! »

الفصل الثالث والثلاثون

■ كان (رامش) قد عقد العزم على أن يتعجل إنجاز أعماله في (كلكتا) . وعلى أن لا يضع قدمه في حي (كالوتولا) مطلقاً . ومن ثم نزل في داره بجي (دار دجيبورا) . بيد أن أعماله لم تكن تشغل من نهاره سوى وقت قصير . فكانت بقية ساعات اليوم الأربع والعشرين تمر متفائلة . محضة . ولم يكن يوسعها أن يواجه معارضة القداى . بل إنه اتخذ الحيلة كي يتفادى فرص الالتقاء بهم في الطريق . ومع ذلك . فقد وجد أن عودته إلى مسرح أشجانه القديمة قد أحدث أثراً في نفسه . كان جمال كمالا الياقة قد ألقى عليه سمه . تحت سماء الريف المترامية .

وفي هذوقه الوداع . على أن هذا السحر انجاب عنه في المدينة . وحاول الشاب في مسكنه بذل دجيبورا أن يمثل مسورة الفتاة في حشها . ليحل منها عيبه . ولكن خياله لم يستجب لرغبته . وكان يكرر الأقسام والعهود أن لا يولى (هنالتي) أي اهتمام . ولكن ذكرها كانت تبعث في ذهنه . وتزداد إشراقاً . طيلة النهار والليل . وبات عزمه على نسيانها يضاعف من إلحاح ذكرها عليه !.. ولو أن رامش تمكن من أن يفرغ من أعماله سريعاً . لتعجل بالعودة إلى (غازيبور) . ولكن كل صغيرة كانت تتطلب إجراءات مزعجة . على أنه ما لبث أن نقض بشبه ذات يوم : وقرر الرجوع إلى (الله آباد) . ومنها إلى (غازيبور) . بيد أنه علل نفسه بأن لا ضمير عليه — والحال هذه . إذا قدم بربارذ مختلطة لحي (كالوتولا) قبل أن يبرح (كلكتا) !

وإذ انتهى إلى هذا القرار . جلس فكتب خطاباً لهنالتي . عرض فيه لكل علاقائه بكمالا . بإسهاب وتفصيل . واستطرد إلى ما اعترمه من أن يتخذ تلك المسكنة — التي لا حول لها ولا نصير — زوجة حقيقية له . إذا ما عاد إلى (غازيبور) . كانت رسالة وداع فضيقض فيها عما يصدره خبيثته السابقة . قبل أن يترق عنها فراقاً نهائياً كاملاً . ثم أودع الرسالة طرفاً أغلقه . بيد أنه لم يكتب اسم المرسل إليها في الخارج . ولا في الداخل . فقد كان مطمئناً إلى أن يوسعها أن يجد بين خدم (أراد بابو) أئواناً . إذ كان لطيفاً مع كل من كانوا يحيطون بهنالتي . كما كان يتنزه أتمه الأسباب ليغمرهم بعطايده . ومن ثم قرر أن يسي إلى هناك بمجرد هبوط المسافر . فيحارون أن يحفل بنظرة

إلى همنالتي عن بعد ، ثم يسلم الرسالة إلى أحد الخدم ويوصيه بأن يعطيها في الخفاء إلى الفتاة ، فيكون هذا آخر ختام للروابط القديمة التي كانت بينهما ! .. وبالفعل ، غادر مسكنه مع عجيء الليل . حاملاً رسالته . وتسفل — بأوصال مرتجفة ، وقلب مضطرب — إلى شارع انذكريات التي لا تنمحي : فألقى باب الدار مغلقاً ، والتواخد موصدة . والمسكن مهجوراً . يرين عليه الظلام . وطرق الباب .. وعند الطريقة الثالثة أو الرابعة ، رغب الحارس المزلاج وفتح له . فبادره رامش قائلاً : « أهذا أنت يا سوخان ؟ » .. وواتاه الجواب : « أجل . أنا سوخان » . قال رامش : « إلى أين ذهب مولاك ؟ » .. فأجاب الحارس : « رحل إلى الريف مع السيدة ابنته لتغيير الجو ! » . قال رامش : « وإلى أي بلد ذهبا ؟ » ، فأجاب : « لست أدري » . فسأله : « وحل رافقهما أحداً ؟ » وأجاب الحارس : « أجل ، رافقهما نالين بابو ، . ففتفت (رامش) : « ومن يكون نالين بابو ؟ » .. قال الحارس : « لست أعرف ! » . على أن رامش ما لبث أن عرف من (سوخان) أن نالين هذا كان شاباً أكثر من التردد على الدار في الفترة الأخيرة . ومع أن رامش كان قد تخلى عن كل أمل في همنالتي إلا أنه أحس بكراهية نحو (نالين بابو) هذا !

وعاد يسأل الحارس : « وهل كانت السيدة الشابة في صحة طيبة حين رحلت ؟ » .. فأجابه : « آه . أجل .. كانت بخير ! .. » وكان الحارس يقصد بجوابه أن يطمئن (رامش) ويطيب خاطره ، ولكن السماء وحدها هي التي عرفت إلى أي مدى أخطأ حدس سوخان ! ..

ورغب رامش في أن يجوس خلال غرفات الدار ، فحصل الحارس مصباحاً من مصابيح البترول . يتصاعد منه الدخان . وتقدمه صاعد السلم ، وأخذ رامش ينتقل من غرفة إلى أخرى وكأنه طيف . وكان يتوقف بين آن وآخر . ثم يجلس على أحد المقاعد . أو إحدى الأرائك التي كان يعتز بها . كان كل شيء على عهده به . فليس من جسيدي سوى هذا الدخيل : (نالين بابو) . الذي ظهر فجأة من حيث لا يدري رامش ! .. وما خطر له أن الطبيعة تكره الفراغ . ولا تحتمل أن ترى فراغاً دون أن تملأه ! .. وتأمل رامش النافذة التي وقف عندها إلى جوار همنالتي في ضياء شمس الخريف الآفة . وقد انسجم قلبها في وجيب واحد ! .. إن الشمس لا تزال — ولا بد — ترسل فلول أشعتها خلال هذه النافذة . وهي راحلة في كل يوم .. ولكن ثمة شخصاً آخر خلف رامش . في اللوحة التي تستقر في إطار النافذة عند الغروب ! .. أفلا تقف روح الماضي بين الشخصين اللذين يقفان في النافذة . تحفر بينهما وهي ترفع إصبعها منذرة ؟ .. ونازت في صدره الكبرياء الجريحة .. وبدلاً من أن يذهب إلى (الله آباد) في اليوم التالي رحل مباشرة إلى (غلايبور) !

الفصل الرابع والثلاثون

● كان رامش قد قضى في (كلكتا) شهراً تقريباً ، وهو عمر طويل لدى فتاة في سن (كالا) . بلغت أوج مرحلة المراهقة . وأوشكت على النضوج . فإن أبتها لم تكده تنقب من سباتها . حتى تفتقت عن إدراك كامل . تماماً كما يحدث عندما يتقلب

الشمس . ولعل أنوثتها ما كانت تفتح يمثل هذه السرعة . لولا توثق صلاتها بسايلاجيا . وما كانت تضيقه عليها شخصية هذه الفتاة من نور ودفع . وفي تلك الأثناء . كان تناعس (رامش) . والحاح (سايلاجيا) قد حملا (العم) على أن يتولى الحفاظ الأثاث اللازم للمنزل الذي استأجر على ضفة نهر (الجانيز) في أقصى أطراف المدينة . كما استأجر من الخدم العدد الكافي للعناية بالبيت . فلما عاد رامش إلى (غازيور) بعد غيابه الطويل . كانت كمالا قد أطمأنت إلى أن قد أصبح لها - أخيراً - بيت !

ولم يعد الشبان يثقلان على كرم (العم) ! . وكان ثمة قضاء كاف لزراعة حديقة حول البيت . كما كان ثمة طريق ظليل يمتد بين صفين من الأشجار الطويلة . وكان النهر قد انخفض إلى المستوى الشتوى . وامتدت بين البيت وضفة النهر . مساحة من الأرض الوالية المنبسطة . قامت فيها بعض سيفان القصب . تحتلها أحواض البطيخ . وعند الحافة الجنوبية لسياج البيت . كانت تقوم - ناحية البر - شجرة ضخمة . أحيطت جنودها بمنصة حجرية . وكانت الدار وملحقاتها قد ظلت خالية من السكان أمداً طويلا . فهدت عليها علامات الإهمال . ولكن كمالا لم تشفق من هذه الحال . بل سرها أن تقبوا مركز ربة البيت . ومن ثم بدا كل شيء لعينها جميلا . ولم تضيق وقتاً في تقرير ما ينبغي أن تستخدم من أجله كل حجرة . وما يزرع في كل ركن من الحديقة واستشارت (العم) فيما يتخذ من إجراءات لإصلاح أرض هذه الحديقة . كما أشرفت بنفسها على إنشاء فرن في المطبخ . وعلى إجراء

تعديلات في غرفة اختزان المؤن . وقضت يوماً بأسرها في التنظيف . والخس . والمسح . دون أن تكل أو تهن !

على أن التدبير المتري يظهر جمال الأنوثة في أبهى وأملح صورة . فقد كانت كمالا تتمثل لعيني رامش - أثناء عملها . كعصفور انطلق من قفصه . كان وجهها المتألق . ومهارتها المشحودة . بضميان عليها أحاميس جديدة من الانبهار والسرور . كانت هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها رامش كربة بيت . فلاحث وكأنها تبرأت عرش ملكها فأضاف هذا إلى جمالها مسحة من الاعتزاز . وسألها : « ما الذي تفعلينه يا كمالا ؟ .. لسوف تهكين قواك ! » .. وتوقفت (كمالا) عن عملها لحظة . ونظمت إليه بابتسامة هائلة . ثم قالت : « لا تخف . فأنا بخير » . ثم استأنفت العمل . وقد ازددهاها اهتمام رامش بها . وعاد هذا إلى الحديث مفتوناً : « هل تناولت العطور يا كمالا ؟ .. » فأجابت : « بالطبع .. منذ ساعات ! » .. وكان رامش يدرك هذا . ولكنه لم يتالك أن يسأل ليبدى اهتمامه . ومرة أخرى . عاد يقول : « كى يبقى حبلى الحديث متصلا : « لماذا تفعلين كل هذا بنفسك يا كمالا ؟ .. هلا تزلت في عن بعض الأعمال ؟ » . والذين يجيدون العمل . يعملون عادة إلى إساءة الفطن بمقدرة سواهم . ومن ثم ابتسمت كمالا وأجابت : « لا .. ما هذه بأعمال الرجال ! .. » فقال : « ما أكثر احتيالننا - معشر الرجال - إذ نتجاوز عما يوجه إلى جنسنا من إهانات . ومع ذلك فأنتم لم تتجسسى عن استخدام العم . لماذا تريينى بعليم النفع ؟ » .. قالت : « لست أدري . ولكنى لن أتألك نفسى .. »

المطبخ من آثار الدخان ! .. يحسن بك أن تخرج من هنا - فإني أثير غباراً كثيراً ! » .. ولكنه قال : « إن الغبار لا يفرق بين الناس - فهو يعاملك كما يعاملني - على قدم المساواة ! » - فقالت : « إنما أحس أنه لأن واجبي يقتضي الاحتمال - ولا أرى ما يدعوك إلى ذلك ! » .

ونخفض رامش صوته - حتى لا يسمعه الخدم وهو يقول : « أحب أن أشاركك كل ما تضطرين إلى احتماله - عملاً كان أو أى شيء آخر ! » .. فأثار قوله حمرة واهنة في خديها - وبدلاً من أن تجيب - تحولت جانباً ونادت : « أومش - يحسن بك أن تلقى ملء ذئب آخر من الماء في هذه البقعة - ألا انظر إلى الغبار المتراكم .. ناولني المكينة » . وشرعت تكس بقوة - وصاح (رامش) وقد ساءه أن تضرب بمثل هذه المهمة : « ما الذي تفعلين ؟ » - فأجابه صوت من خلفه : « عجباً يا رامش بابو .. أى ضرر في العمل ؟ .. إنكم معشر الذين تلقوا ثقافة إنجليزية - تشددون بالحديث عن المساواة - وإذا كنت ترى الكس عملاً مزرعياً - فلماذا تكافئ به الخدام ؟ .. إنني لم أصب ما أصبت أنت من تلاميذ - ولكنك لو سألتني رأيي لقلت لك إن كل قشة تحول في نظري إلى شعاع من الشمس - كلما رأيت امرأة فاضلة تمسك بمكينة ! » . ثم التفت إلى كامالا قائلاً : « لقد أوشكت أن أفرغ من إصلاح حديقتك يا عزيزتي - فقبلك الآن أن تعيني في أحواض الخضر » .. فقالت وهي ماضية في عملها : « لحظة واحدة من فضلك يا عمه - فإني لم أفرغ بعد من هذه الحجرة » . وإذا انتهت من تنظيف الحجرة - رفعت التساع

الذي كانت تضعه على وجهها وتربط طرفيه إلى وسطها - ثم انهمكت في الحديث مع (العم) عن مواقع أحواض الخضر .

وانقضى النهار سراعاً - ومع ذلك فإن البيت لم يستكمل النظافة التي ترضى عنها كامالا - فما كان من السهل إزالة آثار الإهمال الطويل - ومن ثم فقد كانت لا تزال ثمة غرف لا سبيل إلى تعميمها دون تنظيف وتهوية - ومن ثم لم يجد رامش وكامالا بداً من قضاء ليلة أخرى في دار (العم) - الأمر الذي ساءهما - فقد كان الشاب يصبر إلى أن توافيها أولى ساعات المساء وهما في دارهما الصغيرة - وكان يرى بعين الخيال كامالا تبسم في استحياء وهي إلى جواره - تحت ضوء المصباح - وقد راح يقضي إليها بما في فؤاده - ولما رأى أنه لا تزال أمامهما ثلاثة أيام أو أربعة - لم يشأ أن يرجئ قيد اسمه في محاكم الإقليم - ومن ثم رحل إلى (الله آباد) لهذه الغاية - في اليوم التالي .

الفصل الخامس والثلاثون

● ورحل العم كذلك إلى (الله آباد) بعد يوم أو اثنين - كي يزور ابنته الكبرى (بيدو) - وفي صباح يوم رحيله - دعت كامالا صديقتها سايلاجا إلى تناول الغداء معها في البيت الجديد - فلحقت بها الفتاة بعد أن قدمت لبيدو فطوره - وودعته عند انطلاقه إلى المدينة - وانهمكت الصديقتان في العمل - وبمساعدة (أومش) أعنتا الغداء بخوار الشجرة الصخمة - ثم جلستا تحتها يتحدثان بقية نهارهما - وبدا - لكالا - النسيم العليل - وأشعة الشمس التي خففت ظلال الشجرة من حديتها - أروع إيطار أحاط بخديهما - وقيل العصر - فاجتمع بهما

إذ كان زوجها وشيك العودة من عمله - فسألها كمالاً : « ألا تستطيعين أن تتحولى عن عادتك هذه مرة ؟ » .. ولكن سايلاجا اكتفت بالابتسام وهزت رأسها وهي تداعب ذقن كمالا . وقبل أن تنصرف ألححت على كمالا بأن تعود إلى دار (العم) قبل أن يهبط الظلام .

وما لبثت كمالاً أن فرغت من العمل والشمس لا تزال عالية فوق الأفق - فأحككت شالاً حول رأسها وكشفتها ، واستمرت تحت الشجرة الكبيرة . تتأمل الشمس في انعقادها للمغيب خلف ضفة النهر . حيث كانت ترسو بضعة قوارب للصيد . وقلاعها ما تزال تشرق نحو السماء . وأقبل (أومش) بنهبها إلى أن القسق يقترب . فهبت واقفة . وقال الصبي : « لقد أرسل العم تشاكرا بارثى عربة لتقلك » .. فولجت الدار تلتى نظرة أخيرة قبل أن تغادرها . وكانت في القاعة الكبرى مدفأة على الطراز الإنجليزي - يمكن إيقاد النار بها للاستدفاء في الشتاء . وعلى الرف الذي يعلوها - كان ثمة مصباح يترولى مشتعلاً . ولححت كمالاً وهي نهم بالانصراف - ورقة على حافة المدفأة تحمل اسمها يخط رامش فسألت أومش : « من أين هذه الورقة ؟ » . فقال الصبي : « كانت ملتفة في ركن من حجرة السيد - فالتقطتها عندما كنت أكنس الأرض » وتناولت كمالاً الورقة وشرعت تقرأها . فإذا بها الخطاب الذي كان رامش قد أفضى فيه إلى هنالكي بكل ما في صدره .. ولأيد أنه أمسقطه بإهماله العجيب ! .. وقرأت (كمالاً) الخطاب بإمعان . وأخيراً سألتها (أومش) : « لم تففين هكذا صامتة يا أماء ؟ » .. إن الظلام يشتد ! .. وكان المرء خليقاً بأن يسمع زنين اللبوس لفرط السكون ! .. وأفرغ

شكل كمالا النسي . فتهف : « ألا تسمعيني يا أماء ؟ » .. يجب أن تنصرف ، فقد تأخرنا .. ولكنها لم تحرر راساً . حتى أقبل خدم (العم) يلبثونها بأن العربة قد طالت انتظارها !

الفصل السادس والثلاثون

■ قالت سايلاجا لكمالاً حين عادت هذه إلى الدار : « أليس بخير اليوم يا عزيزتى ؟ » .. هل تعانين صداماً ؟ .. فأجابت كمالاً : « لا ، أنا بخير .. أليس العم ؟ » .. قالت الأولى : « لقد أوفدته أبى إلى (الله آباد) ليزور أختى . إذ أن سميتها لم تكن على ما يرام في الفترة الأخيرة » .. وعادت (كمالاً) تتسائل : « ومتى يعود ؟ » .. فأجابت صاحبها : « سيغيب أسبوعاً على الأقل . لقد أسرفت في إلهالك قواك بالعمل في بيتك طوال اليوم يا عزيزتى . فأنت تلوحين جد متعبة . ألا تناولي عشاءك مبكراً . ثم أسرعى إلى فراشك . » .. وكان أشد ما يخفف عن كمالا - في تلك المضايق - أن تتركز إلى سايلاجا . وتفضى إليها بأمرها ولكنها شعرت بأن هذا مستحيل . فما كان ليغريها شيء على أن تعترف .. ونسايلاجا بالذات - بأن الرجل الذي كانت تعتقد زوجها . لم يكن زوجها قط ! .. ومن ثم احتبست نفسها في غرفتها ، وعادت تقرأ خطاب رامش على ضوء مصباحها . ولم يكن في الخطاب أثر لاسم . أو مكان المرسل إليه . ولكن ما ورد في الرسالة ثم يتلاءم عن أنها كانت موجهة إلى امرأة . وإن هذه المرأة كانت مخطوبة لرامش . وأن علاقة الشاب بكمالاً أدت إلى قصص هائلة . ثم إن رامش لم يخف في رسالته أنه كان يحب تلك المرأة . فليعلم القارئ أنها

علاقتها إلا من أجل تلك الباقية كمالا . التي ارتبط حفظها بحفظه بطريقة عجيبة ! .. وأخذت كمالا تذكر كل صغيرة من حياتها مع رامش . منذ لقائهما الأول على شاطئ الجزيرة الرملية حتى وصولها إلى (غازيبور) . فإذا ما كان يبدو لها مبهما . يتجلى بوضوح . لقد أدرك رامش منذ البداية أنها لم تكن زوجته ، وكان يرهق فكره بحثا عن وسيلة للفلاص منها . في حين أنها حسبته ، بكل اطمئنان ، زوجها وكانت تتأهب — دون ما حياء — لأن تستقر معه في معاشرة تمتد بامتداد العمر ! .. ونفذ الخزي إلى قلبها وكأنه خنجر . وتحت — إذ عاودتها الأحداث العديدة التي جرت بينهما — أن تنشق الأرض فتبتلعها ، لسوف يعلق بها العار طوال عمرها .. لا مفر من وصيته !

وفتحت الباب في خفة . وانطلقت إلى الحديقة الخلفية للمنزل . كانت سماء الشتاء المعتمة تنجم فوقها كأنها قبة من رخام أسود لا تشوبها قطعة من السحاب أو الضباب . بينما كانت النجوم ترصعها متألثة ، وفروع إحدى أشجار المانجو تقوم كشبح في الظلام . ولم يتفتح أمام بصيرة (كمالا) مهرب من تعاستها هذه ، فهاكت على الحشائش الندية . وجلست كتمثال جامد . دون أن تدرك دمة . أو تطلق زفرة ! .. ولم تفتن إلى مرور الزمن . ولكن البرد ما لبث أن تسلل شيئا فشيئا إلى قلبها . فارتجفت جوانحها . وعندما يده القمر الظلام في النهاية . وبدا خلف أشجار النخيل الساكنة ، نهضت في بطاء وآبت إلى غرفتها . فأوصدت الباب خلفها . وعندما فتحت عينها في الصباح . رأت (سايلاجا) تنصب إلى جوار سريرها ، فهبت لقورها . وقد

أعجلها أن تتأخر في نومها . وقالت (سايلاجا) : « لا تنهض يا عزيزتي . بل خير لك أن تعودى إلى النوم فترة أخرى ، فأنت لا تلوحين في صحة جيدة . إنك تبدو منهكة القوى ، وهناك حالات ذاكسة تحيط بعينيك . ألا أتيتني يا عزيزتي بما بك ؟ » . وجلست إلى جوارها . ثم طوفت عنقها بذراعيها . فراح صدر كمالا يتدج بقوة . ولم تستطع أن تكبح دموعها . فأخضت وجهها في صدر سايلاجا وانطلقت تمجش باليكاء . والثابتة تضمها إليها دون أن تحاول مواساتها وما لبثت كمالا أن تخلصت من عناق سايلاجا أخيرا ، فسحبت معها ، وبدأت تضحك في خجل . فقالت سايلاجا : « كفى ، كفى ! .. إنك أكثر من عرفت من النيات نكمتا ، ولكن لا تظني أنني لا أعرف قيم كل هذا الحزن . فليست من السذاجة إلى هذا الحد ! .. أأنتيك به ! .. إن رامش بابو لم يكتب لك خطابا واحدا منذ رحيله إلى (الله آباد) ولذلك فأنت مستاءة ، وإن كانت كبرياؤك تمنعك من الجهر بهذا الاستياء . على أنك خليفة بأن تذكرى أن لديه مشاغل كثيرة ، وأنه عائد بعد يومين . ومن ثم ينبغي أن لا يعزرك أنه لا يجد وقتا للكتابة ، خاصة وأنت تعلمين أنه لن يغيب طويلا . يالك من حقاء ! .. ولكن » أتعرفين يا عزيزتي أنني . رغم نصحي لك . ما كنت لأفعل إلا ما تفعلين لو كنت في مكانك ؟ .. إن النساء يكنين للتواقة ! .. ولكن ، ما أن تشبعي بكاء ، تعودى إلى الابتسام . حتى تنسى كل شيء ! .. » وضمت كمالا إلى صدرها . وهي تسلم قبورها : « ما أحسبك ألا تشعرين بأنك لن تصفحي أبدا عن رامش بابو . أليس كذلك ؟ » .

قالت كمالا : « أجل .. هذا حق ! .. قربت سايلاجا خدنها قائلة :
« هكذا حدثت . ولكننا سنرى ! »

وفي ذلك اليوم نفسه ، أرسلت سايلاجا خطاباً إلى أبيها في (الله آباد)
تكاشفه فيه بخون كمالا لأن رامش لم يكتب إليها . فبادر (العم) إلى لقاء
رامش . وقرأ عليه طرفاً من خطاب ابنته . ثم ألقى عليه محاضرة قاسية .
وما كان صمت رامش راجعاً في الحقيقة إلى عدم اكترافه متها كمالا .
وإنما لأن حيرته كانت تتضاعف كلما ازداد تفكيراً في الموقف . لم
يكن إهمالاً . وإنما كان حيرة ! وقد دعت هذه الحيرة إلى أن يثلكا
في (الله آباد) . ثم جاء خطاب سايلاجا . فأشعره بأن كمالا كانت
تشتد في أسى . وإن منعها الحياة من أن تكتب إليه . ولما كان رامش
قد بلغ مفترق الطرق . فقد اختار الطريق التي ينسب به أن يسلكها .
معتدياً بحب كمالا له . قبل أن يبتدى بتفكيره في سعادته ! .. إن القدر
لم يربط حياتيهما معاً فحسب . بل إنه ربط بين قلبيهما يوم جمعهما على
شاطئ الجزيرة الرملية النائية . ومن ثم عكف لفوره على كتابة الرسالة
التالية لكمالا :

« يا حبيبتي : لا تظني أنني أستعمل هذا النداء جرياً مع العرف
يا كمالا ، فما كنت لأدعوك (حبيبتي) لو لم تكوني بالفعل أحب
شخص في الدنيا لدى . فإذا كانت قد خالجتك أية شكوك .. إذا كنت
قد جرحته شعورك يوماً ، فدعي ندائي المخلص لك : « يا حبيبتي » .
يبدد الشكوك . ويداوي آلام الجراح إلى الأبد !
وما الداعي للإطالة في هذا ؟ .. إن كثيراً من تصرفاتي في الماضي

قد آلمت . وإذا كنت قد أدتني -- في قوادك -- لهذا : فليس في وسعي
أن أدافع عن نفسي . كل ما أملك هو أن أردد أنك (حبيبتي) . وأن
ليس في الوجود من أكن له ما أكن لك من عاطفة . وقد لا يكون هذا
دفاعاً كاملاً يشفع لما شاب مسلكي . ولكنه -- على أية حال -- كل
ما أملك أن أتشفع به . ومن ثم فاني إذ أدعوك يا (حبيبتي) : إنما أحو
كل ماضينا الموبوء بالشك . لترسى معاً أسس حبنا المقبل ! .. صدقيني
إذا قلت أنني لا أفكر في مخلوق سواك . فليس سواك : وسواك فقط ،
(حبيبتي) ! .. فإذا ما آمنت بهذا . أن لشكوكك وهو أجبك أن
تجمع . وبخلاق في أن أسألك بعد هذا عما إذا كنت قد كسبت حبك
أم لم أكسبه . ولكني لا أجرؤ على هذا السؤال .. فإن الحب لا يقبل
سؤالا ! .. ولست أشك لحظة في أنني سأعرف الجواب يوماً .. بغير
كلمات ! .. وإنما سيحدث قلب الواحد منا قلب الآخر .. وما يؤكد
في هذا غير حبي لك ! ولست أزعج أنني أهل لك . ولكنني أشعر بأن
هيامي بك لا يمكن أن يكون بغير جدوى أو مقابل !

« إنني لألمس أن هذا الخطاب يبدو كموضوع إنشائي منمق . ولهذا
تساورني الرغبة في أن أمزقه . ولكن من المستحيل على أن أكتب خطاباً
يعبر أصدق تعبير عن مشاعري . على أن الخطابات أشياء يجب أن
يتبادلها أي شخصين مترابطين . وفي أول خطاب يعز على الكاتب أن
يعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعره . ولكنني -- إذا ما انسجم عقلانا --
سأملك أن أكتب لك خطابات صادقة القوم . فلن نبار الخاء لا يجرى
في غرفة . إلا إذا فتح فيها بابان متقابلان ! .. حتى أعلم على باب قلبك

يا حبيبتي (كالا) ؟ .. إني واثق من أن هذا لن يلبث أن يتحقق مع مرور الأيام ، وأن التعجل يفسد الغاية . سأصل إلى (غازيوز) في صباح اليوم التالي لتسلمك هذه الرسالة . وأرجو أن أجذك في بيتنا عند وصولي . لقد ظللنا طويلاً بلا بيت ، ولم أعد أحتمل هذا اللون من الحياة .. فلقد آن في أخيراً أن أنطلق إلى اللحظة التي أعير فيها عتبة بيتنا . فأرى مليكة قاي ، وربة داري . ستكون هذه اللحظة (أول لقاء ثان) لنا !

« أو تذكرين (أول لقاء لنا) .. في تلك الليلة المضمرة . على ضفة النهر ، في الجزيرة الرملية المنعزلة . كنا نحت قبة السماء ، وليس فوق رأسينا سقف . ولا ما يشبه السقف ، وليس من آباء ولا أهل يحتفلون بزفافنا ١٢ .. إن قصتنا لا تبدو واقعية لي .. إنها كحلم ! .. ومن ثم فلنني أتوق إلى زفاف آخر » على ضوء الصباح الحادئ ، الباهر . بين جدران أربعة ، وفي الحقيقة الواقعة . إن وجهك الصبوح ، وسط إطار من مدخل بيتنا ، سيظل دائماً متربعاً على عرش ذاكرتي . إنها الصورة التي أتوق إلى أن أراها في الواقع . إني تأثب أقف عند عتبات قلبك يا حبيبتي .. فلا ترديني خائباً ! .. المخلص : (رامش) .

الفصل السابع والثلاثون

■ قالت سايلاجا في اليوم التالي : نحاول أن نكتشل كالا من وجعها : « ألسنت ذاهبة إلى دارك ؟ » .. فأجابتها : « لا .. لم يبق ما أفعله هناك ! » قالت سايلاجا : « هل أعددت كل الغرف ؟ » .. فردت كالا قائلة :

« أجل .. فرغت منها جميعاً » . وغابت سايلاجا عنها فترة . ثم عادت فبادرتها قائلة : « ما الذي تعطيني إذا أسلمتك شيئاً ؟ » .. قالت كالا : « ليس لدي ما أمته يا ديدى ! » (و « ديدى » تقابل « أبلة » أو « أختي الكبرى ») .. فسالت سايلاجا : « لا شيء مطلقاً ؟ » .. « لا شيء مطلقاً ! » .. إذ ذاك عرضت سايلاجا خدعها مداعبة وقالت : « أمكحذا ! لا بد أنك أعطيت كل ما عندك شخصاً معيناً كي يصونه لك ! .. ما قولك في هذا ؟ » . وتناولت من طيات مئزرها خطاباً أخذت تلوح به . فشحب وجه (كالا) إذ رأت خط (رامش) على الخلاف . وحثت بأن تنسحب عنه ، لولا أن قالت سايلاجا : « حسبك ! .. لقد أظهرت من كبرياتك هذه ما فيه الكفاية » فكفى عنها . إني لأوقن من أنك تلغين شوقاً إلى أن تختطفني هذه الرسالة مني . ولكنني لن أعطيك إياها إلا إذا طلبتها في أدب . وسرري كم يطول تمنعك ! .. وفي تلك اللحظة أقبلت (أومي) على الحجر صائحة : « خطائي ! خطائي ! » ، وهي تنجر علبه من علب الصبايون خلفها كأنها عربة . فما كان من كالا إلا أن اختطفت الطفلة فضممتها إلى صدرها ، وأخذت تنعمرها بالقبلات ورفعت (أومي) عقيبها بالبكاء احتجاجاً على إقصائها عن لعبتها . ولكن كالا أثبت أن تغلبها : بل أسرعت بها إلى غرفتها الخاصة . وهي تحاول إسكانها بعبارات التدليل . وتبعتهما سايلاجا صائحة : « غلبت على أمري ! .. كفى يا كالا ! .. إليك الخطاب ! .. لن أقسو عليك مرة أخرى ! .. » وألقت بالخطاب على السرير : ثم أبتذلت (ثوب) من قبضة كالا . وأسرع بها إلى خارج الغرفة . وتناولت كالا الخطاب

فقلبت بين يديها ، ثم فضته وشرعت تقرأ ما جاء به ، ولكنها لم تكمل
تلقى أول نظرة عليه ، حتى تولاهما الغضب ، فرمت الخطاب بعيداً .
ثم غالبت ثورتها واشتزازها ، والتقطته مرة أخرى فقرأته بأكله !
وسواء أكانت قد فهمت كل ما جاء به أو لم تفهمه ، فهذا أمر
لا يمكن التكهن به ، ولكنها أحست كأنها تمسك شيئاً قديماً بين يديها .
فعادت تلقى به بعيداً . كان ينطوى على دعوة لأن تكون زوجة لرجل
ليس بزوجها ! .. كيف جرؤ رامش على أن يقذفها بهذه الإهانة وهو
العليم بكل الحقائق ، إذا كان قلبها قد مال إليه بعد وصولها إلى غازي بور
فهمل دار بخلده أن ذلك كان راجعاً إلى أنه رامش بالذات . ونيس
لأنها كانت تعتقد أنه زوجها ؟ .. لقد تسرع رامش وأساء الظن ، فترك
الشفقة على وحيدة تمسك مثلها تدفعه إلى أن يكتب إليها رسالة غرامية :
كيف تمحو الإيحاء الخاطيء الذي فهمه من مسلكها ؟ .. كأنما قلدر
عليها أن يكون نصيبها من الحياة هو الخزي والاشتزاز . رغم أنها لم
تجزم في حق أحد منذ وفدت على هذه الدنيا ! .. وتمثل لها (النبت)
— التي كانت تصبو إليه — كوحش رهيب يهيم بابتلاعها ، فتلقت
حولها في قنوط تبحث عن مفر . وما كان ليخطر ببالها — منذ يومين
فقط — أن رامش قد يبدي كل هذه الففاعة نحوها !

* * *

■ وقطع عليها أفكارها سعال من (أومش) ، فإذا به لدى الباب .
وإذا لم تلتفت إليه ، هتف في لطف : « أمه ! » .. فسعت إلى الباب ،
وإذا ذاك ، قال وهو يحك رأسه : « لقد أحضرت أسرة سيدو بابو

فرقة تمثيلية من كلكتا بمناسبة زفاف ابنتهم .. فبادرت قائلة : « حسناً
تستطيع أن تذهب لمشاهدة التمثيل » .. قال : « وأى نوع من الزهور
تحبين أن أحضر إليك في الصباح ؟ » .. فاجابت : « لا داعي لأية
زهور .. وهم بأن ينطلق ، لولا أن نادته قائلة : « مهلاً يا أومش ..
ما دمت ذاهباً لمشاهدة التمثيل ، فهناك خمس روبيات ! » .. وبهت الصبي
فإن النظارة في مثل هذه المناسبات لا يدفعون شيئاً . ومن ثم سألتها :
« أتريد أن أبتاع لك شيئاً من المدينة يا أمه ؟ » .. فقالت كمالاً :
« لا ، لا أريد شيئاً . وفر النقود . فسوف تحتاج إليها » .. وهم الصبي
بأن ينصرف وقد تولته الدهشة . ولكنها نادته ثانية وقالت له : « ما الذي
يقوله الناس إذا رأوك بهذه الثياب ؟ » .. وما خطر لأومش يوماً أن
الناس يتوقعون منه أن يبدو في ثياب أفضل من تلك .. وما كان ليحفل
بما حرم من أناقة ، ومن ثم فإنه لم يتألك أن ايسم لقول (كمالا) .
بينما أخرجت قلعين من ثيابها الخاصة « وطوحت بهما إليه . وكانتا
قطعتين من الثياب القضاغضة التي تصلح للذكور وللإناث ، كل حسب
الطريقة التي يرتديها بها . وكانت لها حواف مزركشة ، مما أبهج
(أومش) . وألقى بنفسه على قديمي كمالا في خضوع وعرفان « ثم التقط
الثوبين وخرج .

ومسحت كمالا دموع الحسرت من عينها ، ووقفت إلى جوار
النافذة . وما لبثت أن أقبلت سايلاجاً قائلة : « ألن تريبي خطابك
يا عزيزتي كمالا ؟ » .. كانت لا تكتم عن كمالا سرّاً ، مما جعلها تجرؤ
على أن توجه إليها مثل هذا السؤال : القائل كمالا وهي تشير إلى

الخطاب الملقى على الأرض : « ها هو ذا يا ديدى .. اقترعه .. فقالت سايلاجا لنفسها فى دهشة : وهى تلتقط الخطاب وتقرأه عن آخره : « إنها لم تغالب بعد كبرياعها ! » .. كان خطاباً زاحراً بالمعاطفة : بلا شك ، ولكن .. ما أغرب أن يكتب رجل مثل هذا الخطاب لزوجته ! .. كان أسلوبه غريباً ! .. فقالت سايلاجا : « هل يؤلف زوجك روايات يا عزيزى ؟ » .. وأجبت (كالا) : « وهى مهمومة من كلمة (زوجك) ، وقالت : « لست أدرى » .. قالت سايلاجا : « حسناً .. ألت ذاهبة إلى البيت الجديد اليوم ؟ »

وهزت كالا رأسها بحيرة بالإيجاب ، وعندئذ قالت صاحبها : « وددت أن أقضى النهار كله معك هناك ، ولكنك تعرفين يا عزيزى أن لا بد لي من أن أحضر استقبال العروس فى بيت نارسينغ بابو .. » فقالت كالا : « لا بأس .. إن اخدم هناك ! » .. وكانت (أوى) فى تلك الأثناء قد عثرت على قلم رصاص ، فانهمكت فى اللعب به فى كل ما صادفت . وجذبها سايلاجا رغم صراخها ، ولكن (كالا) اختطفها منها : وألقها على سريرها وأخذت تلاعبها ، ثم تناولت من صندوقها سوارين رفيعين من الذهب - وكانا من أبعد ما رآته (أوى) من لعب - فلما أحاطت (الحالة) ساعدى الصبية بهما : راحت تهر فزاعيا وكل جسمها فى إعجاب وطرط ! .. وهرعت لتعرضهما على أمها . وما أن فطنت سايلاجا ، حتى انتزعت السوارين لردهما إلى صاحبتيهما قائلة : « وما الذى جرى لعلك يا كالا ؟ » .. قالت كالا : « لقد قدمتهما هدية لأوى ! » .. فصاحت سايلاجا : « هل جئت ؟ » ..

ولكن كالا قالت : « أتخداك أن ترديهما يا ديدى ! » .. قالت الشابة وهى تطلق عني كالا : « لعمري : ما رأيت مجنونة مثلك ! .. » .. فقالت هذه : « لا بد من أن أودعك اليوم يا ديدى .. لقد كنت جسد سعيدة بالإقامة هنا . بل ما حظيت بمثل هذه السعادة فى حياتي ! » .. وانساب الشموع من مقلتها ، فلم تقو سايلاجا على كبح دموعها هى الأخرى . وقالت : « لا تتكلمى بهذه اللهجة ، وكأنك راحلة بعيداً . ما أظنك كنت سعيدة حقاً هنا . وإنما ستعرفين السعادة الحققة حين تنقلين إلى بيت لا يشاركك فيه غير زوجك . ولسوف تزورك من آن لآخر . وإن كنت أعرف أنك ستولين إذا ما أدركنا ظهورنا منصرفين : الشكر للماء . لقد انصرفوا أخيراً ! »

وعندما آن لكالا أن ترحل إلى البيت الجديد بعد أن ودعت القوم قالت سايلاجا : « سأتى لزيارتك ظهر غداً » ، ولكن كالا لم ترحب .. ولم ترفض . وعند وصولها إلى البيت : وجدت (أومش) هناك : ففتفت فى عجب : « إذن فأنت هنا .. ظننتك ذهبت لتشهد التمثيل » . فقال الصبي : « كنت ذاهباً ، ولكنك كنت قادمة إلى هنا ... » : فصاحت : « لا تشغل بي . اذهب وتفرج على التمثيل . إن يبشأن هنا : فأسرع وإلا تأخرت » . وانصرف أومش وقد اطمأن إلى وجود (يبشان) ، الخادم الآخر . ولكن كالا نادته ثانية قائلة : « اسمع .. إذا جاء العم .. » ثم أمسكت ، وقد عصرت عن إتمام عبارتها . وخلق فيها أومش فى دهشة . ولكنها ما لبثت أن عادت تقول : « تذكر أن العم صديق حميم . فإذا شئت أى شيء : فذهب إليه . وسأله ما تشاء »

واستحلفه بحبي ، تعجده يابى رغبتك . ولا نفس أن تبلغه حبي ! .. فانطلق (أومس) وهو فى حيرة . لا يفقه من أمرها شيئاً .

وعند الأصيل . رآها (بيشان) خارجة فسألها : « إلى أين يا سيدتى ؟ » . فأجابت : « سأذهب لأغتسل فى الجائيز » .. قال : « أأرأفك ؟ » . ولكنها قالت : « لا . امكث واحرس الدار » .. ثم منحنه روية لغير ما سبب واضح . وسارت فى اتجاه النهر .

الفصل الثامن والثلاثون

■ صعد (أنادا بابو) عصر ذات يوم إلى غرفة همنالينى ، طامعاً إلى أن يتناول الشاى معها على انفراد . ولكنه لم يجدها فى غرفتها . ولا فى قاعة الجلوس . وعلم من حارس الباب أنها لم ترح ابيت . وخافه قلق مبهم . فصعد إلى سطح الدار ليجت عنها : فإذا السقف متدلى أقصى مرمى البصر ، وقد أرسلت عليها شمس الشتاء الدابلة ضوءاً شاحباً . وأخذت نسائم المساء المبكرة . تهب تبعاً . ووجد الرجل ابنته غارقة فى أفكارها . فى ظلال (المنور) المقام على رأس السلم . فسار إليها . ثم وقف خلفها . ولكنها لم تبد أى شعور بوجوده . واقترب منها . فى النهاية — فس كفتها . وإذا ذاك أجفلت مذعورة . ثم تضرع وجهها واعتراها ارتباك . وبادر جانساً إلى جوارها قبل أن تهتم بالنوض ثم تنهد فى أمسى وقال : « أواه . يا هيم ! .. ليت أملك كانت على قيد الحياة ! .. إنها كانت أكثر منى تفعل لك ! » .. وكانت هذه الصبيحة الآسية من الرجل كفيلة بأن توقف همنالينى من شرودها . لتأمل وجهه أيتها .. آه ، يا لحب ، والعطف . والألم : التى لحبتها فى ذلك الوجه ! ..

كان ثمة تغير حزين قد ران على ذلك الوجه فى الأيام الأخيرة . كان الأب الكهل هو الذى تحمل العاصفة التى دحمت ابنته ، فلم يدخر جهداً فى تبيد غيوم الأمسى عنها . حتى إذا تبين أن جهوده لم تنفع . أخذت أفكاره تتجه إلى أم الفتاة . ومن ثم كانت تلك الصبيحة التى انبعثت من أعماق فؤاده ، فنبت همنالينى ، وانتزعها من استغراقها فى أحزانها : .. فإذا الدنيا التى كانت تبدو لها حلماً ، تنفزع فجأة إلى الواقع ، وإذا الشعور بالجزى يغمرها ، لأنانيتها ! .. وفى جهد وعزم . نقت عنها شباك الذكريات التى كانت تتخبط فى أسرارها . وتساءلت : « كيف أنت اليوم يا أبت ؟ » .. أسأله عن صحتة ! .. لقد نسي (أنادا بابو) فى الأيام الأخيرة أن الصحة أهل لأن تكون موضوعاً للحديث . فقال : « كيف أنا ؟ .. إن جسدى لا يعانى شيئاً يا عزيزتى .. إنما يزعجنى ويشغل بالى ما أراه يادياً عليك من سقم فى هذه الأيام . إن شيئاً صاب العود مثلى . يستطيع أن يحتمل . ولكنى أخشى أن تكون الوطأة جمد قاسية على شابة مثلك ! »

وريت كضها فى حنان ، فقالت : « ألا قل لى يا أبت .. كم كان عمرى حين ماتت أمى ؟ » . قال : « كنت فى الثالثة إذ ذاك ، وقد بدأت تتكلمين . وشد ما أذكر سؤالك لى : « أين أمى ؟ » .. فكنت أجيب : « ذهبت لى أبيها ! » .. فإن أباه كان قد مات قبل مولدك ، ولم تكونى تدركين المعنى الذى يعطى عليه جوابى .. ولكنك كنت تظلين واقفة ترمقننى فى وجوم .. ثم تسكين يابى . وتجريتنى إلى غرفة أملك ، وكأنا كنت تخالين أنى قد أجيد فى ما يشهدنى إلى مكان

تخيم على البيت ليل نهار . حتى أصبح يرى الحياة لانتضاق في البيت ، ولكنه مع ذلك لم يشعر بميل إلى أن يشهد حصة أخرى ، لأنه كان كلما زار بيوت الأصدقاء والمعارف ، ألقى نفسه مضطراً لأن يقدم الإيضاحات لما حدث من نسخ خطبة هنناليي . وكان يقول لأبيه في تلك المناسبات : « إن هنناليي تغالى في الأسمى بسبب هذا الأمر . وهذه نتيجة ترك القتيات بقرآن الروايات الإنجليزية . إن هنناليي ترى أن رامش هجرها فيجب أن يتحطم قلبها ، ومن ثم فهي تعمل على أن تحطم قلبها . إنها فرصة فذة لشابة تقرأ الروايات كي تبين كيف تتأذى وتحتمل ما أصاب غرامها من غدر ! »

وفي هذه المرة سارع الأب إلى القول : « لقد اخترت أنا سطح البيت لأتحدث إلى هيم في هدوء ! » .. كان يرى إلى حماية ابنته من لذعات (جوجندرا) القاسية . ولكن هذه الكلمات لم توح إلى الشاب بشيء سوى أن أبيه استدرج أخته إلى سطح الدار ليحاذيها أطراف الحديث . فقال : « أو ليس في وضع المرأة أن يتكلم على مائدة الشاي . إنك تشجع هيم على حماقتها يا أبت . سوف تضطرائني معاً إلى أن أضجر الدار ! » .. وصاحت (هنناليي) إذ فطنت إلى موعد الشاي : « أو لم تتناول الشاي بعد يا أبت ؟ » .. فقال (جوجندرا) : « إن الشاي ليس كخبز الشاعر ، والسياء لا تعطر شاباً من شفق الشمس الآفلة .. ولا لا تروا قدرة على أن عملاً نفسها وتضعه إليكما في جلستكما ! » .. فبادر نناد بابو قائلاً : « ولكني رأيت أن لا أتناول شاي اليوم » .. فعقب جوجندرا قائلاً : « ما هذا يا أبت . حل .. »

أملك .. كنت ترى أن أباك قادر على أن يفعل المعجزات . وما خطر لك أن أبالك يغفل أجهل وأعجز من الطفل إذا المسائل التي تمنع بالموت والحياة .. ولعلك الآن تشعرين بعجز أهلك إزاء محتك ! .. إن الله وهبك أباً قادراً على حبك . ولكنه عاجز عن مساعدتك ! .. وأمسكت هنناليي بيد أبيها المرتعشة فراحت تتحسها . وقالت : « إنني لا أكاد أذكر أمي .. كل ما أذكره أنها كانت تستلقي عند الظهيرة ، وتستغرق في القراءة . فكنت أشد الكتاب من يديها .. وهكذا راحا يتحدثان موعليان في الماضي . وأخذت هنناليي تنظر أبيها بالأسئلة عن شكل أمها ، وعاداتها ، والحياة العائلية في تلك الأيام . وكان أبوها يجيبها قدر استطاعته . وأخذت الشمس تخذل للمغرب . فاستحال لون السماء إلى لون النحاس الصدئ . وشملت سطح البيت سكبنة وادعة .. وسدل الضوضاء التي كانت تنبعث من المدينة الكبيرة .. فإذا هذه السكبنة رباط جديد يبرز الود المتبادل بين الأب وابنته .. بين الكهل والشابة ! .. وظللا في مجلسهما حتى خبا ضوء النهار . وبدأ الغلل الخفيف يسقط عليهما كالدموع !

● وفجأة . انبعث وقع قديم (جوجندرا) على السلم . وانقطع الحديث انخافت بين الأب وابنته فوراً . وقفزا معاً واقفين . وقال (جوجندرا) وهو يتفرس في وجهيهما : « يبدو أن هيم اتخذت من سطح الدار قاعة للجلوس في هذه الأيام ! » .. وكان شديد الانسياق للتطور الذي اتجهت إليه الأمور : فقد كانت ثمة حماية من الأسمى

« وعلى هذا النسق نفسه . ما أظن أن الشيء الطيب يرفض أن يذهب إليك إذا عرّضت نفسك عليه ! ! » .

ومرة أخرى ، عاد الحديث إلى سابق عهده ، حول مائدة الشاي بدار (أنادا بابو) . ومع أن ضحك همناليني لم يرق قط إلى مرتبة التهفئة ، إلا أنه في ذلك اليوم كان يعلو على الكلام بين آن وآخر . وكانت تريد التورية عن أبيها ، فقالت : « لقد نسي أكشاي بابو نفسه يا أبت .. إنه في خير صحة رغم أنه لم يتناول شيئاً من أفراسك منذ أيام . ولو أنها كانت ذات فائدة . لشكا الآن من الصداع ! » .. فقال جوجندرا : « إنه يتناول أفراسه ! » .. وضحك أنادا بابو مغيطاً « إذ رأى أمرته تعود إلى تبادل الفكاهات حول أفراسه » . « حس بأن هذه العلامة بشرى عودة الانسجام . وما ليث أن قال : « إنني أدرك ما تسيران إليه .. إنكم أولان أن تزعجا ثقة أكشاي » فهو الوحيد الذي بقي لي من .. » فقال أكشاي : « لا تخش من هذا » فلن يستطيعا أن يبررا في حياتنا ! » .. وقال (جوجندرا) : « عجباً ، أليكون أكشاي كالروية الرديئة . إذا حاولت صرفها وقعت في المتاعب ؟ ! » . وبدد الضحك غيوم الأسى عن مائدة الشاي .. وكان من الممكن أن يطول الحديث الفكاهي ، لولا أن استأذنت (همناليني) في الانصراف لتعني بشعرها . وإذا ذاك . حلا لأكشاي أن يذكر أنه على موعد ، فانصرف هو الآخر !

قال أنادا : « آه .. لا . إنها ليست مسألة زهد ، ولكنني لم أحظ بنوم طيب ليلة أمس : ففكرت في أن أجرب الامتناع عن الشاي ! » .

والحق أن شبح كوب الشاي كان يتراقص أمام بصر (أنادا بابو) أثناء حديثه من همناليني .. ولكنهما كانا قد انسجبا في الحديث ، وخرجت الفتاة عن وجوبها ، فكانت أية حركة كفيفة بأن تحدث أثرأ سيئاً ، وأن تحمل الأفكار على أن تبادر إلى الفرار كالغزل الخائف . على أن همناليني لم تصدق أن أباهما كان يعترم جداً الامتناع عن (كيفة) المعتاد ، فهتفت به : « هيا يا أبت لا بد لك من تناول الشاي » .. ونسي الرجل ما كان يشكوه من أرق ، وأسرع يرافقتها « فلما دخل غرفة الجلوس بالطابق الأرضي ، ساءه أن يجد (أكشاي) متربعا فيها . إذ كانت (هيم) قد استردت شيئاً من حالها الطبيعية ، فكان منظر أكشاي خليقاً بأن يحدث لديها انكساراً . ولم تكن ثمة فرصة لإنقاذ الموقف . لأن الفتاة كانت قد ولجت الحجرة بالفعل . ونفض أكشاي لقوره . قائلاً : « يحسن بي أن أنصرف باجوجن » . وللهشة الجميع » . قالت همناليني : « ماذا جرى يا أكشاي بابو ؟ .. أي عجلة أنت ؟ .. تناول كوب شاي أولاً ! » .. وعاد إلى مجلسه قائلاً : « لقد تناولت كوبين قبل مقدمك . على أنني قد أستطيع أن أتناول كوباً ثالثة . إذا سمحت ! » .. فابسمت همناليني قائلة : « ستكون هذه أول مرة نضطر فيها إلى الإلحاح عليك ! » . وبدلاً من أن يتفجل . باهر قائلاً : « حقاً .. إن عندي من الذوق ما يقيني أن أرفض الشيء الطيب ! » . وقال جوجندرا :

لسكى أكون معتدلاً ، متعلقاً معها .. أظننى لا أجيد الحديث معها إلا إذا تشاجرنا ؟ » .

وَمَ يَنْتَظِرُ (جوجندرا) . بل سارع إلى همتالى بمجرد فراغها من العناية بشعرها . وخروجها من غرفتها . وقال : « هم .. أحب أن أحدثك في أمر .. وتسارعت دقات قلبها لكلماته . وتبعته متثاقلة إلى غرفة الجنوس . ثم جلست تنتظر حديثه فقال : « ألم تلاحظي ما يبدو على أبنينا من سوء صحة ؟ » . ولم تقل شيئاً . ولكن بحياها وثمى بالقلق الذي داخلها . وعاد جوجندرا يقول : « ألا سابقني إذا قلت أنه مريض بمرض خطير ، ما لم تداركه ! » . ونمت لهجته عن أنه يحملها مسؤولية ما آلت إليه صحة أبيهما ، فغضت بصرها . وأخذت تعيث بطرف ثوبها . بينما استطرد جوجندرا : « إن ما فات قد فات ، وكلما طالت أسالك على الماضي . ازداد حزناً . فلماذا شئت أن تعيبدى إلى أبنينا راحة باله . وجب أن نحمي كل أثر لتلك المسألة غير الموفقة ! » . وترقب ردها ، وعيناه لا تفرحان وجهها . وأجابته هيم في ارتباك : « لا حاجة بك إلى أن تخشى أن أزعج أبى بالحديث عنها » . فقال : « أعرف أنك لا تحادثينه عنها . ولكن هذا لا يكفي لعقل السنة الناس ! » . فسألت : « وماذا فعل إذن ؟ » . أجاب : « هناك وسيلة واحدة لوقف الأقاويل » .

وأدركت همتالى ما كان يرى إليه . فسارعت قائلة : « ألا يحسن أن نصحب أبنانا إلى الريف ، ليروح عن نفسه ؟ » . ستمكث هناك ثلاثة أشهر أو أربعة ، وسوف يموت كلام الناس في هذه الأثناء ! » . ولكنه قال : « ليس هذا بعلاج شاف . يجب أن نعلم أن الله قد استبد

■ وما أن خلا جوجندرا إلى أبيه ، حتى قال له : « ما ينبغي أن ننظر إلى ما بعد هذا يا أبت .. يجب أن نزوج (همتالى) ! » . فحدق فيه أناداً بابو يامعان ، بينما استطرد الشاب : « إن الأقاويل تتناثر حول انفصام خطبتها لرامش ، وليس بوسعى أن أظل أكافح بمفردى . ولو أنني كنت في وضع يمكنني من الجهر بالحقيقة كلها .. لما خففت بشيء . ولكننى لا أبيع لنفسى الكلام إكروماً طم . فأنا أفاضل وفي مغزى . وإنك تعلم أنني منذ أيام اضطررت إلى أن أتشاجر مع (أنجيل) . سمعته يتأذى في كلامه . ولو أننا استطعنا أن نزوجها في القريب . لانفتحت الأقاويل . ولما اضطررت إلى أن أقوم في كل مكان بدور البطل الوحيد ، فأشعر عن ساعدى وأتعبدى الدنيا ! » . قال أناداً : « ولكن ، لمن نزوجها يا جوجن ؟ » . فأجاب الشاب : « هناك شخص وحيد ، من المتعبد أن نجده سواء بعد الذى حدث . وبعد التفاتات المنتشرة . هناك أكشاش المسكين .. سله أن يتناول قرصاً من حبيبك . فيسادر إلى تناوله ! وكذلك ، اطلب إليه أن يتزوج . فسرعان ما يتزوج ! » . فتهتف أناداً : « أمجنون أنت يا جوجن ؟ .. أنتظر أن هيم تقبل الزواج من أكشاش ! » . ولكن الشاب قال : « سألهم للحصول على موافقتها ، إذا أنت لم تتدخل ! » . فصالح الأب : « لا . يا جوجن . لا . لن أسمح لك بأن ترهق هيم لإغرائها . من هنا لن يودى إلا إلى إزعاجها وإثقالها بالأمس .. دعها وشأنها فترة من الزمن . فإن المسكينة تحتل تجربة ضئيلة . وما ينبغي أن نتعجل زواجها ! » . فقال جوجن : « انتهى لن أحوال أن أضغط عليها ، بل سأبذل كل جهد

سكينته». وأخذت تسمح - في عجلة - الدموع التي انسابت من عينيها وتساءلت: «وما الذي تريدني على أن أفعله؟».. قال: «إنني أدرك أن الحل لا يسرك، ولكنك إذا شئت أن تبقي الهناءة في كل قلب - يجب أن تتزوجي في الحال!.. وعقل الاستياء لسانها. ولكنه استطرد وقد نفد صبره: «إنكن - معشر البنات - تحاولن أن تجعلن من الحياة قية، إن ما جرى لك جرى لكثيرات من قبل، فكن لا يلبثن أن يتزوجن من أشخاص آخرين، ويقضين على الأقاويل. أما التصرف على نسق ما يرد في الروايات، فكيف بل أن يجعل الحياة لا تطاق.. قد لا تسبب عاراً في أن تقولن للملأ: «سأبذل الدنيا إلى الأبد، وآوى إلى سطح البيت أحلق في السماء. سأقيم ذكرى ذلك الغادر - الذي لا يستحق تقدير» في أعماق قواذي، وأروح أتعبد في مبعكها!.. بيد أنك لا تنظرن إلى الخزي الذي يصيبنا - ألا تزوجي من أي شخص - وتحلى عز هذه الأماسة المتبيلة في أقرب وقت!.. وأحسنت همنائي يكلاته وكأنيما خناجر تلطن قلبها: فقالت: «وهل سمعني أقول إنني سأبذل الدنيا - ولأني لن أتزوج قط؟».

قال جوجندرا: «إذا كانت هذه نيتك، فبادري إلى الزواج - من الطبيعي أن تغلي عانساً طالما كنت تقولين إنك لن تحبي رجلاً قط - ما لم يكن شبيهاً بالآلهة. إننا نادراً ما نجد الأمور في الدنيا متمشية مع آمالنا. يجب أن نروض أنفسنا على تقبل ما يمكن أن نأله. وأن نتخلى عما عداه!.. فصاحت لمناعة: «لماذا تعذبني بهذا الشكل؟.. هل قلت لك شيئاً عن الحب؟».. فقال جوجندرا: «لم تقوليني شيئاً، ولكنني

الأحظ ما تضمين. إن ما تظهرينه من تفور نحو أصدقائنا المتواضعين ينشئ بنا في نفسك. وخلق بك أن تعترف بأن ثمة شخصاً، ظل - دون كل أصدقائك - وفيك لك في السراء والضراء، في الخير وفي الشر، ومن أجل هذا أكن له كل تقدير. فإذا شئت زوجاً يصحى بجياته كلها ليرك سعيه. فما أشك في أنك تعرفين أين هو.. أما إذا أردت الجو الروائي الحزين...». وهنا تهضت واقضة، وهي تقول: «أرجو أن لا تحدثني بهذه اللهجة. إذا أمرني أبي بأن أتزوج من أي شخص - فسوف أطيع رغبته. انتظر حتى ترائي أعصابه، ثم تكلم عن الحزن الروائي!.. وعند ذلك - رقت لجة جوجندرا في الحال، وقال: «لا تغضبني يا عزيزتي هيم.. أنك لتعرفين أنني إذا استأنت من أمر - تهورت في كلامي. وقلت كل ما يخطر ببالي. لقد عرف كل منا أخاه منذ طفولتنا وإنني لأدرك مدى رقة شعورك. ومدى حبك لأبينا!..».

وانصرف ليبحث عن أبيه - فوجده جالساً في غرفته، وقد راح ضميره يؤنبه كلما تصور جوجندرا في مغايبته لأخته. وكان قد أوشك أن يسعى لإليها عندما أقبل جوجندرا قائلاً: «لقد وافقت هيم على الزواج يا أبت. تلكت تظن أنني ضغطت عليها، ولكنني في الواقع لم أفعل. إنها لا تعارض في الزواج من أكشاي. إذا أنت طلبت منها ذلك في كلمات صريحة!.. فقال الشيخ: «أريدني على أن أصلب ذلك منها؟» وأجاب الشاب: «أجل. فما أظنك تنتظر أن تأتيتك من تلقاء نفسها تسألك: هل أتزوج من أكشاي؟».. إذا كنت تردد في أن تصاحبت فيها في الأمر - فقبضني في حل أو لم تحل منها!.. - فليذهب أنت يا

لقوره : « مستحيل أن أفعل هذا ! .. سأقول لها بنفسي ما يمكن أن يقال ، ولكن فيم تعجلت هذا ؟ .. أرى أن علينا أن نترتب لبضعة أيام » فأجاب الشاب : « لا - يا أبت - لا بد أن يحدث ما يعرقل الأمر ، إذا نحن نترتب . وليس بوسعنا أن نظل هكذا لأمد أطول مما انقضى ! » وما كان في الأسرة من يغلب (جوجندرا) إذا تخمس الأمر . فهو لا يكف عن محاولة تنفيذ هذا الأمر . حتى لقد كان (أنادا بابو) يشعر في سريره بخوف منه . ومن ثم قال يحاول أن يرجئ الأمر : « حسناً .. سأحدث إليها ! » . ولكن الشاب قال : « ليس أصلح من الوقت الحالي يا أتي .. إنها جالسة في انتظارك . فحاول أن تسوى الأمر اليوم » .. وقال الأب : « حسناً ، انتظري هنا . فلا بد من أن أحلو إليها . »

■ ووجد (أنادا بابو) حجرة الجلوس مظلمة . إلا أن شبحاً هب في الظلام ، ثم واثق صوت مثقل بالدموع : « لقد انطفأ المصباح يا أتي . هل أدعو الخادم لإشعاله ؟ » . فقال : « لا بأس يا عزيزتي فإنيست بنا حاجة إلى الضوء ! » . وتحسس طريقه إلى مقعد بخوار اجنته فتأملت : « إنك لا ترعى صحتك كما ينبغي يا أبت » ، فقال : « إن صحتي على مايرام . وليست في حاجة إلى مراعاة . إنما أنت التي يجب أن تعني بصحتك ! » ، فصاحت هنالتي : « كلارك تقولون هذا . وما هو من الصواب في شيء .. ما الذي يجعلك على أن تظن أنني لا أكتثرت لصحتي ! .. إذا رأيت أن أتبع علاجاً خاصاً ، فليس عليك سوى أن تأمرني .. فأرفضت لك رغبة قط ! » . واختلط صوتها بالبكاء .

فصاح في قلق : « أبداً يا عزيزتي .. بلى إني ما احتججت قط إلى أن أتيتك إلى رغبة في ، فأنت تعرفين ما يقول بخاطري » . كما لو كنت نبي ! وأنت دائماً تحرجين على أن تعني ما أريد دون أن تنتظري حتى أطلبه . ونحو أن لدعوات قلب الأب أي أثر ، فكنت سعيدة في كل أيامك بنفس دعواتك تلك ! » . قالت : « ألا تحب أن تستبيني معك يا أبت ؟ » . فقال أنادا : « بالطبع . فسادت تسائه : « هل في أن أمكث هكذا طالما ظل جوجن بغير زواج ؟ .. من الذي يعني بك إذا لم أكن إلى جوارك ؟ » .. قال : « يعني في ؟ .. لا تحملني هي يا عزيزتي . فليست أسئتي هذا ! » . فقالت : « إن الظلام دامس يا أتي . فهل أحضر مصباحاً موقداً ؟ » .. وحملت مصباحاً من الغرفة الخبورة ، وقالت : « لقد شغلنا اضطراب أفكارنا في الأيام الأخيرة : فلم نجد أقرأ لك الصحيفة في الأمسيات هل نقرأ لك الآن ؟ » . فنهض قائلاً : « حسناً يا عزيزتي . انتظري دقيقة » .

وعاد إلى جوجندرا ، وقد عول على أن يقول له : « لم أستطيع أن أفاتحها اليوم في الأمر . فيحسن أن ننظر إلى غده » . ولكنه ما كان يسمع جوجندرا يبادره قائلاً : « ماذا تم يا أتي ؟ .. هل حدثت ؟ » ، حتى أسرع جيبياً : « أجل ، تحدثت إليها » . فقد خشى أن يعاود جوجندرا حملاته على هنالتي . وتساءل الشاب : « وهل وافقت ؟ » . فأجاب : « أجل .. إلى حد ما » . فصاح (جوجندرا) : « إذن ، سأذهب فأنبي أكشأى » .. ولكن الأب صاح متعجلاً : « لا لا .. لا تقل له شيئاً بعد . إنك ستفسد كل شيء يا جوجن ! » ..

التدابير النهائية إلى أن تعود من الريف . . ولكن جوجتلا انصرف دون أن يرد عليه ، قيم لقوره بشار بيت أكشاي ، حيث وجد صاحبه منهمكاً في مطالعة مؤلف إنجليزي عن (مسك الدفاتر التجارية) ، فدفعه عنه جانباً ، وقال : « دعك من هذا الآن ، إذ علينا أن نحدد موعداً للزواج ! » فصاح أكشاي : « يا إلهي » .

الفصل التاسع والثلاثون

● نهضت (هماليني) في الصباح الباكر ، وسعت إلى أبيها . قالت في غرفة نومه . وقد جلس في مقعد مريح في جوار النافذة . واستغرق في التفكير . وكانت الغرفة متواضعة الأثاث . لا تفتح سوى فرنيل وصوان للباب « وإلى أحد جدرانها . عاثت صورة باهتة لأم هماليني المتوفاة ، في إطار فخم . بينما ثبتت إلى الجدار المقابل لها قطعة من الصوف نسجت المتوفاة بيديها . كما كان نصوان يقدم أساورها وحليها وخلفاتها الشخصية . وقد تركت على حدة . ووقفت هماليني خلف أبيها ، وراحت تمسح شعره برفق . ثم قالت : « ما رأيك يا بيت في أن نتناول الشاي مبكراً هذا الصباح . ثم نجلس في غرفتك . فتحسنني عن الأيام الخالية . ليس بوسعك أن تتصور مدى شغفي بقصصك هذه ! » وكان إدراك الشيخ لحالات ابنه قد غداً مرفقاً إلى درجة مكانته من أن يلمس الخافز الذي حثها على أن ترغب في التمتع بالشاي . فإذ أكشاي لن يلبث أن يفد لتناول الشاي معهم على عادته . وقد رغبت (هم) في أن تتحاشى إلقاءه . وذلك بأن تمكث ما استطاعت في غرفة



نهضت (هماليني) في الصباح « وسعت إلى أبيها ، فالتفت

في غرفة نومه ، وقد جلس في مقعد

أبيها . وأحزن الشيخ ما صارت إليه أعصاب ابنته . كانت دائماً وجلة ، كغزال خائف .

ولم يكن الماء المغلي للشاي قد أعد بعد ، فابتكر أنادا حجة لحث الخادم المسكين على إعداده ، فصرعان ما وافقها به . ويدلا من أن يقبل أنادا بابو على ارتشاف ماقى قدحه في بطة . وهو يلحن شفيه لتلاداً . ويتحدث إن ابنته ، عمد في ذلك اليوم إلى إفراخ الفصح في جوفه بسرعة لا داعي لها ، مما جعل ابنته تسأله في دحشة : « أنت يا أبي ، هل تريد الخروج ؟ » فأجاب : « لا ! .. ولكن عندما يكون الجو بهذه البرودة ، أحب أن أشرب الشاي دفء وحده . من دعه ينسر العرق على جسسى . فيدفعنى ! » ولكن جورجندرا لم يبت أن يقبل . وأكشأى فى أثره ، قبل أن يتفصد العرق تسود . وكان أكشأى يادى الأناقة ، وقد أمسك في يده بعضاً ذات مقبض قفصى . وبين حده بسائلة ذهبية ، يلبأ حمل في يسراه كتاباً كتب في ورقه سمراء . وسلا من أن يتخذ مجلسه المجهود ، جر مقعداً إلى جوار مجلس (هنالينى) . وفق في تلطف : « لا بد أن ساعتكما متقدة اليوم » . فلم تجب هنالينى . ولا نظرت إليه . بينما قال أنادا بابو : « لتصدق الطابق العلوى يتريز هيم » ، إذ لابد من أن تعرض ثياب الشتاء للشمس . فقال جورجندرا : « لا داعي للعجلة يا أبت ، فلن تيرب الشمس . هلا صيبت لأكشأى قدحاً من الشاي يا هيم ؟ » كذلك أريد قدحاً لنفسى . ولكن الضيف مقدم بالطبع ! » . وضحك (أكشأى) قائلاً لهنالينى : « هل أنت في حياتك مثل هذا الإيثار ؟ » .

وصيبت (هنالينى) الشاي دون أن تحفل بأكشأى ، ثم تناولت جورجندرا قدحاً . ودفعت نحو أكشأى بأخر ، وهى تنظر إلى أبيها ، فقال هذا : « إذا تلاكنا فسوف يشته الحر على سطح الدار . هيا يا هيم ، يحسن بنا أن تصعد في الحال ! » . فصاح جورجندرا : « أف لك ! .. لقد جاء أكشأى ... » . وتلك الغضب أنادا بابو ، فصاح : « إنكما تحاولان أن تضايقنا ! .. ليس من حكمة أن تدفعا المرء - إذا ما كان يعاني آلاماً نفسية - إلى أن يتفصع لرغباتكما . لقد تحملت لجأكما أياماً ، ولكنى لم أعد أطيعه . لسوف نتناول الشاي في المستقبل يا هيم وحسبنا في الطابق العلوى ! » . وحاول أن يجرها إلى خارج الغرفة ، ولكنها توقفت في هدوء وقالت : « لا تخرج الآن يا أبت » . فأنت لم تفرغ من تناول الشاي .. هل لى أن أسألك يا أكشأى بابو عما فى هذه اللقافة العجيبة ؟ » . فبسط يده بالشفافة قائلاً : « ليس لك أن تسأل فحسب ، وإنما بوسعك أن تبينى ! » . ونزع (هيم) الورق ، فكشفت عن نسخة من أشعار (تيسون) « داخل غلاف من الجلد . وبهت وشحب وجهها ، إذ كانت قد لقت من قبل نسخة مثله ، كهديّة . ولم يكن أحد ليعرف أنها تحتفظ بها ككثرة ثمين في غرفتها !

وايضم جورجندرا وهو يرفع إحدى دفتى الكتاب . عن صفحة العنوان ، فإذا مكتوب عليها : « إلى الأنسة هنالينى » رمزاً لتقدير أكشأى . « كتبت الفتاة الكتاب كما لو كان جرة متقدة ، وأشاحت بعصرها عنه قائلة : « هيا يا أبى ! » .. وغادر الأب وابنته الحجر .

وتظاهر بسر من عيني (جورجندرا) ، قال : « لم أكنف الحجرة

واحدة تحت سقف هذا البيت . سأرحل عنه ، وأكسب عيتي من العمل كهدرس ! » ، فقال أكشاي : « إنك تبالغ في الغضب يا حبيبتي لقد أنباتك بأنني أعتقد أنك خطئي ، وقد انتصت لإلحاحك ، ولكني رأيت الآن أن همتاني لن تحفل في مطلقاً ، فدع هذه الفكرة عن يدي . وإذا شئت أن نسلك المسلك الصائب ، فيجب أن نتجه خطواتنا الثانية إلى حملها على نسيان رامش » . فقال الآخر : « هذا صحيح » ولكن كيف نحملها على ذلك ؟ » .. قال : « يجب أن لا نعتقد أنني الشاب الوحيد في الدنيا الذي يصلح للزواج منها .. إن الذي نحتاج إليه حقاً .. هو أن نوفق إلى شاب يعجبنا .. لا إلى شاب يجعلنا مظهره يؤثر أن نذهب لهوية ثياب الشتاء ! » . فقال (جوجندرا) : « ليس ثمة منجر يقصده الإنسان ويطلب عريساً (جاهزاً) ! » . ولكن أكشاي قال : « إنك سريع القنوط .. فعلى الرغم من أن هدفنا الحقيقي هو أن نجد زوجاً همتاني ، إلا أننا يجب أن لا نتسرع .. ويغني أن لا نثير موضوع الزواج ارتجالاً ، وإلا أثرت مخاوف الفريقين .. بل دع التعارف يتم على مهل ، وتربص للفرصة التي تستطيع خلالها أن تقترح عليهما الزواج ! » .

وقال جوجندرا : « هذه خطوة سليمة . ولكن ما اسم المرشح ؟ » فأجاب أكشاي : « إنك لم تعرف إليه وإن كنت قد رأيته .. الدكتور نالينا كشا » . فردد جوجندرا : « نالينا كشا ! » . وقال الآخر : « ما الذي يدهشك ؟ .. إن طائفة البراهمة الأحرار تحبه بنضيجة . ولكن لا تاتي لذلك بالا ! » . فقال (جوجندرا) : « ما كنت لأفقت

شخصاً موفقاً مثله .. ولكن ، هب أنه لم يوافق ؟ » . ولكن أكشاي قال : « لسنا في عجلة .. إن الزمن كفيل بالمعجزات ! .. اسمع .. سوف يلتقي نالينا كشا عاصرة غداً ، فاصطحب همتاني لسماعها ، فإن الشاب خطيب مصقع . وليس مثل البلاغة في الحديث شيء يفتن النساء ! يا للمسكينات ! .. إنهن لا يدركن أن الزوج الذي يبتدئ الإصغاء خير من يحيد الكلام ! » . فقال جوجندرا : « ولكن » حدثني عن تاريخه : إذ أحب أن أعرف المزيد عنه » . وبادر الآخر قائلا : « حسناً سأروى لك سيرته ، على أن تتجاوز عن النقص الذي قد تكتشفه خلاصاً . فإن النقص إذا كان تافهاً يعتبر - في رأيي - ميزة . إذ يمكن الانتفاع به ! »

ومن الممكن أن تلخص قصة نالينا كشا - كما رواها أكشاي - فيما يلي :

كان أبوه (راجبالاب) من صفار الملاك في منطقة (فريدمبور) : وقد انضموا راجبالاب في سلك طائفة البراهمة الأحرار وهو في الثلاثين من عمره . ولكن زوجته أبت أن تتبعه في ذلك ، وظلت محافظة على أصول عقيدتها . الأمر الذي لم يرض عنه (راجبالاب) بطبيعة الحال . ولقد كان لما أوتيتهما (نالينا كشا) من موهبة في الوعظ وبلاغته في الحديث . الفضل في ضمه إلى الطائفة في سن مبكرة ، وقدر له أن ينال وظيفة طبيب في الريف ، فعاش منتظلاً بين البلدان : ككل موظفي الحكومة في البنغال . وكان ، أينما ذهب . ترك وراءه سمعة طيبة ، لاستقامته . وبراعته في مهنته ، وقد أتمها بفضل عار الأمانة

صاعقة ، إذ قرر (راجبالاب) - عندما تقدم في السن - أن يتزوج مرة أخرى ، ولم يقو شيء في حمله على العلوان عن عزمه . وكان عنده الذي لم يجد عنه : « إن زوجتي الحالية لا تحل لي . لكن لا تتبع عقيدتي فمن الأفضل أن أتزوج من امرأة نشاطرني عقيدتي . وتحدث معي قلباً وقالياً ! » .. وتزوج من المرأة التي أرادها ، متبعاً الطقوس الهندوكية ! وقررت أم ناليناكشا أن تهجر زوجها وترحل إلى (بنارس) . وكان (ناليناكشا) إذ ذاك قد افتتح عبادة خاصة في (راجبور) . فبادر إلى التخلي عنها ، وأعلن لأمه عزمه على أن يصحبها إلى المدينة المقدسة . وقالت المعجوز وهي دامعة العين : « إن آراءنا متباينة يا بني . فلماذا تكبد نفسك متاعب لا داعي لها ! » ، فأجاب قائلاً : « من يكون ثمة تباين ! » ، فقد أحس بأثر غدر أبيه على نفسه ، فموت على أنه يعمل سعادتاً هدفه الأول . وصحبها إلى (بنارس) . وكانت من قبل قد سألتها عما إذا كان لا يعترم الزواج . فأجابها : « ولماذا يا أماء ! » ، التي قانع بحالي . « ولكن ما طرأ على أمه قضى على سبب تردده » ، كما أنه . إذ اقتطع نفسه عن الوسط الذي كان يعيش فيه ، تيد الكثير من آرائه . ومع ذلك ، فإنه لم يكن على استعداد لأن يتزوج من غير التيراهنة . وقالت له أمه وهي حريصة على أن لا تنقف في طريقه : « يبقى العزيز ليس لك أن تذاكر نفسك للعزوبة بسببي ، تزوج ممن تشاء . ولا تخش معارضة مني » .. ففكر ناليناكشا في الأمر يوماً أو اثنين . ثم ذل لأمه : « سأطيع لك يا أماء كنة (زوجة ابن) تروق لك .. فتاة صغيرة .

صالحة ، لن تشعري يوماً باستياء منها . ولن تجدي من مسلكتها ما يسبب لك ألماً ! » .. ورحل إلى (البنغال) بحثاً عن عروس .

أما ما جرى بعد ذلك ، فقد اختلفت بصدده الروايات . فترجم إحدى القصص أنه قام برحلة سرية إلى مكان ما في الريف ، وتزوج من فتاة بنية ، ماتت بعد الزفاف مباشرة . ولكن الثقات يحيطون بهذه الرواية بالشكوك . وقد كان أكشاي يعتقد - في قرارة نفسه - أن (ناليناكشا) عدل عن الزواج في اللحظة الأخيرة !

ومهما تكن الحقيقة ، فقد كان من رأى (أكشاي) إن أم الشاب لن تعارض في زواجه من أية فتاة تليق له ، بل إنها لن تثبت أن تغبط إذا ما تزوج فتاة فائتة مثل هماليني . لن يجد خيراً منها مهما يبحث . فضلاً عن أن من شأن طباع (هماليني) الرقيقة أن تجعلها تعامل حماتها بما يحسن من احترام . ومن ثم فإن ناليناكشا لن يلبث بعد أمد قصير من التعرف إلى هماليني ، أن يبين أنها أوتيت الميزات التي ينشدها في عروسه ! .. وكان من رأى أكشاي - لذلك - إتمام التعارف بين اثنين في أقرب فرصة !

الفصل الأربعون

■ لم يكاد (أكشاي) يغادر البيت ، حتى صعد (جوجندرا) إلى الطابق الثاني . فوجد أنادا بابو وهماليني في حجرة الجلوس ، متهمكين في الحديث . وبدأ على الأب شيء من التحليل حين رأى ابنه . فقد تقدم لهذا الغضب الذي يطر منه على مائدة الشاي . وبعد أن تحلل (جوجندرا)

في حضرة أكثر من المعتاد ، وقال : « تعال يا جوندرا .. تعال
فاجلس معنا يا بني ! » .. وقال الشاب : « إنك وهناليتي لا تكادان
تفارقان البيت في هذه الأيام يا أبت . وطول ملازمتكما تلبيت لانتفيدكما .
فأجابه أنادا : « الواقع أننا دائماً ممن يلازمون دورهم .. ثم إن المرء
مضطر إلى أن يعصر فكره ليجد مناسبة تحمل هم على مرافقته ! »
وتدخلت الفتاة قائلة : « مهلاً يا أبت ، فإني ينبغي أن تلقى على اللوم ،
إذ أنك تعرف أنني على استعداد لأن أذهب معك إلى أى مكان ! »
وبدا من هبة الفتاة حرصها على أن تقنعهما بأنها لا ينبغي أن تدع حزنها
الدين يستيقظها أسيرة البيت ، حبسة جدرانها الأربعة . فقال جوندرا :
« حسناً ، سيكون ثمّة اجتماع غداً ، يحسن أن تصحب هم إليه ! »
وكان الأب يدرك نفور همناليتي من الاجتماعات العامة ، فنظر نحوها
يعترف رأيها ، وإذا ذلك صاحبت الفتاة بحماس قوى : « اجتماع ! ..
ومن الخطيب ؟ » . فقال (جوندرا) : « دكتور ناليناكشا » . فردد
الأب في عجب : « ناليناكشا ! » . قال الابن : « إنه خطيب رائع »
كما أن له تاريخاً عجبياً ينطوي على نكران الذات وعلى المشاورة ..
إنه واحد في المليون ! .. ومع ذلك فقد كان جوندرا قبل ساعتين
لا يعرف عن (ناليناكشا) سوى إشاعة عابرة مبهمة !

وقالت همناليتي وهي تصطلع الاغباط : « حسناً يا أبت . يجب
أن نذهب فنستمع إلى هذا الخطيب ! » . وما كان أنادا ليخضع بما أبدته
همناليتي من لطف ، ولكنه شعر — مع ذلك — بشيء من الارتياح . فقد
خيل إليه أن همناليتي إذا ما عاودت الخروج إلى الدنيا والاختلاط مع

ابتدأها ولد أتب — رغم ما قد بكلفها هذا من عناء وجهود — فلن تلبت
أن تعود إلى حالتها الطبيعية ، فإن أضمن علاج للعلل النفسية ، هو
الاختلاط بالناس . ومن ثم قال لجوندرا : « حسناً ، غداً إلى ذلك
الاجتماع غداً ، ولكن ، حدثني الآن بما تعرفه عن ناليناكشا ، فإن
المرء يسمع عنه روايات متباينة » . وهنا شرع جوندرا يشن حملة
على هبة الفتاة الفضاخ عامة . قائلاً : « إن المتطرفين في الدين يظنون أن
النساء أثرتهم عند مولدهم برخصة تباع لهم تقبيح أبناء جنسهم والإساءة
إليهم . دون تورع . وليس ثمة من هم أبعد عن الخير ، وأمعن في الشر
من تجار النوى » هؤلاء ! »

وقال الأب بجملاً : « إنني معك في هذا الرأي .. إن مثابة المرء
على تناول سطلات جيرانه ، تحمله ضيق الدهن ، كثير الوسوس ! »
وإذا ذلك هتف جوندرا : « ما هذا يا أبت .. أتغمر في هذه الوخزة ؟
إنني لست على شاكلة أولئك المتدينين ، كما تعلم ، إذ أنني أجيد
الإطراء والتقدير ، بقدر ما أجيد النقد واللوم ! » . فسارع أنادا قائلاً :
« لا تكن غيباً .. ما كنت أقصصك في الواقع ، فأنت أدرى مني
بنفسك ! » .. وتحول جوندرا بعد ذلك يروي قصة ناليناكشا ، مضيقاً
على الموضوع كل ما أوتي من بيان وبلاغة . وانختم حديثه قائلاً :
« لقد كبت ناليناكشا رغباته الطبيعية وذهب للإقامة في بنارس . لكي
يسعد أمه . وقد استغل كل أصدقائه المتطرفين — يا أبت — هذه
الفرصة : لبشعوا عنه أقاويل مشينة . والله أني شخصاً أعجب
بمسلكه . ما رأيك يا هم ؟ » . فأجابت : « إنني من رأيك » . وإذا ذلك

قال : « كنت موقناً من أن هم مستقر مسلكه . ولا يدانخلي الشك في أنها أهل لأن تبدى مثل ما أبداه من تكران الذات - لتسعد أباه - إذا ما سحبت القرعة » . ورمى (أنادا) ابنته في حنان : فتخرج وجهها . وغضت بصرها في ارتباك .

الفصل الحادى والأربعون

● عاد أنادا بابو وهمنالينى من الاجتماع في ساعة متأخرة من أصيل اليوم التالى . وقال الشيخ وهو يجلس إلى مائدة الشاي : « كان الحديث طيباً بالفعل ! » . ولم يدل بتعليق آخر ، ولكن عقله راح يعمل في استغراق ، حتى أنه لم يلفظ إلى همنالينى حين تسلمت صاعدة إلى الطابق العلوى بعد الشاي . كان المحاضر - ناليناكشا - يبدو صغيراً على المنصة إلى درجة غريبة .. كأنه قتي باقع . فع أنه استكمل نضوج شبابه . إلا أن ملامحه ظلت تحتفظ بنضرة الصبا ، وكان إلى هذا محوطاً بنحو من الجلال الروحى ، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق نفسه . وكان موضوع محاضرتة هو : (الخسارة) ، وملخصاً أن لا كسب حقيقياً بغير خسارة . وما تحصل عليه دون جهد ليس من الكسب الحقيقى فى شىء : فليس ثمة ما يحق لنا أن ندعى أننا نملكه - بكل ما فى الكلمة من معنى صادق عميق - سوى ما نناؤه بالضحية . والذي يرى مقتنياته تتبدد وتقل من قبضته ، تعيس حقاً . بيد أن النفس الإنسانية تسترد في الواقع - في عملية الخسارة والفقد - القوة على الكسب .. كسب ما فقدت . مع الفوائد !.. وإذا استطعنا ، حين نغنى بخسارة ، أن نحني رءوسنا »

ونضم أيدينا في خشوع لنقول : « إنها نعمة .. فالحرمان نعمة ، والحزن نعمة ، ودموعي نعمة ! » ، فإن كل شىء - حتى أفتة الأشياء - يكتسب في نظرنا قيمة ومعنى .. ويتحول الشىء المحدود الأجل ، الثاني ، إلى شىء خالد ، أبدى ، وما هو مجرد أداة أو وسيلة لنفعنا اللبوى - يصبح موضوعاً جديداً يضاف إلى كل ما نعتز به ونعتبده ، ونذكره أبداً الدهر بين كتوز معبد قلبنا !

وتركت كلماته أثراً عميقاً في نفس همنالينى ، وشعرت - وهي تجلس في تفكير صامت على سطح الدار ، تحت السماء المرصعة بالنجوم - بأن قلبها كان يزخر بالعواطف . وبأن الأرض والسماء لم تعودا خاويتين - فارغتين . كما كانت تراهما من قبل !

أما جوجندرا . فقد قال لأكشاي أثناء عودتهما ، بعد المحاضرة : « لقد عرفت كيف تخنار أربع متكلم ! ولكن ، لشد ما هو متصوف في فلسفته !.. إننى لم أفتة نصف كلامه ! » .. فقال أكشاي : « لا بد للمرأة من أن يشخص المرض قبل أن يتمكن من وصف الدواء الذى يحتاج إليه المريض . إن همنالينى تعاني خيبة أمل من جراء رامش ، فهي محتاجة إلى فلسفة روحية تنتشلها من قنوطها . والناس العاديون - مثلك ومثلى - لا يملكون أن يعدوها بهذه الفلسفة . ألم تتأمل وجهها أثناء حديث الخطيب ؟ » ، فقال (جوجندرا) : « بل تأملت .. كان من الواضح أنها أعجبت بمادة المحاضرة ، ولكن هذا التقدير لا يعنى أنها مستعدة لأن تمنح يدها للمحاضر ! » . وعاد أكشاي يقول : « أراها كانت تتأثر بالمحاضرة لو أن أحداً منا ألقاها ! »

لشخص عديم القيمة ، متواضع المقام مثلي ، فأني حافز على انتقاد مثل ذلك النابعة سوى الغيرة . ولعلكم تحقّقون الآن من أن أولئك النوابيع الممّنّين يجب أن لا ينجسوا إلا على البعد ، وأن ليس من المأمون أن يتبل المرء واحداً منهم خطيباً لأخته . فصاح جوجندرا : « لن نتعنى مطلقاً يا أكشاي بأنك كنت أول من اكتشف حقيقة رامش ، ولو قلت ذلك ألف مرة .. إنما كنت تحقد عليه ، فلم تكن ترى في أي عمل يأتيه صواباً ! »

* * *

■ وما أن دخل جوجندرا وأكشاي غرفة أنادا « حتى تسلمت همناليني من الباب الآخر ، فقال أكشاي في نفسه : « لا بد أنها كانت تطل من النافذة . فرأيتها مقبلين » . وابتسم وهو يتخذ لنفسه مجلساً بجوار أنادا ، قائلاً : « إن كلمات ناليناكشا تنفذ إلى القلب ، لأنها منبعثة من القلب ! » فقال أنادا بابو : « إنه موهوب بالفعل ! » .. فصاح أكشاي : « موهوب ! بل أكثر من ذلك .. إنه أكثر من يمشون على الأرض نصيباً من خصائص الأبرار والقديسين ! » . ومع أن جوجندرا كان زميلاً له في المؤامرة ، إلا أنه لم يتالك أن صاح : « لا تتكلم بالله عن الأبرار والقديسين ! .. لتخطفنا السماء منهم ! » . فقال أبوه : « لا يا جوجن ، لا تتكلم بهذه اللهجة : فإني شخصياً أؤثر أن أعتبر جميع من يلوح عليهم الخير في مظهرهم « أخياراً » في باطنهم كذلك : وقد أخطئ في حكمي ، ولكن هذا بالتأكيد أفضل من أن أرتاب دائماً في الطيبين الأبرار ! ثم إن ناليناكشا لم ينجس مادامه لم ينجس كفاً الحق .

على النساء : صدقني يا جوجن .. لو أنك قعنت أي شخص همناليني لتقارنت بينه وبين (رامش) : ولما خرجت من المقارنة بنتيجة طيبة . أما ناليناكشا فليس شخصاً عادياً . ومن ثم قلن يخطر ببالها أن تقارنه بأي شخص آخر . وإذا أنت قدمت إليها أي شاب عادي . لاستطاعت أن تخدس الباعث . فبهب عتلتها ثائراً . أما إذا ابتكرت وسبة تستطيع بها إحضار ناليناكشا إلى داركم . وقدمته إليها . فلن تخامرها أية ريبة ! ثم لا يثبت التحول أن يتم تدريجياً وبسهولة . بخير : الإعجاب والتقدير فقط ! » . فقال جوجندرا : « إنني لا أميل إلى التلاعب بالأنفاس . وإنما أؤثر الصراحة .. وأصارحك بأن ذلك الشاب لم يحدث أراً كبيراً في نفسي ! »

قال أكشاي : « سيذهب كل شيء أدراج الرياح » إذا زججت فيه بأهوائك وميولك الخاصة ، إذ ينبغي أن لا تتوقع أن تجد كل شيء وفق هواك ! .. لن ننجح إلا إذا أغربنا همناليني على نسيان رامش تماماً ولا نتصور لحظة أن بوسعك أن تحقق هذا بالشدة . يجب أن نتبع نصيحتي بعداغيرها إن شئت أن تصل إلى النتيجة المرجوة . » . قال (جوجندرا) : « كل ما في الأمر أنني أجيد شيئاً من القموض يخبئ بالذكور ناليناكشا ! » ، فصاح أكشاي : « لقد كنتم نغمضون أعينكم منذ البداية إزاء رامش .. كنتم تحسون الظن به في كل شيء .. كان في رأيكم متهماً عن الخداع . وأعظم فيلسوف منذ عهد (سانكارا تشاريا) أما أنا ، فما كنت أميل لرامش . فقد رأيت في حياته كثير من عن على شاكلته . ولكنني لم أكن أجرو على أن أفتح في : فما كنتم تصدقون أن

الفصل الثانى والأربعون

● كان أنادا بابو - قبل الأرملة التى اعترضت (همناليني) - يستمتع بصحة جيدة . ومع ذلك فإنه لم يكن يكف عن تناول الحبوب المهضمة التى يحقنها أطباء الشرق والغرب ! على أنه أصبح يعاف كل الأدوية . متاعبه الصحية شغله الشاغل حين كانت مجرد أوهام . أما حين صارت واقعية . فإنه لم يعد يحفل بأمرائه مطلقاً !

وكان قد استسلم للتعاس . في مقعده - حين سمعت (همناليني) وقع قدمي (جوجندرا) على السلم . فأسرعت إلى الباب تذهبه حتى لا يزعج النائم . واستاءت إذ فوجئت (بناليناكشا) مع أخيها . وأوشكت أن تنعورها إلى غرفة أخرى . لولا أن بادرها (جوجندرا) قائلاً : « هيم .. لقد أحضرت (ناليناكشا بابو) . فتعالى أقدمه إليك ! » .. ووقفت الفتاة مستاءة . بينما ألقى القادم بخيها دون أن يرفع بصره إلى وجهها . واستيقظ (أنادا بابو) في تلك الأثناء : فنادى ابنته .. وأسرع إليه هامسة بأن (ناليناكشا بابو) في البيت . بينما دعا (جوجندرا) الضيف إلى الدخول .

فقبض (أنادا بابو) مرحباً . وهو يقول : « إننا سعداء حقاً بزيارتك لنا .. أعرفك يا بنيتي (همناليني) يا (ناليناكشا بابو) .. لقد كانت معي تستمتع بمحاضرتك منذ أيام . وقد أفدنا منها حقاً . على أنني أعجبت ببقعة في المحاضرة . وهي التي ذكرت فيها أننا لا نفقد ما يتاح لنا يوماً كسبه فحسب . وإن الكسب غير التام هو في الواقع خسارة ! إننا الحقيقة بالفعل . ألا توافقين يا هيم ! »

وإنما استمدها من تجاربه الروحية . وقد وجدت رسالته جديدة . ومهمة أيضاً ، حتى لقد ساورني الميل إلى أن أذهب إليه فأشكره شخصياً ! » .. فقال أكشاي : « كان ما أخشاه أن لا تحصل صحته آنز هذا النشاط الذى يبذله .. إنه يقضى كل يومه في الصلاة والدراسة والكتابة . دون أن يلقى بالا إلى صحته . » وقال أنادا : « هذا خطأ عظيم منه . إننا لا نملك حق إهمال أبداننا . لأننا لسنا خالقينا . وبالتالي لسنا مالكيها ! .. ثم إن صون الصحة لا يتطلب من المرء سوى بعض قواعد بسيطة : أولاً : ... » وهنا نداء صبر جوجندرا فقال : « كل هذا خارج عن موضوعنا .. إن ناليناكشا في صحة جيدة . حتى إنني خلت .. حين قابلته بعد ظهر اليوم .. إن حياة الناس تعزز صحة البدن !

قال أنادا : « الواقع إنني أميل إلى الأخذ بصحة ما قال أكشاي . فإن أغلب عظمائنا يموتون شباناً .. وهم يقولون من نفعهم لبلادهم حين يسهلون صحتهم . أعتمد أنك عظمي في تقديرك لصحة ناليناكشا بابو .. إنه موهوب . فخلق به أن يتلقى النصيح للعناية بنفسه ! » .. فقال أكشاي : « اسمع .. سأدعوه إلى هنا وأقدمه إليك . فقلعك تتحدث إليه في هذا .. وأعتمد أنك ما إن تأخذ بيد ناليناكشا بابو ، حتى ... » .. فتغفر جوجندرا على قدميه قائلاً : « أكشاي .. إنك توشك أن تدفعني إلى الجنون ! .. إنك تسرف في اللغو .. لم أعد أطيق هذا .. » واندفع إلى خارج الغرفة . متأدياً في التظاهر بأنه غير راغب في تردد ناليناكشا على دارهم !

إلا إذا أفلت من يده ما كان يفتيه . إن لي رجاء يا (نالين بابو) . ذلك هو أن تزورنا من وقت لآخر . لتجاذب أطراف الحديث . لسوف نعد هذا صديقاً كبيراً . فنحن لا نغادر البيت عادة ! » .

ورمق (نالينا كشا) وجه (هناليني) الذي كان يتم عن اعتداد صاحبه بنفسها ، وقال : « لا تظنوني متحذلقاً لأنني استخدمت في محاضرتي عبارات علمية معقدة » فما فعلت ذلك إلا لأجل الطلبة على أن لا يعودوا إلى إحراجي لألقى عليهم محاضرات . ! . والحق أنهم لم يكتفوا أن ثلاثة أرباع ما قلت تعذر عليهم فهمه . ولقد لاحظت عليك الشيء ذاته يا (جوجن بابو) فلم تفتني نظراتك إلى ساعتك ! . . . وهم (جوجندرا) بأن يعتذر ، فقال (أنادا) : « لا عليك يا (جوجن) فهناك أمور لا يفهمها الناس إلا في سن معينة ! . . . فقال (نالينا كشا) : « أجل . . . وفي سن معينة لا يحتاج المرء إلى فهم كل شيء ! » .

وقال أنادا : « وبهذه المناسبة يا (نالين بابو) أحب أن أحدثك في أمر ما . أن الخالق يرسل من هم على غرارك إلى الدنيا لأداء رسالات معينة ، ومن ثم لا ينبغي أن تسهرن بمحقوق بدتك عليك ؟ . . . فقال نالينا كشا : « ما اعتقد إلا أنك لن تلبث - إذا ما توثق تعارفتنا - أن تثبين أنني لا أسهرين بشيء في الدنيا . إنني حين ولدت كنت عالة على سواي ، فطلبت تربية عقلي وجسمي جهوداً ورعاية من كثيرين . ومن ثم فإني أؤمن بأن ليس من حق المرء أن يقضى على الشيء الذي لا يستطيع بنفسه إنشائه ، وإنما يعتمد في ذلك على سواه ! » .

وهنا استأذن (جوجندرا) في الانصراف للحاق بتوعد فهم (نالينا كشا)

أن يخذو حذوه . ولكن (أنادا) قال له : « أرجو ألا تحفل (جوجندرا) فإنه يحيي وينصرف على هواه . ومن العسير أن يستقر في البيت ! » . وإذا انصرف جوجندرا . تحول أنادا بابو يسأل (نالينا كشا) عن المكان الذي يقم فيه . فضحك هذا قائلًا : « في الواقع لا أستطيع أن أقول أي قوم في مكان معين . فإن لي معارف كثيرين . وهم يتناسون في استضافتي . على أن المرء يحتاج إلى شيء من الهدوء والدعة . بين آن وآخر . ومن ثم فقد استأجر لي (جوجن بابو) المسكن المجاور لداركم . : . . وسر (أنادا بابو) . ولو أنه التفت نحو ابنته إذ ذاك : للاحظ الألم الذي غشيها . فقد كان ذلك المسكن لرامش يوماً !

وأعد الشيء في تلك الأثناء . فدعا أنادا بابو ابنته إلى أن تقدم للضيف فدحاً . ولكن نالينا كشا اعتذر . . ثم خيل إليه أنه قرأ على « الامح هناليني » أنها أسامت تفسير اعتذاره . فقال ونظراته على وجهها : « لا تظني لحظة أنني أضمر شيئاً من التحامل على عاداتكم . فالواقع أنني اعتدت في فترة من حياتي أن أتناول الشاي بانتظام . ولكنك لا تعرفين ولا شك أن آراء أي بشأن الطهر الروحي شديدة العنت . وهي الآن وحيدة . ليس لها في الحياة سواي . ومن ثم فلا بد لي من أن أجنب كل ما يعرف الود بيننا . وهذا امتنع عن الشاي . وإن كنت أشارككم المتعة إذ أراكم تنعمون بشربه ! » .

وكانت عبارات (نالينا كشا) الأولى أشبه بصدمة لهناليني . فقد تبينت أنه في محاضراته لم يكشف شيئاً من حقيقة نفسه . (إنما كان يخفي شخصيته الحقيقية وراء ستار الحديث . إنما ينبغي لم تلميذه أن يفهم أنه كان

عاجزاً بطبيعته عن أن يتحدث إلى الأغراب دون أن يلزم شيئاً من الكلفة .
وأن الخجل كان يحميه في لقاءاته الأولى بالناس على أن يتقرب باعتدال
معتدلاً يخاف حقيقة فطرته . وكان هذا هو السر في أنه حين تبار (جوجندرا)
للانصراف . أراد أن ينصرف معه إذ أوحى إليه نفسه بأن (جوجندرا)
يريد أن يغدر به ويتخلى عنه ! على أنه حين تحدث عن أمه . بدأ شخصياً
آخر . حتى أن هناليني لم تمالك أن راحت تضحك فيه بإعجاب . وحين
قلبا إشفافاً عليه . حين تبينت ما تجل على وجهه من إخلاص صادق
عندما ذكر أمه ! وأوشكت أن تسأله عنها . أولاً لأن منعها الحياة .

وأخذت هناليني - بعد انصراف الضيف - تقرأ على أبيها مقالا
في مجلة بنغالية . حتى أغنى في مقعده .. فقد أصبحت الغفوات الطارئة
من عادات الشيخ في الفترة الأخيرة .

الفصل الثالث والأربعون

● لم يلبث التعارف بين ناليناكشا وبين أنادا بابو وابنته أن تطور
سريعاً إلى مودة . وكانت الفتاة قبل أن تعرفه تخال أن أحاديثه كلها
مقصودة على التواصي الروحية ، فلم تكن تصور أن يوسعها أن تتناول
معد - في حرية - كافة المسائل والموضوعات . ولكنها سرعان ما تبينت
أن اللباقة لا تموزه في الأحاديث العادية ، وإن لاحظت أنه كان ينجح
أحياناً - في أوج الحديث - إلى لون من الانطواء والتحاشي . وحدث
في إحدى المرات أن قال جوجندرا فجأة . موجهاً الكلام إلى أبيه :
« إن أبناء الطائفة يا أبت بدأوا يسموننا » تلاميذ ناليناكشا بابو . وقد

تشاجرت مع قتي منهم لذلك ؟ » . فابتسم أنادا بابو قائلاً : « لست أرى
في هذا ما يؤذي الشعور . بل إنه ليخجلني أن أنتهي إلى طائفة كل
أهلنا أستاذة » وليس بينهم تلاميذ ! » .

وهنا قال ناليناكشا : « وأنى لأنصوي تحت لوائك يا أنادا بابو :
فيمكن جميعاً تلاميذ . ولنتم بحولات نتوقف فيها عند كل موضع نرى
أن يوسعنا أن نتعلم فيه شيئاً ! .. » ولكن جوجندرا لم يكن يري إلى هذا ،
فعاد يقول : « ولكنها مسألة خطيرة . إن كل أصدقائك يا (نالين بابو)
لا يستطيعون أن يزوروك دون أن يمدحوا بأنهم تلاميذك ! وعندى أنه
يجدر بك أن تتخلى عن بعض تصرفاتك التصوفية .. لقد بلغني أنك
تتنفس كما يفعل أفراد مذهب (اليوجي) . وأنتك تطيل تأمل الشمس
في شروقها . وأنتك لا تقدم على أكل أو شراب ألا بعد طفوس خاصة ..
ولن يؤدى هذا إلا إلى أن تعتبر « خارج محمدك » بالنسبة للمجتمع . على
حد هذا التعبير الدارج ! » .

وغضت (هناليني) حياء من لجة أخيها ، ولكن (ناليناكشا) ابتسم
قائلاً : « إنني أفر بأن الرجل الذي لا يتشكى مع المجتمع العادي غالباً
ما يكون منحرفاً . ولكن - هل من المؤكد أن ليس في وسع إنسان أن
يظل دائماً خارجاً على مجتمعه ، كما لا يمكن للسيف أن يظل بعيداً عن
غمده وقرابه ؟ ! .. إن الجزء الذي يخفيه الغمد من السيف ، هو أهم
أجزائه .. أما الجزء الذي يظهر منه - وهو المنقبض - فهو الجزء الوحيد
الذي تبدو فيه الضعفة : إذ ينقش عليه الصانع ما يروق له من نقوش :
وفق مزاجه الخاص . كذلك الأمر بالإنسان ، فهو لا يستطيع أن

يعرض ميزاته الخاصة إلا خارج نعمة المجتمع . فما أراك رغباً في أن
تحرره هذه الحرية ! .. على أن الذي يدهشني هو كيف يمتلئ الناس
بأن كيف يجدون الفرصة ليناقشوا فيها بينهم ما فعلته في خواتم بعيداً عن
عيون الناس ؟

فقال (جوجندرا) : لعلك لا تدرين أن أولئك الذين أخذوا على
عاتقهم مهمة تغيير الدنيا . يرون أن من واجبهم أن يقيموا ما يرى في
بيوت جيرانهم . فإذا أعوزتهم المعرفة . استعانوا بتوجيه أخرى لبدء
هذا النقض . ثم لأناس ياتين بأمر أن يقال المرء على أمور غير عادية
— ولو في خلواته — هو الذي يجذب انتباه الناس إلى أعماله . ولو أنك
سرت على العرف المألوف . لما التفت إليك أحد . ألا ترى أن (هم) لاحظت
الغريبات التي تقوم بها على سطح دارك . وتحدثت مع أبي بشأنها . رغم
أنها لم تدع لنفسها الحق في إصلاحك !

وبدا على همناليني الاستياء . وهمت بأن ترد على أخيه . لولا أن
التفت إليها نالينكا قائلاً : « ليس ثمة ما يدعو إلى الاستياء . فبني ذنب
في أن تستر وحى النسبات على سطح دارك عند المساء . بينما تكون منزلك
في تدرجياتي ؟ .. وليس يعيبك أن تكون لك عينان تبصران ! .. فقال
(أنادا) : « ولكنها لم تخبرني مطلقاً بأنها ترى في مقوس عبادتك ما يجب ! »
.. وإذ ذاك قال جوجندرا : « لست أفهم ما الذي يشعلك من السبر
العادي لحياة البشرية . فلماذا لا تسلك مثل الناس العاديين .. وأنت تضع
في أن تمارس طقوساً غريبة في خلوة تحوص على نكتهما ! .. أرجو
ألا تغضب من قولي هذا . فأنا إنسان جيد عادي . أقمع بتكافئي في

الصفوف المتواضعة . ولا أطمع في التطلع إلى المقاعد الرفيعة . اللهم
إلا لأرجوها بالطوب ! ولا حصر لمن حم على شاكلي . فإذا أنت تركتهم
وراءك لترقى إلى عالم بعيد عن الواقع . أصبحت هدفاً لما لا حصر له
من انطوب ! .. فقال (نالينكا) : « ولكن الطوب أنواع .. فليضيبر
المرء أن تمنعه بأنه مجنون . أو قاصر العقل . ولكنك حين ترميه بأنه
متوس دني فلنما تنهه بأنه يقيم نفسه نبياً ويحاول أن يجمع حوله
حواريين . ولن يقوى شيء على توبته من هذا الهزل ! »

ولم يشأ جوجندرا أن يخشى في الجدل . فالتمس حجة للانصراف .
ولبث همناليني منكسة الرأس وهي تعبت بطرف غطاء المائدة . ولو
أن أحداً أنعم النظر في عينيها . لرأى دمعين تراقصان على أطراف
أهدابها ! .. كان اتصالها اليومي بنالينكا قد كشف لها عن مواطن
النقص في شخصيتها . فراححت تكافح جهادة لتسلك الدرب الذي
سلكه ! . فلقد أظهر نالينكا الدنيا لها . في ساعة محنتها . وهي تلتفت
حولها تشد شيئاً من العون — في ضوء جديد . فأخذت تزداد انصباعاً
لفكرة التي تولدها . والتي راحت توحى إليها بأن تلزم نفسها نظاماً قاسياً
لترويض هذه النفس ، عسى أن يكون في الترويض عون . ثم أن الأسى
ليس من المشاعر التي تقنع بأن تقوم كمجرد إطار يحيط بالذهن ، وإنما
هو يبحث عادة عن متنفس له . خلال الإنشاء لصاحبه بأن يشغل نفسه
بعمل صعب . وكانت همناليني حتى ذلك الوقت تحشى العلانية . وتكتم
حزنها في أعق الترف الخفية من قلبها . ومن ثم كان ارتباطها كبير أحيان
قررت أن تقف خطوات نالينكا كشاً . وأترويض نفسها على نظام تصوفي

روحي : فجددت غرقها من زيتها ، ولم تسبق فيها سوى سريرها الذي
أنقذته وراء ستار . وأصبحت تنثر الماء على أرض حجرتها وتكنسها
بيدها في كل صباح . ولم تحفظ من زينة العرقة بغير آية للزهور .
وصارت ترتدي - بعد الاغتسال في الصباح - ثوباً ناصح البياض .
ثم تجلس على الأرض ، والشمس تدفق خلال النافذة . ثم تسبح روحها
في ضياء السماء وهوائها ! .. واغبط (أنادابابو) للإشراق الذي أضفته
هذه الرياضة الروحية على حياتها . وعندما كان ناليناكشا يقف على الدار -
كان نالانهم يجلسون على أرض حجرة (همتاليني) لينجذبوا لأطراف
الحديث .

ولم يكتم جوجندرا استهجانه . فقال ساخراً : « لست أدري ما الذي
أصباكم جميعاً ؟ .. أنكم - فيما بينكم - قد حولت البيت إلى أرض مقدسة .
فلم يعد فيه موطنٌ لقدم شخص مثل ا » . وكانت همتاليني تشعر في
بعض الأحيان بأن في حديث أخيها ما يبرح شعورها . ولكنها أصبحت
حذرة لحدوث ناليناكشا في عدمه وتساكه . فتكتفي بأن تبتسم . فقد عثرت
أخيراً على عون أكيد ، لا يخيب . فأصبحت ترى في الخجل أو الاستحياء
ضعفاً مزرياً ! .. وكانت تدرك كل الإدراك أن معارفها اعتبروا
تقشفها هذا ضرباً من التوبس . ولكن ثقها في ناليناكشا وإعجابها
بمبادئه منحازها السالاح الذي تخصصت به ضد الجنس البشري بأسره .
فأصبحت تواجه الدنيا غير متحرجة . وحدث ذات صباح أن اختلعت
وأدت طوقوسها : ثم جلست في خلوة على أرض غرقها . أمام النافذة
المفتوحة . مستغرقة في التأمل . وإذا بأنادابابو يقبل مصطحباً (ناليناكشا)

وكان قلب همتاليني قد أقغم بالتردد والتواضع . فسجدت أمامهما .
ومست الغبار العالق بأقدامهما . الأمر الذي جعل ناليناكشا يشعر
بالاستياء . ولم يكن من عادته أن يلزمهما في مثل هذه الساعة المبكرة .
فأخذت همتاليني تنطاع إليه متسائلة : « وما لبث أن قال أنه تلقى نياً من
(بشر من) بأن أمه مريضة . ومن ثم قرر أن يغادر (كالكتا) بقطار
المناء . وما كان سيقتضي يومه في التأهب للرحلة . فقد رأى أن يشد
ميكراً ليوذعهما .

وقال أنادابابو : « شديداً يترقب أن أسمع بعرض أمك . فعسى أن
تجيب نساء سقاء عاجلاً . ونحسب بيده المساعدة أن أذكر لك أنني لن
أستطيع قط أن أوفيك جزءاً مما بذلت لنا من عون في الأسابيع الأخيرة .
فقال ناليناكشا : « بل أنا المدين لك . فلقد أوليتاني أسهى مشاعر
الجريد . وتحسناً المتاعب في سبيل توفير مسكن مريح لي بيواركا .
ثم إن إخلاصكما أضفى معاني جديدة على المسائل العويصة التي كنت
عاكفاً على تأملها والتفكير فيها منذ زمن ! » . وهنا قال أنادابابو :
« من الغريب أننا - قبل أن نعرفك - كنا نعانى حاجة ماسة إلى شيء
ما لم نكن ندرى كنهه . ولا نعرف سبيلاً إلى تحديده . وفي تلك الآونة
المحيرة . ظهرت أنت على مسرح حياتنا ، فشرنا بأن لا غنى لنا عن
عونك . إننا قوم لانكاد نبرح دارنا . ولا نكثر من الاختلاط بالمتنوع .
ولم يسبق لنا أن أغرمنا بحضور الاجتماعات والاستماع إلى الأحاديث
ونحضر . وكانت همتاليني أكثر مني . فقلت لكاه نسمة من (جرجن)
فقلت لكاه نسمة من (جرجن) .

عن محاضرتك . حتى ذهبتا لسباعها دون أقل تردد . فكان هذا تصرفاً لم يسبقه مثيل في حياتنا . . . مثل هذا الأمر لا يحدث مالم يكن القدر قد ساقه إلينا . ليساعدنا في حيرتنا ! » فقال لنا لينا كشا : « إذن دعني بدورى أذكر لك أمراً . . لم يسبق في حياتي أن أدليت ببعض شئوني الخاصة لأحد غيرك ، إذ لابد لمن يريد بلوغ أسمى درجات الصلوق أن يكشف كل مافي سريره . وقد كان لمونتسكا الفضل في تمكينى من تحقيق هذا الواجب . وهكذا أؤكد لك أنى لم أكن لأستطيع أن أستغنى عن مساعدتكما ! »

ولم تشرك همتائى في الحديث ، ولكنها ظلت جالسة في ساحة الشمس . مستغرقة في التأمل . حتى آن لنا لينا كشا أن يتصرف . وإذا ذلك قالت له ببساطة : « لا تقصر في أن تطعمنا على صحة أمك . » وأخرى سمجت أمامه تواضعاً حين هم بالخروج !

الفصل الرابع والأربعون

■ كان أكشاي قد غاب عن البيت عن الفترة الأخيرة . فلما رحل (نالينا كشا) إلى (بنارس) . عاد جورجندرا يلدعو إلى الشاي . ودعاه أكشاي الأمل في أن يستين - من تصرفات همتائى - إلى أنى مابى كانت ذكرى رامش لا تزال متسلطة على أفكارها . ولكنها في الواقع بدت له في خير حال . وقالت في صداقة خلصة : « لم تعد تران بلا ذم ! » فرد متسائلاً : « وهل ترينى أهلاً لأن تروينى في كل يوم ؟ » فضحك قائلة : « إذا كنت ترى حقاً أن المرء يجب أن لا يزور أحداً إلا إذا

كان جدير بأن تقع عليه الأيصار . لوجب على الكثيرين منا أن يقضوا أيامهم في عزلة ! . وإذا ذلك قال جورجندرا : « لقد ظن أكشاي أنه يستطيع أن يفتقر بخاترة في التواضع . فإذا همتائى تتفوق عليه ! » على أنى أحب أن أعرب عن رأيي في هذا الصدد . إن أمثالي من الناس العجيبين . فاق مناسيون في كل يوم . ولكن هناك أفضاذا . شواذا . لا يستطيع المرء إحاطته إلا مالم . ولا يقبل لقاءهم كثيراً . ومن ثم فهم يعمرون في الغابات . واجبات . ولوهاد . ولو أن المقام استقر بهم في ميوت كيفية الناس ، لاضطر المتواضعون . من أمثال جورجندرا وأكشاي إلى أن يضلوا بدلاً منهم في الغابات ! »

ولم يفت همتائى ما انطوى عليه حديثه من محزة لاذعة . ولكنها لم ترد عليه . وإنما تحولت فعبثت الشاي في الأقداح للرجال الثلاثة . حتى إذا سادها الخمرها : « ألن تتناولوا شيئاً من الشاي ؟ » . قالت في شت وهي تترك أنفها لن تجو من ثقبها : « لقد عدلت عن تناول الشاي فنهضت : إذن . فقد أصبحت زاهدة بمعنى الكلمة . لعل أوراق الشاي لا تحوى على مقدار كاف من النكهة الروحية الصادقة ! لا . هذا أكثر مما يتقبله المرء . فدعى هذا التهورس ياهيم . بحق السماء ! . . » وحسب أكشاي في فحس وضعه أمامها . ولكنها قالت دون أن تمسه : « عجباً يا بيت . . . أنت لم تأكل شيئاً مع الشاي ! » . فاجاب أناداً بابو وصوته وبناداً راجف : « صابني يا عزيزتى إذا قلت أن أى شيء أكله الآن سوف يفت في سبقي فيخفنى . لقد ظننت أنى طويلاً أحاول أن أتقبل في صمت حضرة جورجندرا . حتى بلغنا . . . »

إذ ذاك نهضت همناليني . فسارت إلى مقعد أبيها ، وقالت : ولا تغضب يا أبي . كان كرمًا من جوجن أن قدم لي القدر : ومن ثم لم أشعر بأقل استياء . هيا . تناول بعض الطعام . فأنا أعرف أن الشئ لا يناسب معدتك . ما لم تأكل معه شيئًا ! » . ووضعت أمامه طبقاً مليئاً بالكوك . فشرع يأكل في تناقل . وعادت همناليني إلى مقعدها ، وجمت بأن تشرب قدرج الشئ الذي صبه لها جوجننرا . لولا أن ففز أكشاي قاتلا : « اسحق لي بهذا القدر . فقد فرغت من قلبي ! » . ونهض جوجننرا فأخذ القدر من أخته ، وتحول إلى أبيه قاتلا : « آسف . اغفر لي ! » . ولم يترك أناداً صورته ، وترقرقت الدموع في عينيه : فانسحب جوجننرا وأكشاي من الغرفة في صمت . وبعد لحظات . نهض أناداً بابو فأنهض ذراع ابنته ، وصعدا معاً إلى الطابق العلوي ..

وفي تلك الليلة ، انثابت أناداً بابو نوبة من الألم . فاستدعى الطبيب الذي ذكر أنه مصاب بالتهاب معوي ، ونصح له بأن يمكث عاماً - أومسث أشهر على الأقل .. في مكان ريفي للامتصاص . وقبل الشروع به . أنخفت وطأة الألم وانصرف الطبيب : « لنذهب إلى بتراس فسنرى فترة من الزمن يا عزيزي هيم ! » . وكانت هذه المذكرة قد انحسرت بهال (همناليني) في الوقت نفسه . إذ أنها كانت قد شعرت غيب . حيل (ناليناكشا) بتراس في عبادتها ورياضتها الروحية . كأنها أصابها حساسية في غيابه نوع من القصور . وقد حاولت في اليوم التالي أن تتبع تعاليمه في اهتمام متضاعف ، وأنخذت جهد نفسها في ذلك . بيد أنها أحسّت بضرورة دفع الدموع إلى عينها . وعندما حان موعد الشئ . حاولت أن تبدي

مرحاً وكرمًا . ولكنها أحست بكابوس يثبم على قلبها وعالودها ألم التكريبات القديمة ، ولوعة الحيرة التي اكتنفها من قبل . لذلك جاء فقرح أبيها في موعدة الملاثم ، وصادف هوى من نفسها . فاحتضنته قائلة : « أجي . دعنا نرحل إلى هناك يا أبت ! » .

وإذ لاحظ جوجننرا الاستعدادات التي كانت تبدي في اليوم التالي ، مال عما هناك . فقال له أبوه أنه وهمناليني راحلان إلى الريف : فسأله (جوجننرا) : « وإلى أي مكان في الريف ؟ » .. فأجاب أناداً ، وهو صبي صغير ، أن يصارحه : « ستقوم بتولية في الريف قبل أن تستقر في مكان . فقال جوجننرا : « كم يؤمضي أن لا أستطيع أن أهيكلها . فاستدعت همنالينا لأحصل على منصب في التدريس ، ولا بد لي من أن أغير الموضع ! » .

الفصل الخامس والأربعون

■ عاد رامش من (الله آباد) إلى (غازيبور) في ساعة مبكرة من الصباح . وكانت الطرقات شبه خالية . وبدأت الأشجار التي كانت تعف بها منكشة كما لو كانت تنشئ الدفء من البرد اللاذع ! ونجم على كل مكان خضاب بدءاً كالجمجمة الزرقاء على بيضها . ولم يكن رامش - وهو مبتعث في معظم فضفاض . في العربة التي ألقته إلى داره - . ليس شعر بغير وجيب قلبه المليوف . وتوقفت العربة لدى الباب الخارجى فغادرها . لا بد أن كمالاً قد سمعت صوت العجلات . فنهضت لانتظاره في الشرفة . وكان قد حل لها من (الله آباد) قلامة خبيثة قتال على يديها من حبيب

معطفه إذ ذاك . ولكنه حين ازداد اقتراباً من المبني - التي جميع الأرباب مغلفة ، وقد استسلم (بيشان) - الحارس - للنعاس في الشرفة . وتوقفت برهة مكتئباً : ثم صاح ينادي (بيشان) . وهو يرجو أن يوقظ صوته نائماً آخر كان يهفو إلى لقائه ! .. ما كان أبعد هذا الاستيقاظ لخصص سهادته اللهفة والشوق ! .. وعاد يكرر النداء . ولكن (بيشان) لم يستيقظ . فاضطر في النهاية إلى أن ينهره . وما لبث الحارس أن استوى جالساً . وتلفت حوله في حيرة . فهتف به رامش : « هل مولاتك في الدار ؟ » .. فأجاب الرجل بصوت أثقله النعاس : « أجل ! » .. ثم عاد إلى نومه !

وانفتح باب الدار لأول دفعة من يد رامش ، فدخل هذا . وراح يطالع في كل غرفة . فإذا بها خالية . وصاح متنادياً : (كمالا) . ولكنه لم يتلق جواباً . وجلس في أرجاء الحديقة . وبحث في المطبخ . وفي غرف الخدم وفي الحظيرة ، دون أن يهثر لـ (كمالا) على أثره . وفي تلك الأثناء كانت الشمس قد أشرقت . وانطلقت الغربان تتعق . وظهرت قبانان أو ثلاث من القرويات يحملن الجرار على رؤوسهن . يتألفنها بضعه . وعاد رامش إلى مبني الدار . فإذا ببيشان مستغرق في النوم ثانية . فحين يزد في عنقه . حتى إذا أفاق أخيراً ، ففزع مستورياً على قدميه . وسأله رامش : « أين مولاتك ؟ » .. فأجاب : « إنها في البيت بالمطبخ . » قال رامش : « هراء .. إنها ليست هناك ! » .. وأجاب بيشان : « ولكنها جاءت بالأمس » . فسأله : « وأين ذهبت بعد حينها ؟ » .. وشقيق (بيشان) إذ ذاك .. وأقبل (أومش) في تلك اللحظة . يحضن

العجين لظن السهر . فسأله مولاه : « أين الأم يا أومش ؟ » .. قال : « إنها هنا منذ أمس ! » ..
« وأين كنت أنت ؟ »
« استلقيت في لاسهد التثيل في دار (سيدو بابو) . »

وقف رامش إلى العربة ، وأمر الخوذي بالانطلاق إلى دار (العم) .. فإذا الاضطراب يسود الدار . واتجه فكره إلى أن (كمالا) قد فوجئت بمعرض ما .. ولكنه أخطأ الخدس . فقد أصيبت الطفلة (أوى) خلال الليل بمعرض جعل أهل الدار يتوقعون موتها . فلم يغمض لأحد منهم جنس : وخطر لرامش أنهم استدعوا (كمالا) لتساعدهم في تمريرها . ولكن (بيبي بابو) - الذي استقبله - لم يكن يدري إن كانت (كمالا) قد وفدت على الدار أو لم تفد . وأقبل (أومش) في ثلاث الأثناء . فنفذ إلى داخل البيت . وسأل (سايلاجا) عنها : فهضت هذه : عجباً .. ألم تذهب معها إلى داركم بالأمس ؟ .. لقد فكرت في إيفاد الخادم إليها في الليلة السابقة ، ولكن مرض أوى شغلني .. فهتف أومش في آذين : « إذن . فهي ليست هنا ! » .. وهنا صاحبت به سايلاجا : « ما الذي تعنيه ؟ .. أين كنت طيلة الليل ؟ .. وأين كان (بيشان) ؟ » .. فقال الصبي : « لقد استحققتي على أن أذهب لمشاهدة التثيل .. أما بيشان فلا يدري شيئاً على الإطلاق .. لقد أسرف في احتساء البيلج الخمر في الليلة السابقة ! »

وأمرته (سايلاجا) بأن يدعو إليها . حينئذ . وسأله : « هل كان (كمالا) لم تكن في دارها . حتى جاء في قبيضتي يدك في الدار مع

رامش بابو فاتحاً عنياً . واستقل الرجال العربية وعادا إلى دار رامش .
فراحا يستدرجان بيشان مرة أخرى . ولكن جهودهما لم تنتزع منه سوى
القصة الخفيفة التالية : « خرجت كمالا وحدها قبيل الغروب إلى النهر .
وقد عرض عليا بيشان أن يصحبها فأبى . ومنحته روبية . وجثم عند
الباب الخارجى بحرس الدار . وإذا ببائع يحمل قناراً مليئاً بشراب البلح
الحمر .. ولا يذكر بيشان ما حدث بعد ذلك ! » .. وأشار إلى نظائير
الذى سلكته كمالا نحو النهر . فانطلق فيه رامش وبيبين وأومش . بين
النباتات البتدية . للبحث عن كمالا . وتوقف ثلاثتهم عند ضفة النهر . فقد
كانت تمتد أمامهم مساحة شاسعة من الرمال المتوهجة تحت شمس
الصباح . ولم يبد خلال المنظر أثر لنفس حية ! .. وصاح أومش :
« آواه ، يا أماه ! .. أين أنت ؟ .. ولكنه لم يلق رداً ، الا يوم إلا رجوع
الصدى . وفيما كان أومش يتفرس في المكان . أبصر على بعد شيئاً
أبيض . فاندفع إليه .. وإذا بحزمة من المفاتيح مربوطة إلى متدليل .
ومقادع عند حافة الماء . ولم يكن ثمة شك في أنها مفاتيح كمالا ! .. وعلى
مقربة من المكان . رأوا آثار قدمين صغيرتين . مساواتا على الأرض
الرطبة . نحو الماء . ووقع بعصر أومش في الماء الضحل على شيء
يلمع . فأسرع إليه . وإذا به قلادة ذهبية مرصعة بالمنياء . كان رامش
قد أحداها إلى كمالا ! .. وإذا بدا جلياً أن كل هذه المظاهر تشير إلى
نهر (الجانج) . طار صواب أومش . فقفز إلى الماء صارخاً : « أماه ..
آواه ، يا أماه ! .. وراح يغتسل ويغتنو وهو يتخبط كاشحون .
وكان رامش مذهولاً ، مضطجع الحواس . على أن (بيبين) راح

يتنادى الصبي ، فكان أومش يصرخ : « لا .. لا .. لن أخرج من الماء ..
آواه يا أماه ! .. كيف تركيتني هكذا ! .. » وبعد لآي ، زحف إلى
النهر وارتقى على الرمل ليكنى في حرفة مريرة !

● أتى (بيبين) يند على كتف رامش يابه من وجوده الآسى .
قائلاً : « هيا يا رامش بابو .. لننا نضيع الوقت هنا . يجب أن نبلغ
الشرطة الأمر . لنلوا البحث والتحرى » .

ولم يحظ أحد من المحيطين بسايلاجا بشيء من الضمام أو النوم في
ذلك اليوم . بل راحت صبيحات الحزن تلهو في الدار .. واستوجر
بعض الصغار ليبحثوا في النهر . كما أرسلت الشرطة داوريات في أرجاء
ريف . وجررت داوريات خاصة في حفرة سكة الحديد . فبين أن
فطار الليل . لم يزل أثر فتاة تطيق عليها أوصاف (كمالا) !

ووصف (العم) بعد ظهر ذلك اليوم : قال ألم بالتفصيلات . وسمع
بما كان من تصرفات (كمالا) القريبة من الخطايا . ازداد انشاعاً
بها عرفت أنها في النهر . وإذا ذلك قالت الخادم : « الآن عرفت
حداً صريحاً (أول) وأصابها المرض الدائم في الليلة الماضية ! ..
وكانت الصدمة من القسوة على رامش بحيث جعلت الدموع تتحجر في
عينيه .. وأخذ يقول لنفسه : « من يتصور أن يتحنى نهر (الجانج) !
آهلاً . ثم يعود النهر ذاته فيبتلعها هكذا .. كرهرة طاهرة ألغها إلى
شئ من موت النهر ! .. وعاد إلى الضفة بعد الغروب . فظلاً واقفاً
في البقعة التي كانت المفاتيح مفاة عندها . يستل في آثار نفسه بين

الصغيرتين . ثم خلع عليهما ، ونزع عنه ثيابه حتى تحصره ، وخاض في الماء حتى منتصف الجب . وفي هدوء - تناول القلادة من صندوقها وألقى بها في النهر !

ولم يطل مقامه في (غازيبور) ، ولكن أهل دار (انم) كانوا على درجة من الحزن لم يفطنوا معها إلى غيابه !

الفصل السادس والأربعون

■ بلدا المستقبل أمام رامش فارغاً ، فلم يعد له أمل يصبو إليه . ولا عمل منظم ، ولا مقام يستقر فيه . ولا ينبغي أن ينظر أنه كان قد نسي هائلتي ، بل إنه كان يقصى ذكرها عن باله . قائلا : إن الضربة القاسية التي وجهها إلى القدر - جعلني لا أصلح لهذه الدنيا . فما أنا إلا شجرة عظيمة اجتثت من غابة يانعة ! .. وأخذ ينشد الغراء في الترحال ، متقلبا من مكان إلى آخر .. فشاهد معابا (بنارس) الوثنية وهو في سفينة على نهر (الجانج) . ثم توجه إلى (دلهي) - ونزل في (كنب منار) ، ثم رحل إلى (أجرا) حيث زار (الناج محل) في ضوء القمر . ومن (أمريتسار) بمعبدها الذهبي - رحل إلى (راجيبوتانا) فحج إلى الأضرحة المقدسة على جبل (آيو) . وما كان لجسده ولا لعقله أن يعرفا الراحة ، بعد أن استبدت به روح الترحال . على أن الحزن إلى بلدته ما لبث أن خالجه .. فحين إلى البلدة الآمنة . الواقعة . التي شهدت طفولته . والتي نسيها !

وأخيراً - استقل القطار السريع إلى (كلكتا) . وظل أياماً قبل أن

يجد من نفسه الجرأة على أن يزور حي (كالتوتولا) . وبلغ في أسد الأيام مدخل الحارة التي كان يقطنها . وفي الليلة التالية - استجمع جرأته وسار حتى بلغ دار (أنادا بابو) . فإذا النوافذ والأبواب مغلقة وموصدة بالبراليج . ولا أثر لإنسان حي في البيت . وخطر له أن (سوتخان) - الحارس - قد يكون هناك - فطرق الباب مراراً . وراح يتفاديه . ولكنه لم يفتح له الباب . وأخيراً - قطن إليه جوار يدعى (تشاندرا موهان) كان يجلس في شرفة داره وهو يدخن النعيون . قصاص : « أهلا بك يا رامش بابو .. أهدأ أنت هنا ؟ .. كيف حالك ؟ .. ليس في دار أنادا بابو أحد » . فسأله : « تعرف أين ذهبوا يا سيدني ؟ » قال (تشاندرا موهان) : « لست أعرف .. كل ما أدريه أنهم ذهبوا إلى الريف » . قال : « ومن الذي ذهب معهم ؟ » .. فأجاب الرجل : « أنادا بابو وابنته » . فعاد يسأله : « أوم يصحبهما أحد ؟ » . فقال (تشاندرا) : « لا .. فقد شاهدتهما يقضي عند رحيلهما » .

ولم يعد (رامش) يفكر على تماثل نفسه . فقال : « لقد قيل لي إن سيذا يدعى نالين بابو صاحبها » . وإذا ذلك قال تشاندرا : « هذا التبا غير صحيح . لقد أقام نالين بابو فترة في مسكنك القديم ، ثم رحل إلى بنارس قبل مغادرتنا كلكتا ببضعة أيام » . وهنا أخذ رامش يحيط نرجس بالأسئلة عن (نالين بابو) فعرف منه أن اسمه (نالينا كشا نشابوداي) . وقد عرف عنه أنه كان يجارس العطب في (راجيبور) . ولكنه أصبح يقيم مع أمه في (بنارس) . وما لبث رامش أن سأل عن (جوجندرا) . فعرف أنه يقيم في بلدة (بيسايس) بولاية (ماتانسين) حيث عين مائرا لمدرسة ثانوية هناك .

ولم يمض وقت طويل على انصراف رامش . حتى أقبل (أكشاي)
إذ كان (جوجندرا) قد أوصاه بأن يتفقد الدار في غياب الأسرة .
فبادره (تشاندرا موهان) قائلاً : « لقد كان (رامش) حارساً
دقيقاً .. ولم يمض وقت يذكر على انصرافه ! .. فتهتف أكشاي :
« أحمقاً ! .. وماذا جاء يبني ؟ » .. قال (تشاندرا) : « كنت أخشى ،
ولكنني أبلهته كل أنباء الأسرة . وكان يبدو سقيماً معلولاً . حتى أنني
لم أكد أعرفه ! .. فسأله أكشاي : « أفتعرف أين يقبع الآن ؟ » ..
قال : « كان في غازیبور ، ثم غادرها . ولم يقر بعد أين يكون
مقامه .. فتهتف (أكشاي) : « آه ! .. ثم انصرف إلى مثله .

أما رامش فقد عاد إلى مسكنه وهو يفكر . قائلاً في نفسه : لا يمكن
التقدير لمبلغ في قسوة . إن علاقتي به (كمالاً) مرسخة جداً . فقلت لـ (رامش)
موضوع صالح لرواية .. ورواية مشوقة . مؤثرة . من هذه العنقدة
لا يقوى على ابتكارها سوى القاص الذي لا يفرح من شيء . فقلت
أغرب الأمور لا تحدث إلا في الحياة الواقعية . فقلت لـ (رامش)
لا يثروا روائى على أن يقدموا إلى الرأي . فقلت : « موضوع جيد . فقلت
شعر بأنه محور من أضنى حيرة .. ولابد أن أقدم على رواية حادثة
ما شرع بولف الفصل الأخير من رواية حياته !

● كان (جوجندرا) يقبع في منزل من ضواحي واحة . وكان
مستغرقاً في مطالعة إحدى الصحف . في صباح يوم سابع من أحوال
الأسابيع . إذا برجل من السوق يدفع إليه برصاة . ويحرك غيابه غير

مصدق حين رأى الخط الذي كان على غلافها . قلما فضاها . وجسدها
من رامش . لا يكره فيها أنه يرتقب رده . إذ لديه حديث هام يريد أن
يقضى به . وقتئذ (جوجندرا) عن مقعده . وقد نسي الفراق
العاصف الذي حدث بينه وبين رامش . وتملكته ذكريات زمالة الصبا
والواقع أنه ابتلع حين فكر في لقاء رامش كما تملكه نوع من الفضول .
وأي شيء في أن يقابله لاسيما وقد كانت هنالقي بعيدة عنهما .
ومن ثم انطلق مع الرسول إلى حيث كان رامش في الانتظار ، وألفاء
جالساً على سفيحة مقلوقة من صفائح البترول . في متجر بهال .
نصار إليه . وشده من يده صائماً . « لعمري : أنني لا أكاد أفهم
طباعك ، مبنى غريبة كعهدى بها دائماً .. لما ظلم تأت فوراً إلى دارى
الأمم .. مع من حانوت بهال ؟ .. وبهت رامش لهذه الخفاوة .
ثم خرجت . واكتفى بالابتسام . بينما خصيه جوجندرا في عجلة . وهو
لا يكتف من الكلام : « ليس طلاء المدين عن القادر ما يتأولهم . ولكنني
لا أكاد أفهمه مطلقاً . ألا انتظر إلى ما صرت إليه ! .. لقد نشأت في
الحيثية من حيث ما ينشأ عليه أبناء المدن . فلماذا بالتقدير يأتي في هذه
الصحراء القفرة . حيث تعاني روحي الجوع ! » .. فقال رامش وهو
جالس بمسند من حوان : « ما هذه ببلدة سيئة ! » .. قال جوجندرا :
« أنتى تتر إلى بهال ؟ » .. فأجاب رامش : « أعني أن الوحدة والعزلة
تتوغلان فينا . والمهم في الأمر : هو راحة البال ! » فصاح جوجندرا :
« لا تخجل من هذا ! .. لقد قضيت فترة كنت أعتقد فيها راحة
البدن . فم يمض وقت طويل حتى عادت إلى عرواقي التي أفتت بها

الوقت والمأم .. هواية المشاغبة وانحصار .. وأنا الآن في شقاق محتدم مع سكرتير مجلس إدارة المدرسة ! .. ومضى يعدده عن متاعبه في المدرسة .. ومع السيد الإقطاعي في المنطقة !

وبلغا أخيراً دار (جوجندرا) .. حيث تهالك (رامش) في مقعد .. ولكن الآخر صاح : « لا تجلس الآن .. فأنا لم أنس بعد اعتزازك بجمام الصباح .. فاذهب واغسل ريشاً أضبع الماء على النار .. واتخذ من وصولك حجة لأحظى بتدح آخر من الشاي ! » .. وقضيا يومهما في أكل .. وكلام .. واستجمام .. دون أن يدع جوجندرا (رامش) فرصة يذكر فيها المهمة التي حملته إلى (بيسامبور) .. حتى إذا فرغاً من العشاء .. أخذوا مجلسيهما إلى جوار المصباح .. وبينما كانت الذئاب تعوى في الخارج .. وجد رامش الفرصة ليفضي بمهته .. فقال : « لعل غريزة نبت قد أنبأتك يا جوجن بما أحضرني إلى هنا .. لقد سألتني مرة عن أمر لم يكن يوسى أن أجيبك عنه .. أما الآن .. فلم يعد ثمة ما يمنني من رجايبه .. »

وأخذ رامش إلى الصمت .. ولكنه ما لبث بعد لحظات .. أن شرع يروي .. في بطة .. قصة علاقته بـ (كالا) .. من البداية حتى النهاية .. وكانت العبرات في بعض الأحيان تحقن صوته .. وفي أحيان أخرى كان هذا الصوت ينداح .. وكان الشاب يكف عن الكلام في بعض المواضع .. وجوجندرا يصغي في صمت .. حتى إذا فرغ رامش من قصته .. تئيد جوجندرا .. ثم قال : « لو أنك رويت لي هذه القصة .. في ذلك اليوم .. ما صدقتك ! » .. فقال رامش : « وإنها لا تزال اليوم .. كما كانت إذ ذاك .. بعيدة عن العقل .. ولكنني أريد أن أصحبك في تجربة .. »

تزوجت فيها .. ثم إلى خال كالا .. فقال صاحبه : « لن أتحرك من هنا .. فأنا على استعداد لأن أصدق كل كلمة .. دون أن أغادر مقعدي .. ونقد كنت دائماً متعوداً على أن أصدقك دون أن أطلبك بدليل .. ولابد لأن من أن تغتر في المرة الوحيدة التي حدثت فيها عن هذه العادة ! » .. ونهض من مجلسه .. فتعانق الصديقان الحميان .. وعندما قوى رامش على الكلام مرة أخرى .. قال : « لقد أوقعني القدر في شباك من الزيف لا فكاك منها .. أما وقد تخلصت منها أخيراً .. فلم يعد ثمة ما يدعوني إلى الكتمان .. وها قد آن لي أن أتفنى في ارتياح وحرية ! إنني حتى اليوم لا أعرف .. ولا أظنني سأعرف مطلقاً .. السبب الذي حدا بـ (كالا) إلى الانحياز .. ولكنني موقن من أن هذا كان الحل الوحيد لها ! كنا معاً في موقف معقد .. أرأني أرتجف كلما ذكرت الصعاب التي كانت تحوطه .. ثم لم تقدم هي على قطع الخيوط .. لقد انتزعت فجأة .. وعلى غير توقع .. من بين فكي الموت .. ولكنها عادت فغابت بينهما فجأة .. وعلى غير توقع أيضاً ! »

قال (جوجندرا) : « ما ينبغي أن تسلم بأن كالا انتحرت .. على أن الطريق واضحة أمامك .. ليس هناك الآن سوى نالينا كاشا .. إنني لا أكاد أتوهم هذا الصنف من الناس .. وقد اعتنيت أن لا أميل إلى .. لا أتوهم .. ولكن معظم الناس على النقيض .. يستهينون ما لا يفهمونه .. » .. ثم .. سرى على هيم .. فلقد بدأ تطورها يزعمني حين امتنعت عن شرب السم .. وعن تناول الطعام .. وأصبح لها شهية .. ثم .. ربتهم القديرة .. وأصبحت تبتسم في هدوء .. وفي يوم من الأيام ..

وهكذا - ليث - بعد أيام - أن رؤى يبيت في (غازي بور) في
أصيل يوم من أيام شهر ديسمبر وشرع يستدرج أصحاب المشاجر في
السوق - مثلاً عن عنوان حمام من البنغال يدعى (رامش بابو) - بيد
أن مساعيه امرهقة أسفرت عن أن أحداً في المنطقة لا يعرف حماماً
بهذا الاسم - فعمد إلى السؤال في المحاكم - واستطاع أن يعرف أن ذلك
(الرامش) كان يقيم بعض الوقت في دار (العم) - ولكن أحسداً
لا يعرف إلا أن لا يزال هناك - فقد اختفت زوجته - ومن المعتقد
أنها عرفت - ومن ثم تم شطير بيت (العم) - وهو يحدث نفسه : « الآن
عرفت لغة رامش - لقد ماتت زوجته - ولن يلبث أن يقع همتالييني
أمره - حبه - زوجته - ولديف تصديق (هتالييني) - في حالها
التي - في - يقول رامش - إن هؤلاء الطيبين متعبون حقاً » -
وهذا نفسه على معة تفكيره !

وم أن سأل أكشاي (العم) عن رامش وكلامه - حتى عجز الرجل
عن كبح عواطفه - فتدفقت الدموع من عينيه - وهو يقول : « أما وقد
كنت صديقاً حميماً لـ (رامش بابو) - فلا بد أنك عرفت العريضة كالألا
معروفة - لذلك لن يدهشك أن تعلم أنني لم أكده أعرفها يوماً -
لو برمز - حتى نسيت تماماً أنها ليست ابنتي - وكيف كان بوسعي
أن أنبأ بأن تلهه فتاة رقيقة مثلها على توجيه مثل هذه الصدمة لشخص
أسمرت عواطفه في مثل هذه الفترة العريضة ! » فقال (أكشاي)
متفهماً بالعطف : « إن الأمر كله يبدو متعذراً على الفهم - ومن
الواضح أن (رامش) ما كان يستطيع أن يصدق كلامه ! »

على أننا نستطيع أن ننفذها قبل فوات الفرصة - إذ أنت سمعتني -
فهيّا تعاون في الكفاح ضد النكس والتصوف ! »
فضحك رامش بينما استطراد جوجندرا : « كل ما علينا هو أن
ننتظر حتى تبدأ عطلة عيد الميلاد - فقال رامش : « لا تفرح أنت
بضعة أيام - فهنا يحسن أن أسبقك ؟ » - ولكن (جوجندرا) أجاب :
« لا - لن يكون هذا صواباً - أنا الذي فحمت العدة - لا أرى
سبب أن يهاجم لإعادتها - لن أدخلت تبقي وتنتظر - فقول لي
إنك سبقي للعشرة الأيام الباقية - لقد أقصيت على كل الناس جانب -
بشاكسي - ومن ثم فانا في حاجة إلى زمالة صديق - لاستود حسن
المعاشرة - لم يكن لدى ما يؤنسني في الليالي سوى عواء الناب - وقد
أوحشتني صراخ الأحاديث - حتى إن صوتك ليبدو في أذني أعذب من
الموسيقى ! »

الفصل السابع والأربعون

■ كان النبا الذي تلقاه (أكشاي) من (شاندرا موهان) مادة
لتفكير عميق - فقد راح يسائل نفسه : « ترى ما وراء هذا الأمر ؟ »
لقد كان رامش يمارس الهامة في غازي بور - كما قال لشاندرا - في
الذي جعله يترك عمله - ويتسمر على أي يظهر يوجهه في هذا - مع ذلك
إنه لن يلبث أن يبين أن أنادا بابو وهتالييني في (بنارس) - فيصير في
ذلك المكان ! » - ومن ثم قرر أكشاي أن يرحل إلى (غازي بور) ليجمع
ما يمكن أن يصل إليه هناك من أنباء - ثم يتجه إلى (بنارس) - حيث
يقابل (أنادا بابو) -


فقال الشيخ : « إن رامش صديق لك ، فلا تستأبطه فقتلته ! »
في الواقع لم أستطع أن أفهم هذا الشاب . كان لطيفاً حقاً . ولكن من
المستحيل أن تعرف ما يدور بخلده ، ولا بد أنه إنسان غير عادي .
وإلا فكيف ينسر المرء إهماله مثل تلك الزوجة الصغيرة الفتاة ؟ ! لقد
كانت وفية له ، ولكن ابنتي تستطيع أن تجزم أن (كالا) كانت تنسج
في بعض الأحيان ميسومة من أجل مسألة تكتمتها في نفسها . لنسج
ما يحطم قلبي أن أتصور ما عانته فتاة مثلاً من عذاب قبل أن تضع
حليتها مثل هذه الخاتمة . ولعل أفسى ما في الأمر أنني كنت في (افه
آباد) . ولو أنني كنت هنا . لما صدقت بأن قلبها يطعمها على أن
تهجرني ! »

وفي الصباح التالي . اصططح (المم) أكشاي في دار رامش .
كما زارا البقعة التي اختفت عندها كالا . ولم ينس أكشاي بيتت شعاع .
حتى عادا إلى دار (تشاكرا باري) ، وإذا ذلك قال الشاب للشيخ :
« أتعرف يا سيدي .. أنني لا أعتمد أن كالا قد انتحرت فعلاً بإغراق
نفسها في الجانجيز » ، فقال المم : « وما رأيك إذن ؟ » . قال أكشاي :
« إنني أميل إلى الأخذ بأنها فرت من البيت . ومن الواجب أن نبحث
في البحث عنها » . وقفز المم من مكانه في انفعال . وهاق : « ربما
كنت على حق ! ! . إنه أمر ليس بعيد الاحتمال .. » فقال أكشاي : إن
بنارس ليست بعيدة عن هنا . وثمة أسرة كانت صديقة لـ (رامش) . وفي
تقيم هناك « فلعلها لجأت إليها ! » « فصاح المم : « كيف ؟ ! » إن رامش
بابو لم يحدثن قط عن هذا ؟ .. ولو عرفت . لما توأمت في السؤال

عنها هناك . « وإذا ذلك قال (أكشاي) : « بوسعنا أن نذهب معاً إلى
بنارس . رأيت خبير بهذا الإقليم ، فلي وسعك أن تقوم بكل التحريات
المسكنة . »

وفي (المم) إلى الموافقة . وما كان أكشاي ليطمع في أن تصدقه
(أكشاي) . ولكنه أيقن بأن شهادة (المم) كفيلة بأن تعزز أقواله .
فكانت عمالتي من خلداع رامش . ومن ثم رحل الشيخ إلى (بنارس)
... . يقطع إلى أنه اتخذ شاهداً لإثبات إدانة صاحبه !

الفصل الثامن والأربعون

■ كان أنادا بابو قد استأجر داراً في مكان منعزل من الضاحية القائمة
جانب (بنارس) . وكان عند وصوله إلى (بنارس) قد علم أن الحمى
والسعال البسيطين اللذين أصابا (كشنكارى) أم نالينا كشاي . قد
تطورا إلى التهاب رئوي . وضاعفت خطوبة الجو من وطأة الحمى .
كما ساعد على استضعاف تشبث السيدة بالاغتسال في نهر (الجانجيز) في
كل صباح . وفقاً لتقاليد الديانة . على أن أخطر مراحل المرض
لم تلبث أن ولت بفضل ما بذلته عمالتي من رعاية لائمه . بيد أن
المرض خلف السيدة العجوز في ضعف شديد . وهناك لم تكن لعمالتي
حيلة ، إذ كانت (كشنكارى) متعصبة لتقاليد دينها . فكانت ترفض
أن تتناول الأدوية المقتوية والأغذية التي وصفها الطبيب لها . من بسدى
فتاة براهمية . ولقد اعتادت في حياتها أن تظهر طعامها بنفسها . فأصبح
نالينا كشاي في مرضها . بعد لها القوت .  الرجاء جميعاً .

وكانت تأمى لهذا وتقول له : « كان ينبغي أن أموت منذ زمن .. ماذا شاء الرب أن يستبشني على قيد الحياة : ويجمعني عبثاً عليك ؟ »
ولقد كانت العجوز - رغم زهدا وتشتفيا - دقيقة في حرصها على أن توفر الجمال والنظافة فيما حولها . وعلمت (حمانلي) من (ناليناكشا) بهذه الخصال . فحرصت على أن تعني بالبيت وتنظمه بنفسها . وكانت تهتم باختيار ثيابها إذا ما تأهبت لزيارة السيدة العجوز . وكان (أنادا بابو) يوافيها بالزهور . التي اعتادت (حمانلي) أن تنسجها في ذوق بديع حول فراش المريض .

وكان (ناليناكشا) يحاول أن يغري أمه على أن تسمح باستئجار خادم للعناية بها . إذ لم تكن تقبل أن تتلقى خدمة من أجبر ! .. ومع أن البيت كان يضم عدداً من الخدم بالفعل . إلا أن السيدة العجوز كانت تحرص على أن يقتصر عملهم على المهام الخشنة . أما الأعمال التي تتعلق بها شخصياً « فكانت تأتي أن يقوم بها أجراء » طبقاً لتعاليدها الدينية . وكانت مولعة بدوى الحسن من الأطفال . من الجنسين . وفي أثناء عودتها من الاغتسال في (الجانيخ) ، في كل صباح . كانت لا تثبت - وهي ماضية تنثر الزهور والماء المقدس على كل صورة أو تمثال للإله (سيفا) - أن تلتقط ضيئاً فلاحاً مليحاً . أو فتاة براهمية بيضاء البشرة . لتصحب هذه الفتاة إلى البيت . ويفضل ما كانت تعتقه من لعب ، ونقود . وحلوى . استطاعت أن تكسب قلوب أطفال الجيرة . وكان هؤلاء الصغار يقبلون على البيت في بعض الأحيان . فينتشرون في أرجائه . مما كان يبعث الاغتياب في نفس السيدة العجوز

وكانت لها حواية أخرى . تلك هي أنها لم تكن تمر بأية سلعة بديعة .. مهما تكن تافهة الشأن - إلا وبادرت إلى شرائها . لا لتدخرها كتحفة . وإنما ليخلعها على واحد من أولئك الذين كانت تعرف أنهم يفترون هداياها . وكثيراً ما كان أقرباؤها ومعارفها يتلقون لغافات تليق لا يعرفون مرسليها .. وهي صاحبها في الواقع ! .. وكانت تتنهي عن قبول الأساور البديعة ، والثياب الحريص . استعداداً لتدبيرها إلى الزوجة التي يبنى بها (ناليناكشا) . وكان تصور هذه العروس بمد السيدة العجوز بأحلام بهيجة ! ومع أن (كشميتكاوي) كانت حريصة على التزام الزهد والتشرف إلا أنها كانت تعارض - في شدة - حياة التشرف التي جنح إليها (ناليناكشا) . وكانت ترى أن الإمعان في هذا اللون من التصوف لا يليق بالرجال . لأن الرجال - في نظرها - كانوا مجرد أمثال كبار ومن ثم كانت تبدي إشفاقاً وتساخاً نحو من يبادي منهم زهداً وتشقفاً فيما يتعلق بالطعام والشراب . وكانت تتساءل في استنكار : « لماذا يغزو الرجل على نفسه ؟ .. وما كانت لترضى عن تنكب التقوى ، ولكنها كانت ترى أن قواعد التزمت فيها لم توضع للرجال . ولو أن ناليناكشا أبدى شيئاً مما يبديه الشباب من نزق وأنانية « لاغتبطت في قرارة نفسها . وهالها - عندما غادرت فراش المرض - أن ألقت أن حمانلي لم تكن وحدها المتحمسة لتعاليم ناليناكشا ، وإنما شاركها أبوها الكهل في ذلك .

ومن ثم التحت به (حمانلي) جانباً ، ذات يوم في ذات ضاحكة :

.. إنكما يا عزيزتي تشجعان (ناليكاكشا) في تزمته الأحقر .. لماذا تلتقين - أنت بالذات - بالأنا إلى المفقود الذي يقوله ؟ .. إن غفلة في مثل سنتك يجب أن تستمتع بالحياة كل استمتاع .. وأن تنجح بفكرها إلى الثياب .. وإلى اللهو لا إلى الدين ! وقد تقولين : لماذا لا أقول أنا ما نوصيت به .. على أن لي عذري الخاص .. فإن أبوي كانا شديدي التعصب .. وقد نشأنا .. فتينا .. وفيات .. في جو من التقوى المترمة .. ولو أننا غيرنا عاداتنا .. لارتبكت حياتنا .. أما أنت فقد كانت نشأتك تحتلف .. وفي لأرى أن كل امرئ خالق بأن يتبع ما فطر عليه في مثل هذه المسائل .. يجب أن تكفي يا عزيزتي عن نقاشك .. فإن الصلاة والصوم لا يناسبانك وما صار ناليكاكشا واعظاً وصاحب تعاليم إلا منذ عهد قريب .. وكان قبل ذلك يسير وفق هواه .. ولعله ما أجه هذا الاتجاه إلا إرضاء لي .. وأخشى أن ينتهي يوماً إلى الجموح والانطلاق !

■ جرى هذا الحديث عصر ذات يوم .. والسيدة العجوز منهمكة في تسييق شعر (هناليني) ، إذ لم ترض عن البساطة التي عكست بها الفدة شعرها .. وعادت تقول : « فاه تحتقدين أتي من طراز عتيق يا عزيزتي وأنتي لا أدري شيئاً عن آخر المبتكرات في هذا الصدد .. ولا أضني مغرورة إذا قالت أتي أعرف أكثر ما تعرفين .. ولقد كنت أعرف يوماً سيدة إنجليزية لطيفة .. اعتادت أن تأتي فتاتي دروساً في الحياكة .. وقد علمتني الكثير عن تسييق الشعر كذلك .. وكنت بطبيعة الحال أغفل

بعد انصرافها وأستبدل ثيابي^(١) بعد كل من هذه الزيارات .. هكذا نشأت ! .. لقد كانت صدمة مروعة لي أن كنت أهل زوجي عن أن يكونوا من الهندوكيين الأتقياء .. ولكنني لم أعترض أو أحتج .. كل ما قلته هو : ليطع كل ضميره .. وأنا امرأة جاهلة ، وليس بوسعي أن أتدخل عما اعتدت ..

وكانت العجوز تجد متعة في أن تبسط شعر هناليني ثم تعود فتعقبه وتجعله على نمط حديث .. بل إنها لم تلبث أن فتحت صندوقها الأبنوسي وأخذت تستمع بأن ترى الفتاة في الثياب الأربعة التي كانت تدخرها لعروسة آتيا !

كذلك كانت (كشميكاري) مولعة بقراءة الروايات البنغالية .. فحملت إليها هناليني كل ما كانت تفتني من كتب ومجلات .. وكانت تنادى بحب من دقة تعليقات المرأة العجوز على القصص والمقالات ، مما لا ينسى : لا لسيدة إنجليزية التربية .. وقد ساعدت لباقة الحديث .. مع النوى .. على إلهاء أم ناليكاكشا كسيدة جد رائعة في نظر هناليني ، فكان الكلام معها مبعث غبطة وسرور لفتاة !

(١) ترى بعض الطوائف الهندوكية أن أبناء الطوائف الأخرى غير طاهرين .. وأن عيسر الاجتماع بهم يحجب الدنس .. ولذلك يتطهرون عقب اجتماعهم !

الفصل التاسع والأربعون

• لم تثبت كشمسكاري أن وقعت صريعة الحمى من جديد . ولكن هذه الثوبة لم تكن طويلة المدى كسابقتها . وفي ذات صباح . أثناء فترة النقاهة . أقبل (ناليانكا) فحياها كما ينبغي أن يحيى الأبن الصالح أمه . إذ منس قدميا في احترامه . ثم أخذ يبيب به أن تسبح بان ثنى ما ينبغي لمريضة مثلها أن تتطاول من علاج . وأن تتجلى عن نفسها المفرط . فهاجرت العجوز : « أفترى على أن ألبس حدي في الصبيحة . في الوقت الذي تلبس فيه الأماني . ليس يوسعك يا عزيزي نالين أن تكفى على هذا النسق . ألا اقبل ما كرميك به أمك . فتزوج ! .. وسكت ناليانكا كشا . ولكن كشمسكاري مضت تقول : « إنك لعمري يا عزيزي أن جسدك العتيق لن يبرئ حويلا . ولن أموت هائلا إلا إذا كنت مريضا . لقد مرت لي فترة من الزمن كنت أنطلق فريداً من زواجك من فتاة صغيرة أستطيع أن أعلمها بنفسى . ولكن تبني أختنا شلال نوبة المراض الأخيرة . فو أعد أخرى إلى أي أجل أعيش . ولم يعد من المضمون أن يحول عمري . وليس من الإنصاف أن أترك بين يدي فتاة غير ناضجة . ومن ثم نحن بك أن تتزوج فتاة تصارع في النس . لقد كنت أفضى الليل مسيدة خلال مرضى . أفكر في هذا . لأنني أشعر كل الشعور بأن هذا هو آخر واجب أمين لك به . ولا بد لي من أن أعيش حتى أوديه . وإلا فلن أموت قريرة نال ! .. فسأله ناليانكا كشا : ولكن أين لي بالفتاة التي تسعد بالاستقرار معي

في حياة واحدة ؟ .. فقالت : لا تشغل بالك . فسأدبر كل شيء . ولم تكن كشمسكاري قد قابلت أنادا بابو شخصياً . إذ كانت تلزم مخدعها كلما زار البيت . ولكنها أعربت عن رغبتها في مقابلته عنصاما أقبل في ذلك المساء . فسرعان ما اقتيد إليها . وبادرت إلى مقاضته فيا أرادت . إذ قالت : « إن ابنتك جد فائنة . وإلى جلد مشغوفة بها . ثم أنكما تعرفان ابني نالين . فليس في مسلكه ما يعيب . كما أن سمعته ذائعة في مهنته . أفلا ترى معي أن من العسير أن ترى زوجاً أفضل منه لابنتك ؟ » . فتهتف الرجل : « أحقاّ متين هذا ؟ ! .. ما جرؤت على أن آتني شيئاً كهذا .. إنني لأعتبر نفسي حقاً محظوظاً إذا ما كان ناليانكا شوا زوجاً لابنتي .. ولكن . ما رأيه هو ؟ » . قالت : « لسوف يوافق نالين . فهو على العكس من معظم شبان العصر الحاضر . ينصاع لما تطلبه إليه أمه . ثم إن أحداً لا يملك إلا أن يحب ابنتك العزيزة . على أنني أحب أن تم خطبتهما في أقرب وقت ممكن . فقد لا يطول في العمر » .

وعاد (أنادا بابو) وقد استخفه القرح . فاستدعى (هم) . وقال لها : « إنني كهل يا عزيزي . وصعبي ليست بالجيدة . ولن أختم أيامي بسلام ما لم أطمئن إلى حياتك . فدعيني أصارحك يا هم : لقد فقدت أمك . فاضطلعت وحدي بأعبائك . وكل ما أشتاء أن يحدث ما يحول دون أن أستمع في ذلك . وقد خطبتك أم ناليانكا لابنتها الليلة ١ » . وتضرج وجه همنالني . وقالت متلعشة : « كيف ؟ .. هذا مستحيل إنه ناليانكا شوا ! .. كيف يمكن هذا ؟ » . ولاذت العناية بالشرع فتفكر في

الأمر . ونحطمت آمال أنادابا ، فما كان يتوقع هذه المعارضة ، بل ظن - مطمئناً - أن ابنته ستسرع بطلبها إلى (نالييناكشا) . وراح الكهل يتأمل ذبالة المصباح المتراقصة ، وهو مشدود ، يعجب من طباع الأثوثة ، ويرى فيها لغزاً مستعصياً الحل .

وجلس همناليني في الشرفة المعتمة . وهي لا تفطن إلى مرور الساعات . وأخيراً ، حانت منها التفاتة إلى داخل الغرفة ، وما أن رأت أمارات الأسى على وجه أبيها . حتى نمرد عليها ضميرها . فأمرعت ووقفت خلف مقعده ، تسمع رأسه متممة : « هيا يا أبت . لقد أعدت عشاؤك منذ زمن ، ولا بد أنه برد » . ونهض (أنادابا) بحركة آلية ، فسار إلى قاعة الطعام ، ولكن نفسه عافت العشاء : كان قد اطمأن إلى أن الغيوم انقشعت عن حياة همناليني ، فأصرف في تخيل آمال المستقبل ، ومن ثم كان رفضها الخطيئة مبعث أسى مرير له . وقال لنفسه أسفاً : « إذن ، فهمناليني لم تنس رامش بعد ! »

وكان من عادته أن يأوى إلى فراشه بعد العشاء مباشرة ، ولكنه في ذلك المساء تلكاً ، واستلقى في مقعد قاشي في الشرفة ، مسرحاً بصره في الحديقة : وراحت همناليني تتحائل لتحمله على أن يأوى إلى سريره : حتى نهض أخيراً وسار إلى مخدعه صامتاً . وكانت همناليني قد قررت في حزم أن تقضي رامش عن يالها ، حتى لا تخيد عما أخذت به نفسها من تشفٍ وإنكار للذات .. ولقد كبدها هذا صراعاً نفسياً قاسياً . ولم يكن الأمر يتطلب أكثر من صلصة خارجية كي يعود الجرح إلى التزييف ! كانت قد عانت حيرة بالغة في تدبير مستقبلها والمسلك الذي

تتجهجه . فلما استقرت في النهاية على أن ترى في نالييناكشا راتداً روحياً وأن تكيف حياتها وفقاً لتعاليمه : ظنت أنها تخلصت من حيرتها : فلما جاء حديث هذا الزواج ، وحاولت أن تبحث الحب القديم من منبته « تينيت أنه أنعم من أن ينيث ! .. كان مجرد احتمال قطع الرباط القديم ادعى لأن تتشبت به (همناليني) في اسفاته وعزم أكثر من ذي قبل !

الفصل الخمسون

■ أُرملت كشمتهكارى - في تلك الأثناء - تستدعى نالييناكشا ، ثم أفضت إليه بأنها عرضت مشروعاً لزوجها : وأن الخطبة لقيت قبولا ، فاتيتم قائلا : « هل دبرت كل شيء نهائياً ؟ .. ما أسرعك ! » . قالت : « أجل . فلأني لن أعر مدى الدهر . لقد أعجبت جداً بـ (همناليني) في فناء فذة . صحيح أن شكلها ليس غاية في الجمال ... » . فقال : « اعقبني من هذا يا أماء ، فلست أفكر في شكائها ، وإنما أنا أفكر في استحالة زواجي منها .. لا أستطيع حقاً ! ! .. فهتفت : « لا تهرف ! ! : لست أرى ما يمنع ! ! . ولم يكن من السهل على نالييناكشا أن يصوغ أسباب معارضته ، ولكن هذا هو ما جال بخاطره في صمت : « لقد كانت همناليني فتاة قام بدور المرشد الديني لها ، فكان مجرد الضكير في أن يتحول إليها فجأة ليعرض عليها الزواج ، أمراً مستهجناً » ولكن أمه حملت صمته على يحمل التبول ، فشرعت تقول : « لن أقبل أي اعتراض في هذه المرة . كأتى بك مصر على أن تنبذ الدنيا وتصبح ناسكاً من أجلى . هذا عبث لم أعد أقبله » .

يدبك في هذه المرة . ولابد من أن تنفذ المشروع في أول يوم سعيد الطالع ! »

ومضت فترة قبل أن يجرؤ نالينكاشا على أن يقول : « هنالك أمر لابد من أن أصارحك به يا أمي . ولكنني أستحفظك أن لا تكبري أو تحزني . إن ما سأقصه عليك قد وقع منذ تسعة شهور أو عشرة . فمن غير المجدي أن تأسى عليه الآن . ولما كنت أعرف أنك تجزعين من المصائب . حتى بعد حدوثه . فقد أشفقت أن أروى لك هذه القصة من قبل ! » ..

وأزعج كشمينكارى حديثه ، فقالت : « لست أدري ما الذى ترمع قوله يا بنى ، ولكن المقدمة تجعلنى أتوقع أسوأ الاحتمالات : فهات ما عندك . ولا تهتم إذا كان النبا طيباً أو سيئاً » . ومن ثم شرع نالينكاشا يقول : « لقد بعث في فبراير الماضى عيادى في رانجير . وأجرت بيتي ، وانجهت إلى (كلكتا) . فلما بلغت نقطة عبور النهر عند (سارا) ، خطر لى أن أتحوّل عن السفر بالقطارات ، وأن أتم الرحلة عن طريق النهر . ومن ثم استأجرت قارباً وبقياً . حتى إذا قضينا يومين في النهر ، رسونا عند جزيرة نهريه ، فهبطت إلى البر . وإذا في ألتى بصديقنا القديم (بون) يحمل بندقيه . وظهر أنه كان (نائب حاكمدار) المنطلقة ، وأنه كان في جولة تفشيشية . ولما كنا لم نلتق منذ سنوات . فقد رفض أن يتركنى . وأصر على أن أرافقه في جولته . وفي ذات يوم هبطنا قرية (دوبا بوكور) ، وانطلقنا نجوس خلالها . وما لبث (بون) أن قادنى فجأة إلى ساحة ذات سياج متصل ببيت يقوم على حافة أرض

محروثة : وأحضر لنا صاحب الدار مقاعد : وجلس معنا . وما لبث الرجل - وكان يدعى (تاديني تشاتورجى) - أن استدريج (بون) حتى عرف جليلة أمرى وسيرتى :

وفما كنا عائدتين إلى معسكرنا . قال بون : « إنك اليوم معظوظ فان ثلث أن تلقى عرضاً للزواج .. إن هذا التاريخ تشاتورجى مراب لم يفلح من هو أبخل منه . وقد كانت له أخت خلفها زوجها - عند موته - معانة . فأواها تاريخي . وكانت حاملاً .. ثم مات بعد أن وضعت ابنة . وكان موتها نتيجة حرمانها من الرعاية الطبية . وكانت له أخت أرمانه أخرى تقوم بأعباء البيت . وتوفر عليه أجر الخادم » فتولت المسكينة أمر الطفلة اليئمة . ولكنها ما لبثت بدورها أن ماتت بعد سنوات . ومنذ ذلك الحين . عاشت الفتاة عيشة الكلاب ، تعمل كالجارية في خدمة خالها وزوجته . دون أن تحظى بغير الجحود . ولقد أوشكت أن تحترق من الزواج . ولكن من العسير أن نغتر على زوج ليئمة لا حول لها ولا نصير . لا سباً وأن أحداً من أهل القرية لا يعرف أبويها . ثم إنها ولدت بعد موت أبيها . مما أثار الأقاويل في القرية حول أصلها !

ولما كان (تاريخي تشاتورجى) يتقلب في الثراء ، فقد عمد أهل القرية إلى تخيير الفتاة . ليحملوه على أن يتحول العطاء ويمنحها (دواطة) كبيرة في سبيل تزويجها . ولقد كان - منذ أربع سنوات - يزعم أنها في العاشرة ، فلو حسبنا هذه الفترة . لوجدنا أنها الآن في الرابعة عشرة من عمرها على الأقل . ومع ذلك ، فهي أبخل من أختها .

(كملاً) ، تيمناً بالربة (لاكشمي) ، وأنها لأكل صورة لمعنى اسمها
وكلمها وقد شاب براهمي على القرية ، ركم تاريني أمامه . ضارعاً إليه
أن يتزوج منها ، ولكن شائعات القرية لا تلبث أن تنفر الشاب ولو كان
راغباً . وما قد حان دورك ! .. وكنت إذ ذاك يا أماء في حال لا يعلم
بها إلا الشيطان ، فبادرت قائلاً دون ما تفكير : « حسناً ، سأزوج
من الفتاة ! » .. مع أنني كنت دائماً أتوق إلى أن أفاجئتك بزوجة
هندوكية ، إذ كنت أوقن أن أحداً منا لن يسعد إذا تزوجت من براهمية
وذهل (بون) وصاح : « ما أظنك جاداً ! » . فأكدت له أنني جاد ..
وفي ذلك المساء زار معسكرنا تاريني ، وراح يعرض على الفتاة وهو
يضم يديه إلى صدرى ضارعاً على طريقة البراهمة . وتقرر أن يتم الزواج
في اليوم بعد التالي . وكان من الطبيعي أن يدرك المرء سر ضارعته .
وتعجله . كان يريد أن يتفادى الإنفاق على الفتاة ، وإقامة حفل عرس
لها . وتم الزواج في الموعد ! .. فصاحت (كشميكاري) في جزع :
أحقاً تم الزواج ؟ .. أجاب أنت ؟ .. فقال (ناليانكاشا) : « كل الجد
يا أماء . وعدت إلى قاري يعروسي . ثم أفلعنا بعد ظهر اليوم التالي
للعرس . وكنا قد أصبحنا في شهر مارس . وفي مساء ذلك اليوم .
ولما ينقض على رحيلنا أكثر من ساعتين ، انقضت علينا ريح لافحة
قلبت القارب بطريقة ، لا أدرك كنهها . وغابت كل أثر له ! »

وصاحت كشميكاري مذعورة : « يا للسماوات الرجيمه ! » ..
فقال ناليانكاشا : « وعندما أفقت ، وجدت نفسي أكافح التيار ،
ولا أثر هناك للقارب أو ركابه . وأخطرت البوليس ، فقام ببحث دقيق

دون ما ثمة ! .. واكتفهر وجه الأم ، وقالت : « ما فات قدمات ،
فلا تذكره ثانية » .. فقال : « ما كنت لأروى لك هذا يا أماء ، لولا
إصرارك على زواجي » . فهتفت : « وكيف تمتلك هذه النكبة عن
الزواج ؟ » .. قال : « ربما كانت الفتاة قد نجحت . وهذا ما يصدني عن
الزواج .. وصاحت (كشميكاري) : « أيجنون أنت ؟ .. لو أنها
كانت على قيد الحياة ، لسمعت عنها » . فقال : « ولكنها لا تعرف
عني شيئاً . لأنني كنت غريباً عنها . وما أظنها عرفت ملاهي . ولقد
كُتبت إلى (تاريني) عندما وصلت إلى (بنارس) ، ولكن رسالتي لم
تصل إلى يديه ، إذ ردت إلى ، لأنه مات ! .. وقد قررت أن أنتظر
عاماً ، قبل أن أعتبرها ميتة ! » . فقلت في لوم : « إنك دائماً تعقد
الأمور . لماذا تترتب عاماً بأكمله ؟ » .. قال : « لن يلبث العام أن
ينتهي يا أماء ، فنحن في شهر ديسمبر . ولما كان الشهر الذي يليه
منحوساً . بالنسبة للزواج . لذلك لن يبق سوى فبراير ، ثم ينتهي العام
في مارس ! »

قالت (كشميكاري) : « جميل جداً .. إذن فاعتبر نفسك خطيباً
(لهمناليني) ، وقد طلبت يدها رسمياً من أبيها » . فقال ناليانكاشا : « إن
العبد يدبر . ولكن هناك من يدبر فوق تديره ، فلندع الأمر له ! » ..
قالت : « فليكن ! .. ولكن ، ما أرهب ما رويت لي يا عزيزي ! » ..
قال : « ولعلك فهمت الآن سر ترددي في إنائك بالقصة : »

الفصل الحادى والخمسون

كانت شمس ديسمبر القصيرة العمر قد هبطت إلى حافة السماء الشاحبة ؛ عندما بلغت (كالا) ضفة نهر (الجانيز) . فأدت الفتاة للشمس تحية الغروب . ونثرت بعض قطرات من ماء النهر المقدس على رأسها . ثم خاضت في مجرى النهر . مغترقة من مائه . نائرة الزهور على صفحته . وانحنت إجلالاً لكافة القوى السماوية ! وفيما هي ترفع رأسها . تذكرت كائناً آخر تدين له بالإجلال والتوقير .. إنها لم تجرؤ قط على أن تنفّس في وجهه . وما وقعت عينها - طوال الليلة الوحيدة التي قضتها إلى جواره - على وجهه . بل ولا على قدميه . لقد سمعته يقول كلمة أو اثنتين لمن رافقوها إلى غرفة الرفاف . ولكن صوته لم يكاد ينفذ خلال حجابها ، ولا خلال تحفظها وصدها ؛ وأخذت تحاول جاهدة - وهي تنفّس على حافة النهر - كى تذكر صوته . ولكنها لم توفق ! .. كان الرفاف يمر اسمه قد امتد إلى ساعة متأخرة من الليل . وكانت مبهكة القوى ، فانقض عليها النعاس بغتة . واستيقظت في الصباح التالى ، لترى جارة شابة متزوجة تهزها لتوقظها وهي تضحك . وأثقت نفسها وحيدة على أريكة في المندع .

أجل ، كان السيد الذى تربيع على عرش حياتها كالكتاب المغلق بالنسبة لها ، فهي لا تكاد تذكر وجهه ؛ ولا صوته ؛ ولا ملامحه .. لا شئ قد علق بذكرياتها !

وكان الخطاب الذى كتبه رامش (هنالينى) لا يزال مربوطاً إلى طرف من ثوبها ، فجلست على رمال الشاطئ ، وأعدت قراءة صفحة

منه على ضوء القسي . كانت تلك الصفحة هي التي تضمنت ذكر زوجها . فلم تجد شيئاً عنه اللهم إلا أنه كان يدعى (ناليناكشا تشاوبادياى) . وأنه كان طبيباً في (رانجبور) . وأن رامش لم يستطع أن يعثر له على أثر . ناليناكشا ! .. كأنما كان الاسم بالساخراج نفسه ! .. بل خيل إليها أنه يملأ قلبها حتى ألا تراع . وانهمرت الدموع مدبرة من عينيها ، فحنفت من وطأة أساهها . وحنفت صوت في أعماقها : « لقد امتلأ الفراغ . ونجاها الظلام . .. الآن عرفت أنني الأخرى جزء من العالم الحى ! » .. وحنفت من أعماق فؤادها : « إذا كنت زوجة صادقة له . فلا بد لي من أن أعيش لأعبد عند قدميه . إننى لن أفقد الأمل في العثور عليه ما امتدني العمر . ما أنقذني الرب من الموت . إلا لأعيش وأخدمه ! » . وتناولت حزمة المفاتيح فرمتها بعيداً . وتذكرت أنها تضم طرفين من ثوبها بقلادة أهلهما إليها رامش ، فخلعتها هي الأخرى ، وأثقت بها في الماء . ثم تحولت نحو الغرب ، وسارت دون أن تكون لديها فكرة واضحة عن وجهتها ، ولا عن الطريقة التي تستلكنها في البحث عن رجلها ! .. كل ما كانت تعرفه هو أن لا بد لها من أن تغشى قدماً ، وأن لا تنلأ لحظة حيث كانت !

وسرعان ما تحيا الشفق من سماء الشتاء . وبدت حافة النهر الرملية متألثة بوميض خافت في غمرة الظلام ، وكأنما يحا رسام ما معالم المنظر الذى كان قد رسمه ؛ ولم يترك سوى صفحة اللوحة الخالية من كل لون ! .. وكانت السماء التي غاب قمرها ، وبدت نجومها غير متأقنة ، تحنو على ضفة النهر الصحراوية في حنان : ولم يكن كالا أن تفتن

أمامها سوى فضاء موحش ، مهجور ، لانهائية له . ولكنها كانت تترك
أن لا بد لها من الماضي قديماً ، فلم تتوقف لتفكر فيما وراء سيرها هذا .
على أنها قررت أن تتبع ضفة النهر . حتى يعفيها هذا من الحاجة إلى
السؤال عن طريقها ، وحتى إذا تهددها خطر ، لاذت بصدر (الجانيز)
الحاني العطوف ! .. وكان الظلام يلف كمالاً ، ولكنه لم يكن مدخماً
بدرجة تحرمها من الرؤية . وكانت الذئاب تخرج خلال الليل من حقول
القمح . وتروح نغوى بأصوات رهيبية . وبعد ساعات ، تبين أن
الأرض المنبسطة انتهت بها إلى ضفة عالية ، وأن الرمال أفضت بها إلى
أرض زراعية . واعترضت طريقها قرية . ولكنها حين اقتربت منها
بقلب واجف ، تبين أن أهلها في نوم عميق . وبدأت قواها تخور .
فدارت حول القرية في إعياء ، وصعدت إلى قمة ما بدا لها كليئاً مهجوراً ،
ثم تهاكت تحت شجرة ، ونامت نوم المرهقة المكدودة .

وعندما استيقظت قرب الفجر ، كان القمر قد بزغ واهناً ، فبدد
بعض الظلمة . وكانت تقف إلى جوارها امرأة مسنة : تمطرها بأسئلة
باللغة البنغالية : « من أنت ؟ .. ما الذي تفعلينه هنا ؟ .. وكيف تنامين
تحت شجرة في ليلة باردة كهذه ؟ .. » وأجفلت كمالاً مدعورة ، ففأثنت
حولها ، وإذا بها ترى مرساة استقرت فيها مركبان من مراكب نقل
البضائع . وكانت السيدة العجوز مسافرة على إحداهما . وقد نهضت
مبككة ليجلس قبل أن يستيقظ مرافقوها . وعادت المرأة تسألها :
« يبدو أنك بنغالية .. أليس كذلك ؟ » ، فأجابت : « بلى ، .. فسألتها :
« وماذا تفعلين هنا ؟ » .. فقالت : « كنت في طريق إلى بنارس .



وكانت تقف إلى جوارها امرأة مسنة ،
تمطرها بأسئلة باللفم البنغالية ..

فدعني النوم في أواخر الليل .. صاحبت المرأة : يا للعجب ! ..
تسافرين إلى بنارس على قدميك ؟ .. يحسن بك أن تصعدى إلى تلك
المركب ، وسألق بك بعد أن أغتسل ..

وبالفعل ، لم تلبث السيدة المسنة أن لحقت بها . وأخذت تحادثها عن
نفسها ، فعرفت كمالاً أنها تدعى (نابينكالى) . وأن زوجها يدعى
(موكوندالال داتا) . وأنهما ينتميان إلى طائفة (الكايسا) . ومن
أبناء (البنغال) . ولكنهما يقيمان مؤقتاً في (بنارس) . ثم تحولت
(نابينكالى) تسألها عن اسمها . وقالت : « أراك تلبسين خديلاً من
جليد ، إذن فزوجك حى ؟ » .. فأجابت قائلًا : « لقد اختنى صبيحة
زفافنا . فهتفت السيدة : « ما رأيت رجلاً يفعل ما فعل ، لاسيا وأنت
تبدلين صغيرة ! .. لا يمكن أن تكوني قد تجاوزت الخامسة عشرة ! .. »
وأخذت تفحصها من رأسها إلى قدميها . بينما قالت كمالًا : « لست أدرى
عمرى تمامًا ، ولكنه لا بد أن يكون حوالى الخامسة عشرة ! » .. وعادت
نابينكالى تسألها : « إنك براهمية .. أليس كذلك ؟ » .. فأجابت :
« بلى » . قالت : « وأين يعيش قومك ؟ » .. فقالت كمالًا : « ما ذهبت
قط إلى موطن زوجى . أما أبى ، فقد كان من بيسوكالى . على أن أبى
وأبى قد ماتا » . فهتفت السيدة : « وما الذى تتويز عمله ؟ » .. فأجابت
كمالًا : « لست أرجو سوى سقف يفلتى ، ووجبتين في اليوم . فإذا
وجدت قومًا طيبين في بنارس يكفلون لى هذا . عملت بتفقات إقامتى .
فأنا أجيء الطهو » .

* * *

● واغتبطت (نابينكالى) في سريرتها لما بدا لها من أنها ستحظى
بخدمات طاهية براهمية بغير مقابل . على أنها حرصت على أن تحقق فرحها ،
قائلة : « لنا حاجة إليك . فلدينا خدمتنا ، فضلاً عن أننا لا نستطيع أن
نستخدم شخصاً لأميزات له سوى أنه براهمي .. ولكنى لا أستطيع أن
أتركك في ضيقك وأنت براهمية . وغداً . لذلك فقد يكون من الأفضل
لك أن نصحبينا على أية حال . إن لدينا عدداً كبيراً من الأفواه التى
نفسد القوت . كما أننا نلقى الكثير من فضلات طعامنا . فلن نضيرنا أن
نعمل شخصاً فوق من نعمل . ولن نجدى العمل مرهقاً ، إذ لا يقيم
الآن في دارنا سوى زوجتى ! .. لقد زوجت كل بناتى ، ولم يعد
لنا سوى ابن عتي أخيراً (حكداروا) في (سراججانج) . وقد تلقينا
من الحكومة قرار تعيينه منذ شهرين » .

وانطلقت السفينتان . تدفعهما الريح سراعاً . فوصلتا (بنارس)
بعد ساعات قليلة . فانتقل القوم إلى منزل ذى طابقين ، في حديقة
بإحدى الفساحى القائمة في أطراف المدينة . ولم تر كمالاً أمراً لطاه
براهمي ، ولا لأكثر من خادم واحد . على نقيض ما زعمت السيدة ! ..
وحتى هذا لم تلبث (نابينكالى) أن سرحته بعد أيام . دون أن تتفقه
أجره . واضطلعت كمالاً بكل أعباء المطبخ ! .. ولم تضمن نابينكالى
عليها بالنصح . فكانت تقول لها : « إنك لتعلمين يا عزيزتى أن بنارس
مدينة موبوءة بالنسبة للنسب أمثالك . ومن ثم يجب أن لا تبرحى الدار
وحيدة . وسوف اضطربك إذا ما ذهبت إلى (الجانج) للاغتسال ،
أو إذا ذهبت لأتعبد إلى الإله بيسوس » .

في وقت المحنة : ولكنها - بصرفاتها - جعلت كمالا لا تكاد تشعر بشيء من العرفان ، وحلتها على أن تؤثر أعمالها في خدمة البيت . على سويقات الفراغ المضجرة ، التي كانت تضطر إلى قضائها في صحبة السيدة . وفي ذات صباح . استدعتها السيدة العجوز وراحت تلومها على الإسراف في استعمال المثل . ولم تكن كمالا تحيب قط على أي تأنيب . بل اعتادت بعد كل تنويع أن تعود في هدوء إلى عملها ، وكأنها لم تسمع شيئا . ولكن لحظة البساء في ذلك الصباح أصابت من قلبها مرمى « قطرات كمالا مهمومة تفكر وهي عاكفة على تنظيف الخضر . وكانت قد انتهت إلى أن الدنيا مكان خلو من البهجة ، وأن الحياة عبء ثقیل . حين التفتت أذناها كليات استرعت انتباهها . فقد استدعت (نايينكالي) حارس البيت ، وواحت تصبر إليه أمرا : (اسرع يا تولسي . اهرع إلى المدينة واستدع الدكتور (ناليناكشا) فوراً . وقل له أن مولاك متوعلك ! » .

ناليناكشا ! .. وترافق شعاع الشمس أمام عيني كمالا كأنه أوتار فيشاره تعزف عليها أصابع خفية . وألقت الخضر من يديها ، ووقفت لدى باب المطبخ في طريق (نالوسي) ، فإنا أقبل لياذهب إلى مهمته ، حتى سألت عن وجهته . فقال : « انتهى ذاهب لأستدعي الدكتور ناليناكشا . وسألته : « ومن يكون ؟ » .. قال : « إنه خير طبيب في المدينة ! .. وعادت تسأله : « أين يقع ؟ » ، فقال : « في المدينة .. على بعد ميل من هنا .. » . وكانت كمالا قد اعتادت أن توزع عني من يكون في البيت من خدم . كميات قليلة من الغذاء الذي يبقى بعد أن يشبع سيدها العجوز بهما .

حتى لا تغفل كمالا من محالها ، فلم تتح الفتاة فرصة تلتقي فيها بأحد من جنسها ولا من عتصرها ، وكانت أعمال البيت تستغرق كل شأورها . بينما تنصت في المساء إلى نايينكالي وهي تحدثها عن الفئاس والخيوط والذهب والفضة التي منعها الخوف من اللصوص من أن تعرضها إلى (بنارس) !

وكانت تقول : « إن زوجي لم يعتد قط أن يتناول طعامه في أطباق من نحاس ، وكان في البداية يزجر غاضبا ويقول : « وما قيمة أن يسرق أحد بضعة تحف من ثروتنا ؟ .. في وسعنا أن نعوضها بسواها ! .. » . ولكنني لم أوافقته قط على هذا التبدل .. إن لنا في بلدنا الأصلي بيتا هائلا . وحشدا من الخدم ، أكثر مما أستطيع إحصاءهم ! .. ولكننا لا نستطيع أن نصطحب عشرين أو ثلاثين خادما أينما ذهبنا .. وهكذا كانت تمضي في أكاذيبها !

الفصل الثاني والخمسون

■ كانت حياة (كمالا) في دار (نايينكالي) تشبه حياة سمكة حبسية في بركة ضحلة موحلة ، ولم يكن لها من خلاص إلا في الفرار . ولكن الفرار كان أمرا مستبعدا « ما دامت لا تعرف له غاية . فان تجربتها الأخيرة علمتها كيف تبدل الدنيا - خارج جدران الدار - رهيبية في الليل « فكانت تحجم عن أن تسلم نفسها مرة أخرى لقيضة المجهول . وكانت (نايينكالي) من ناحيتها مغرمة بـ (كمالا) ، ولكن .. على طريقتها الخاصة ، فكان عطفها يتخذ أشكالا بغيضة . كانت قد ساعدت الفتاة

وعلى الرغم مما كانت تلقاه من تفرغ نايبتكالى وخشونتها ، فإنها لم تكن ترعوى عن هذه العادة . مما حببها إلى الخدم . وجعلهم (عبيداً) مختارين لها . وانبعث صوت رفيع من أعلى السلم صاعداً : « ماذا تدبر عند باب المطبخ يا تولسى ؟ .. أظن أنني لا أراك ؟ .. ألا تستطيع أن تذهب إلى المدينة دون أن تستشير الطاهية أولاً ؟ .. لا عجب إذن ، إذا كانت أشياء كثيرة تخفى من الدار ! اسمعي أيتها الشابة ، تذكرى من فضلك أنني التفتلتك من الفروق وآويتك . أفيداً جزء الإحسان ؟ » ..

كانت تؤمن بأن كل من فى البيت يتآمرون لسلها . على أن ثورتها لم تاق من كمالا فى هذه المرة سوى إذن صماء . فواصلت الفتاة عملها وقد تراحت السحب فى رأسها . ثم عادت إلى باب المطبخ تنتظر عودة (تولسى) . وجاء أخيراً . ولكنه كان وحيداً . وسأله عن الطيب ، فقال أنه لم يستطع الحضور لأن أمه مريضة . فهبت : « أمه ؟ .. أليس لديه من يعنى بها ؟ » . قال : « لا لأنه غير متزوج ! » . وانبعث إذ ذاك صوت السيدة . فأسرعت كمالا إلى داخل المطبخ . وهرع (تولسى) إلى السيدة .

واستبدت المشكوك به (كمالا) .. نالينا كشاً .. وكان يمارس الطب فى رانجبور .. لذلك لم يكاد تولسى يظهر مرة أخرى . حتى سأله عما إذا كان الطيب براهماً . فلما رد بالإيجاب . سعت (كمالا) لفورها إلى نايبتكالى . وأنبأها بأنها قد فرغت من عملها ، وأنها تريد أن تذهب للاغتسال فى النهر عند (داساسواميد غات) . فقالت

السيدة : « هذا لا يليق . فزوجى مريض . ولا يدري أحداً ما قد يحتاج إليه . ولماذا تريدان الذهاب إلى هذا المكان البعيد فى هذا اليوم بالذات ؟ » . فقالت : « لأننى علمت أن فى قرية فى بنارس تمس فى الحاجة إلى لقائهما » . فصاحت نايبتكالى : « لا ! .. لست غضة بلهاء .. من الذى أخبرك بهذا ؟ .. لعله تلوسى ؟ .. يجب أن تطرد هذا الولد . ألا فحصى أيتها الفتاة أن لا سبيل لك إلى الذهاب للاغتسال أو لمقابلة أقاربك فى المدينة وأنت وحيدة . طالما كنت فى هذا البيت ! » .

وطرد (تولسى) فوراً . وتلقى الخدم أوامر صارمة بأن لا يتصلوا به (كمالا) . فإذا صبر هذه يشد وإذا بها لا تعود تطيق البقاء لحفلة أخرى تحت سقف عريب . خاصة وأن زوجها يقيم فى المدينة ! .. ومن ثم أخذت تدهش من العمل بغير . ولم يفك ذلك نايبتكالى فقالت : « اسمعى أيتها الشابة .. إننى لا أوتاح إلى تصرفك » . فقالت كمالا : « وأنا لم أعد راضية فى العمل فى خدمتكم . لم أعد أطيق . فذهبنى أرحل » .. فصاحت (نايبتكالى) : « أحفأ ؟ .. هذه عاقبة الإحسان إلى الناس فى هذه الأيام ! .. لا تخفى أنك براهمية صالحة ! .. ألا حاولى القرار . وسوف ترون كيف يعاملك الشرطة . إن ابنتى (حكمدار) ، وكم من أفراد أرسلوا إلى السجن بكلمة منه ! » .

● وتصب معين صبر كمالا . وهى ترى أن السعادة المرتقبة أضحت على قاب فوجين منها . كان القدر يسخر منها فى قسوة ! وغدا يجنح بين جدران البيت أمراً لا يطاق . فاعتادت أن تتسأل إلى الحديقة فى

الأمسيات ، فتقف في البرد رقب الطريق المؤدية إلى المدينة . وكانت تقف الساعات الطويلة : جامدة ، مستغرقة في التفكير ، ثم لا تلبث في النهاية أن تنحني إلى الأرض في طاعة ، وتدخل إلى غرفتها . بيد أن هذه السلوى الضئيلة لم تلبث أن حرمت عليها أيضاً : فقد حلا لتابيتكا في ذات مساء أن تستدعيها بعد أن فرغت من عملها ، فلما لم تجدها في المطبخ . بحثت عنها في كافة أرجاء البيت وقد خيل إليها أنها هربت ، وصاحت بأمر بإبلاغ الأمر إلى الشرطة .. ثم عثرت عليها في الحديقة . فصاحت بها : « أي سوء كنت تهيمن به ؟ إلى أين ذهبت ؟ » . فقالت الفتاة « كنت أتمشى في الحديقة » . فعصبت تابيتكا عليها جام غضبها ، ولكن كمالا لم تسعدها برؤية دموعها . بل وقتت كتمثال جامد تحت ميل دافق ، حتى إذا فثأت السيدة غضبها . قالت لها : « أرى أنك لست راضية عني ، فخلق بك أن تسرحني ! » . فصاحت السيدة : « سأقبل بكل تأكيد ، ولكنني سأعلمك أولاً مع من تتعاملين ! » .

ولم تجرؤ كمالا بعد ذلك اليوم على أن تخرج باب البيت . وأصبحت تحتبس نفسها في غرفتها ، لتتغذى بالتفكير في أن عذابها قد بلغ ذروته . ومن ثم فلن تلبث السماء أن تبعث إليها بالخلاص !

وحدث ذات مساء أن خرج (موكوندا بابو) للترهة . وما لبث أن أقبل زائر توقف عند الباب الخارجي . ولم يكن حارس الباب موجوداً ونادت السيدة على الخادم الآخر ، فلم تجده . وفي تلهفها : رأت أمامها كمالا ، فهتفت بها : « أن الذكور نالينا كشاً بالباب .. اسرعى وافتح

له . وأخبره بأن زوجي قد خرج للترهة ولن يلبث أن يعود سريعاً » . فليشكرم بانتظاره .

وأسرعت كمالا وقد اشتد وجيب قلبها . وتخلخلت أوصالها ، وتحولت يداها إلى كتلتين باردتين . ورفعت المزلاج ، ثم أسدلت خاوها على وجهها وفتحت الباب ، ودعت الطبيب إلى الدخول . وجلس نالينا كشاً . سارحاً في تأملاته . بينما تسالت الفتاة إلى ركن من الشرفة ترفيه منه ، وصدرها يتهدج بعنف . وقلبها يخفق بقوة ، وقد سرت في كل جسدها رعدة شديدة ! .. وراحت تنم النظر إليه ، والدموع تفيض من عينيها دون انقطاع .. بل إنها حشدت جماع نفسها في عينيها ، حتى خيل إليها أن قوة نظراتها لن تلبث أن تجذب نالينا كشاً إليها ! ولاح لها وكان كل شيء يتصاهل ويذوب في الفراغ المحيط بها . ولم يعد أمامها سوى وجهه المغمور بضوء المصباح الوحيد في الحجرة .. كان هساناً هو الذي ، الخفيف الوحيد ، أما ما عداه فمبداً عن الحقيقة والواقع ! وغابت كمالا في نوبة استيقظت منها فجأة لنجد نالينا كشاً يتأرجحاً للانصراف وقد وقف يتكلم مع موكوندا بابو .

وتسالت إلى المطبخ : ومنه إلى ساحة صغيرة لايده لمن يغادر الدار أن يجتازها . وراحت تنتظر وقد سرت في جسمها وعقلها وقدة من حب .. كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل زوجاً لعمسة بائسة مثلهالاء . كانت على محياذ نفحة لينة من جمال مهيب ووقار .. فلما تبينت كمالا أن عذابها لم يذهب هباءً ، وإنما كان في سبيل رجل يستحقه ، راحت تنحني شكر السماء ! .. وعندما اتجه نالينا كشاً أخيراً إلى الباب الخارجي :

ألفت نفسها ترمقه وهي تناجيه في أسلوب الشعراء : يا مولاي . إن جارتك مستعيدة تحت سقف غريب ، وإنك لقر بها الآن دون أن تفض إليها ! .. وتسللت إلى الغرفة التي كان بها . فسجدت أمام المتعد الذي كان جالساً عليه ، وعفرت جبينها في التراب . وقيلت الأرض ! .. ما أشد تعاسها إذا لم تسجد له هو ! !

وعلت كمالا في اليوم التالي أن الطبيب نصح (موكوندا بابو) بأن يتقضى فترة استجمام طويلة ، في مكان يبعد عن المدينة بمئات الأميال غرباً ! وفيما كانت الاستعدادات للرحلة تجري على قدم وساق ، ذهبت كمالا إلى سيدتها قائلة : « ما أراى مستطبعة أن أغادر بنارمى » . فصاحت نابينكالى وهي تظن أن الفتاة تتخذ من الدين سترأ بقضاء : « بل تستلعيين .. ما الذى جعلك توغلين في التثوى فجأة ؟ » . قالت كمالا : « قولى ما شئت . ولكنى سأبقي هه .. أتوسل إليك أن تسرحينى ! » . فصاحت العجوز : « إنك فظيعة حقاً ! .. بعداً بعداً عدتنا للرحيل ، فما هذا الخيل الذى أصابك بفتنة ؟ .. كيف نستطيع أن نجد طاهية أخرى ، وأنت لم تخطرينا في وقت مناسب ! .. » وذهبت نوسلات كمالا أمراج الرياح ، فاحتسبت نفسها في غرقها . وراحت تبكى وتصلى !



الفصل الثالث والخمسون

● في مساء اليوم التالى لحديث (أنادابابو) مع ابنته بشأن الخطبة ، عاودته نوبة الألم التى كانت قد أصابته في كلكتا ، ف قضى الليل متوجعاً ، وإن كان في الصباح قد أحس ببعض الراحة . فجلس في مقعد بالحديقة ، وأخذ ينظر إلى الطريق . ويفغو تحت شمس ديسمبر . بينما كانت هنالقي تعد الشاي . وكان وجهه يمتشعاً . مكثهراً من أثر العناء الذى لاقاه في ليته . وقد أحاطت بعينه حالات سوداء . وبدأ وكأنما تقدمت به السن أعواماً خلال الليل ! .. وكانت هنالقي ، كلما رمقته : شعرت بالندم يخر فؤادها . فقد عزت النوبة إلى اسبابه من رفقتها الخطيئة . وراح ضميرها يذمها . واستولت على بالها فكرة العمل على التخفيف عنه . وفجأة . ذهلت إذ رأت أكشاي مقبلاً مع (العم) . وذهت بأن تسحب ، لولا أن صاح أكشاي : « أرجو أن لا تنصرفي . إن هذا السيد هو مواطننا الجليل تشاكرابارتى ، من (غازيبور) ، واصله ذائع في كل الإقليم .. وقد جاء في أمر هام ! .. » . وجلس القادمان على مقعد حجرى بالقرب من مجلس (أنادابابو) . ثم شرع (العم) يوضح مهمته قائلاً : (بلغنى أنكما من الأصدقاء الحميمين لـ (رامش بابو) ولذا جئت أسأل إن كان في وسعكما أن تمداني بأبناء عن زوجته ! .. » . وسليت المفاجأة أنفاس أنادابابو . حتى إذا غالب دهشته . هتف « زوجة رامش ! .. » . وغضت هنالقي بصرها . بينما استطرد (تشاكرابارتى) في حديثه : « قد تظنانى جلفاً عجوزاً . ولكنى أؤمن بأنكما لني ثلثتا أن ثلثينا أننى ما قطعت هذه الرحلة قادماً من (غازيبور) مجرد الخوف من صبر الناس هكذا ! .. »

لقد قابلت رامش بابو ، أثناء عطلات (البوجا) . وكان مصطحباً زوجته في رحلة على باخرة نهريّة . وأنكما لتلمان أن أحداً لا يمكن أن يرى كمالاً دون أن يقع أسير بحرهما ! .. وكان رامش بابو متردداً بشأن المكان الذي يغادر فيه الباخرة ، ولكن كمالاً لم تلبث أن تعلقت بشخصي المكهل « وأغرّت زوجها على الهبوط في غازيپور والإقامة معنا . ولست أستعمل الحديث عما جرى بعد ذلك .. لقد اختفت الفساة العزيزة وتركنا كسيري القلوب ! » .

وتملك التأثر (العم) ، فسكت . وما لبث أنادابابو أن سأل عما جرى للفتاة ، فأخذه (أكشاي) يروي القصة كلها . ويدون أن يعلق بحرف أو يضيف حرفاً ، استطاع أن يبرز تصرفات رامش في أسود إطار : ثم قال : « لكم كنا نتخبط في الظلام . إذ لم نكن موقنين من أنه متزوج من كمالا ! » . والتفت إلى العم قائلاً : « وأنت أنت يامسدي من أنها كانت زوجته ، وليست أخته أو إحدى قريباته ! » .. فصاح العم : « ما الذي تعنيه يا أكشاي بابو ؟ كانت زوجته بكل تأكيد » وكانت خير زوجة يخطئ بها رجل ! » . قال أكشاي : « من الغريب أن الزوجة كلياً كانت فاضلة ، كان جزاؤها سيئاً ؟ » .. فقال أنادابابو ، وهو يتخلل شعره الناحل بأصابعه : « لم يعد ثمة عيال لعمل شيء ، فقيم التمسر ؟ » . وإذ ذاك قال أكشاي : « إنني لم أقتنع مطلقاً بأن كمالاً انتحرت . بل بدا لي من المحتمل أنها قُرت من بيتها . ولذلك جئت وهذا السيد نبهت عنها في بنارس » .

وتساءل أنادابابو : « وأين رامش الآن ؟ » .. فأجاب العم : « لقد

غادرنا دون أن يترك عنواناً » . وتحول أكشاي قائلاً : « لقد علمت أنه عاد إلى كلكتا » .. ثم توجه لي (تشاكرابارتي) يسأله أن ينطلق معه إلى المدينة ليشرعاً في البحث ، فسأله (أنادابابو) : « هل ستقيم معنا يا أكشاي ؟ » .. فأجاب : « أخشى أن لا أستطيع أن أجزم بذلك ، فلقد وهبت هذه المسألة كل اهتمامي ، وسأكرس كل وقتي في بنارس من أجل البحث . تصوروا حال الفتاة الرقيقة النفس .. لا بد أنها وجدت الحياة في دارها لا تطاق . فلافت بالفرار ! .. تصوروا ما قد تكون فيه الآن من عذاب ! » .



● وظل (أنادابابو) طويلاً يتأمل وجه ابنته في قلق ، بعد انصراف الرجلين . وبذلت (هناليني) مجهوداً جباراً لتتمالك نفسها — إذ كانت تنوء مدى قلق أبيها من أجلها — ثم قالت أخيراً : « أرى يا أبت أن لا بد من استدعاء طبيب لفحصك اليوم ، فإن أئمة الأمور يتعب صحتك في هذه الأيام » .. وارتاح الشيخ إذا رأى أن ابنته ما زالت تهتم بصحته رغم ما سمعته عن رامش . فانتبه الفرصة ليقول : « هذه فكرة طيبة ، ويحسن لي أن استدعي الدكتور ناليناكشا فوراً ! » . وأجفلت الفتاة لذكر (ناليناكشا) . ولكنها تمالكت نفسها وقالت في اغتباط : « هذا أفضل ، وسأبحث في طلبه » . وشجع حال (هناليني) أباهاً على معالجة المسألة الشائكة . فقال لها : « بهذه المناسبة يا هي ، إن مسألة رامش ... » ولكنها تقطعت عليه الحديث قائلة : « إن الشمس حامية يا أبت ! » . وقبل أن يجد فرصة للمعارضة ، كانت (هناليني) قد غادرت إلى

داخل الدار . فأجلسته في مقعد . وأسلمته صحيفة . ثم قالت : « سأتركك قليلاً يا أبت ! » . وحاول (أتادا بابو) أن يصرخ عليها « في جهد الطفل الصغير ، إذ ما لبث بعد قليل أن نهض يبحث عنها . ولكنه وجد باب مخدعها موصداً . فعاد إلى الشرفة . وجلس فيها والتفلق يفرى أعصابه . حتى وصل الدكتور (ناليانكاشا) .

وفحصه الطبيب في عناية . ثم وصف له العلاج . وتحول يسأل (هيم) عما إذا كان ثمة ما شغل بال الشيخ أو أقلقته في الفترة الأخيرة . وردت الفتاة بالإيجاب . فقال : « يجب تجنبه كل أسباب القلق ما أمكن .. إنني ألقى نفس العناء مع أبي . فهي تتأثر بكل مسألة إلى درجة يصعب معها صون صحتها . إنني أحاول بطبيعة الحال أن أجعلها بمنزلي عن كل ما يثير الانفعال . ولكن من الصعب تحقيق هذا في دنيانا الحافلة بالمناعب » . فقالت له (هناليني) : « إنك أنت أيضاً لا تبدو في صحة طيبة اليوم ! » . فقال : « آه ، إنني بخير . كل ما هنالك أنني ظلمت ساهراً شطراً من الليل » . وقالت هيم : « من الأفضل أن تبحث عن امرأة ترعى أمك باستمرار . إذ ليس يوسعك أن تعنى بها كما ينبغي ، فضلاً عن أن عملك يتطلب منك جهداً .. ولم تكن هناليني تفكر في نفسها حين قالت ذلك . ولكنها ما أن نطقت بالكلمات حتى فطنت » فتصرع وجهها حياء . إذ خطر لها أن ناليانكاشا قد يؤول قولها على غير ما قصدت . ولاحظ يدوره ارتباكها . فتذكر ما عرضته عليه أمه بصدها ، ومن ثم حذرها عن تقاليد أمه الدينية التي تجعلها تأبى أن يقوم بخدمة أجير . ولم تصغ (هناليني) إلى حديثه .

إذ شغلها أمر . فاثبتت أن قالت : « إنني حين أعود إلى اتباع تعلماتك لا ألبث أن أصطدم بعقبات متوالية تضطرني إلى أن أحيـد عن حياتي . إنها ترهبن وتسلمني إلى اليأس ! » . فقال بعد تفكير : « يجب أن تدركي أن الصعاب لا تقوم في طريقنا إلا لتحفزنا على العمل والكفاح ! » .. ورجته أن يزورها في اليوم التالي . إذ وجدت في لهجته المطمئنة الواثقة ما بعث في نفسها السكينة المنشودة ! وظلت بعد انصرافه تشعر بأن كلماته كانت بلسماً لجراحها ! ووقفت في الشرفة نسرح البصر في الفضاء الذي غمرته أشعة الشمس . وفي بهاء الظهيرة خيل إليها أنها ترى عالم الخلوقات في نصب وفي استجمام ، في آن واحد .. تمثلته مفعماً بالقوة ولكن في هدوء ودعة .. وأحسّت بأن الشمس الحامية . والسماء ذات الصفاء الباهر . تسيران على نفسها بركة وأمناً !

وانتهت أفكار هناليني إلى أم ناليانكاشا . كان سبب هم العجز وأرقها جلياً . وكانت الفتاة قد تغلبت على المفاجأة . فلم تعد تجفل من تدبر فكرة الزواج المقترح . بل إنها كانت أكثر حاجة إلى ناليانكاشا عن ذي قبل ، لا يشوب ولاء لها له سوى وخزات قلقة يبعثها في نفسها الحب المهجور ! .. وكانت تدرك أن ناليانكاشا في غير حاجة - من الناحية العاطفية - إلى حب المرأة . ولكنه كان في حاجة إلى خدماتها ، لا سيما وقد كانت أمه مريضة ولا بد لها من رعاية . ولا شك في أن خادمة رجل مثله تعتبر نوعاً من التقوى والعبادة ! .. ولقد كان الفصل الذي سمعته عن حياة رامش في ذلك الصباح : صلوة بحاجة اضطرت

إلى أن تستجد بكل قواها لتدفع عنها وقعها : وأحت - في حالها الراحة - بأنها لم تعد تأسي على رامش ، ولا تجد من نفسها ميلا إلى أن تحكم على أعماله . بل إن ميلا غريزيا أوحى إليها بأن تقضى عن ذهنها كل تفكير في رامش . وكانت إذا تصورت مصير كمالا ، ارتجفت فرقا ، ثم لا تلبث أن تسأل نفسها : أية علاقة لها بحادث الانتحار التمس ؟ .. ولكن الخزي ، والسخط ، والإشفاق . لا تلبث أن تتنازعها ، فتضم راحتها إلى صدرها وتنف : « رباة ! لماذا قضيتي هذه الأفكار وأنا لم أرتكب ذنبا ؟ .. ألا خلصني من هذه الروابط الدنيوية .. حررني منها تحريراً كاملاً ! »

■ ومع أن أنادا بابو كان يتحرق شوقاً ليعرف تأثير قصة رامش وكالا على ابنته . إلا أنه لم يجرؤ قط على أن يمس الموضوع ! .. على أنه حين جلس إلى جوارها في المساء - يشرب قدحاً من اللبن أذيب فيه الدواء - وجد فرصة سائغة . إذ سأل همناليني أن تلتق مصاريع النافذة . فسادت الحجرة عتمة وادعة .. وإذ ذلك قال : « إن الكهل الذي زارنا اليوم رجل طيب ! .. ولم تجب : فتشجع واتخذ خطوة أخرى ، فقال : « شدا أذهلني مسلك رامش ... » ولكنها قاطعته في ضراعة : « دعنا من ذكره يا أبت ! .. » قال : « ما أردت أن أبحث شئونه يا عزيزتي ، ولكن القدر شاء أن تربط سعادتنا وتعاستنا بشخص أو بآخر ، فليس بوسعنا أن نتجاهل تصرفاته ! .. ولكنها صاحت : « لا .. لسنا نملك أن نقيم سعادتنا وتعاستنا على أي فرد ..

إنك تجعلني أشتر من نفسي يا أبت إذا كدرت نفسك ظناً منك أنني متأثرة بشيء ! .. فقال : « لقد اكتهت يا ابنتي ، ولن أهنأ حتى أراك مستقرة في حياتك . كيف أرتاح في موئى إذا تركتك غير متروجة ؟ .. إن تعرضنا للأحزان والصدمات القاسية ، يجب أن لا يجوز لنا عما نستطيع الحياة أن تقدم لنا من أنعم أخرى ! .. إنك في أساك قد لا تبصرين الطريق التي تؤدي بك إلى حياة سعيدة ، نافعة .. ولكن ، تذكرى أولاً أن لا هم لي سوى خيرك .. وإني لأعرف أين تكن مصلحتك ورفاهيتك . فلا ترفضى الخطبة التي عرضتها عليك اليوم ! .. واختلج جفنا الفتاة . وقالت : « ما كنت لأرفض لك طلباً يا أبت . ولكن دع لي الفرصة كي أظهر قلبي من المواجهس وأمي نفسي ! »

ومد (أنادا بابو) يده في الظلام ، فتحسس وجنتي ابنته المرطبتين بالدموع . دون أن يتكلم !

وكان الأب وابنته يجلسان إلى مائدة الشاي . حين أقبل أكشاي . وقال وهو يتقبل قدحاً من الشاي : « لم نعر بعد على أثر ! .. على أن لـ (رامش) وكالا بعض أمتعة لدى تشاكرا بارق وأنه لحائر بصدها .. ولو أن رامش عرف بمكان وجودكما ، لأتى إليكما ، ومن ثم ... » : وهنا صاح (أنادا بابو) مغضباً : « ظننتك أكثر إدراكاً من هذا .. لماذا يأتى (رامش) إلينا ، ولماذا تحتفظ بأمتعة ؟ .. إنك إنما تحاول أن تستثيرنا بالذباب على ذكره يا أكشاي . وإني لأطلب إليك أن لا تذكر هذا الموضوع مطلقاً ، ومهما تكن الأسباب !

الفصل الرابع والخمسون

● وحانت الليلة السابقة على رحيل (موكوندا بابو) . فأخذت كمالا تتوق إلى حادث يعطل الرحيل ! وراحت تصلى عمى أن يفد الدكتور نابيناكشا على الدار قبل الرحيل . ولكن أميتها لم تتحققا ! .. وكانت (نابيناكشا) قد حرصت على أن تستبجها تحت رقابتها . خشية أن يهرب خلال جلبة الاستعداد للرحيل . وأمرتها في تلك الليلة بأن تنام معها في غرفة واحدة . لتصلحها في العربة التي تستقلها الأسرة إلى القطار في الصباح .

وغادر القطار (بنارس) في موعده . فانطلق في سرعة وضجيج ، كأنه فيل هائج يعبث فساداً . وأحست (كمالا) كأن ناي هذا القيل يمزقان نفسها . وأخذت تطل خلال النافذة بينين نهيتين . وعندما درج القطار فوق الجسر . مالت (كمالا) بجذعها خارج النافذة ، تلقى نظرة أخيرة على المدينة المترامية على ضفة النهر . وصاحت نابيناكشا : « عجباً » ما الذي يدعوك إلى أن نشرثي بمنك هكذا ؟ .. أتظنين أنك طير يستطيع أن ينشر جناحيه ويطيئ ؟ ! »

واختفت (بنارس) عن بصر (كمالا) . فقالت في مقعدها تحملك في الفضاء . وما لبث القطار أن وصل إلى (موجالسيراى) . وكان على القوم أن يهبطوا ليستقلوا قطاراً آخر إلى (ميروت) . وخيل لـ (كمالا) -- وسط ضجيج المحطة وزحامها -- أنها في حلم ! .. وفجأة .. أذهلها أن سمعت صوتاً مألوفاً يهتف : « أماء ! » .. والتفتت صوبه .. فإذا بها

تري (أومش) وقد أشرق وجهه حوراً . وفزع الصبي من عربة أحد القطارات . وارتمى عند قدميها يتحسس التراب تحتها ويصوه على رأسه في توقير ! .. وفي اللحظة التالية ، تحرك القطار الذي كانت نابيناكشا وحاشيتها قد استقلوه . وصرخت العجوز : « ماذا تفعلين ؟ .. هيا .. اصعدى .. لقد تحرك القطار ! » .. ولكن كمالا لم تكن تسمع شيئاً .. والقطار ماض بسرعة مطردة : حتى غادر المحطة .

وقالت كمالا : « من أين أتيت يا أومش ؟ » .. فأجاب : « من غريو .. وأمرتته بالأسئلة عن القوم .. وقد أغرورقت عيناهما بالبكاء .. ثم عادت تسأله : « وإلى أين سذهب ؟ » .. قال : « معك يا أماء ! » .. فقالت : « ولكني لا أملك شروى نقيير ! » .. قال : « لا تحملي هما .. إنني لم أنفق درهماً من الروبيات الخمس التي أعطيتها ! » .. فهتفت : « إذن ، هيا يا أومش .. لنعد إلى بنارس .. اذهب فابتع لنا بطاقتي سفر .. وإن هي إلا لحظة حتى عاد بالطاقتين ، فقادهما إلى القطار الداهب إلى (بنارس) ، ويعد أن اطمأن إلى استقرارهما في المتصورة الخاصة بالحريم : اتخذ لنفسه مكاناً في مقصورة مجاورة . وإذ هبطا في (بنارس) . قالت كمالا : « إلى أين نذهب ؟ » .. فقال الغلام : « سأحبك إلى أصلح مكان » .. فهتفت في عجب : « أصلح مكان ؟ ! » .. وقال وهو يدفع بها إلى عربة : (سترين ! .. وما لبثت العربة أن استقرت بهما أمام دار . فدعاها (أومش) إلى الهبوط . وصاح وهو يلج الدار : « أأنت هنا يا جداه ؟ » :: فواتاه الجواب من إحدى الغرف : « أهذا أنت يا أومش ؟ » :: (العم)

إذ ذلك من إحدى الغرف ، فأشرق بحيا (أومش) : . ودخل الشيخ حين رأى كمالا أمامه يبدى له آيات التوقير ! وانقضت لحظة قبل أن يقوى الرجل على الكلام ، ولكنه لم يفقه ما بدر منه . وما لبث في النهاية أن أمسك بذقن كمالا ، ورفع وجهها الصغير نحوه ، وهتف : « ها قد ردت ابنتي الصغيرة إلى ! » . ثم صاح بأعلى صوته : « سايلاجا سايلاجا ! .. تعالى ! .. » وأقبلت سايلاجا تظل من الطابق العلوى . ثم طوت درجات السلم . وانحنى (كمال) ومست قدميها ، قضمتها (سايلاجا) إلى صدرها . وقبلت جبينها ، ثم قالت والدموع تنساب من عينيها : « يا عزيزتى ! .. كيف تتركيننا هكذا ؟ .. أما عرفت أن عملك قد جعل قلبنا ؟ » . وفي اللحظة التالية أقبلت (أوى) تهز ذراعيها وتصرخ في غبطة : « خالتي ! خالتي ! » ، فاختطفتها (كمال) بين ذراعيها ، وضمتها إلى صدرها ، وأغرقتها بالقبلات :

وكانت (سايلاجا) قد أصرت على أن تصحب أباهما . حين أخذ برأى (أكشاي) ووافق على أن يصحبه إلى (بنارس) . وفيما كانوا يهبطون من القطار ، لحوا (أومش) يهبط خلفهم ، إذ كان قد تسلل إلى القطار ليرافقهم خلسة . ولكن الأب وابنته ما زالا به حتى قبل أن يعود إلى (غازيبور) . بيد أن الصبي لم يطق بقاء هناك ، لاسيما وكمالا ليست في البلدة ، فما لبث أن استغل الفجوة التي كان (العم) قد منحه لإياها ، في العودة إلى (بنارس) . .. فكان هذا اللقاء !

الفصل الخامس والخمسون

● أقبل (أكشاي) لزيارة (تشاكرا بارتي) في اليوم التالي : فلم يقل له أحد شيئا عن عودة (كمال) . إذ كان (العم) قد بدأ بحلس كراهية الشاب لرامش . ولم يسأل أحد كمالا عن سبب هربها ، ولا أين كان ملاذها . وكان يجيئها إلى الأسرة كان أمرا طبيعيا بعد غياب عادي .. ودعت (سايلاجا) كمالا في تلك الليلة إلى أن تشاظرها غدعها ، وضمتها في أحضانها . وراحت تمسح رأسها في رفق وحنان . مما حفا أعصاب (كمال) ، فشرعت تروى لها سرها : « لست أدري لم لم أستطع أن أروى لك القصة من قبل ؟ .. لم أكن إذ ذاك أقدر تطور الأمور ، فلقد جئني السامنة بغتة . فشعرت بأن ليس في وسعي أن أواجهكم ثانية ! .. لقد حرمت من أبي وأنى يا ديدي . ولكنك لي أم وأخت ، ولهذا أراي على استعداد لأن أروى لك ما لم أكن لأرويه لأى مخلوق ! » واستوت كمالا جالسة في الفراش ، فحدثت (سايلاجا) حذوها . وراحت الأولى تروى قصتها منذ تزوجت . وعندما ذكرت كيف أن الرجل الذى وقعت بين يديه عقب نجاتها من الفرق ، والذي ظننته زوجها ، لم يكن زوجها البتة ، حاصلت فيها (سايلاجا) في دهشة ، وأحاطت عينيها بذراعيها . فقلته : « واهأ لك يا مسكينة ! .. الآن فهمت كل شيء ! .. ولكن ، ألم يفطن رامش بابو إلى الحقيقة ؟ » .. فقالت كمالا : « في ذات يوم - بعد الزواج بعدة - ناداني باسم (سوسيل) ، فقلت له : « لم تدعوني سوسيل ، وأنا أدعى كمالا ؟ » . وأنى لأدرك الآن أنه فضل إلى الأمر .. »

وانتزع (سايلاجا) قطعة فتقطعة : حتى إذا فرغت (كالا) منها ، قالت (سايلاجا) : « إنه لأمر فظيع بالنسبة لك يا عزيزي ، ولست أملك إلا أن أرى أنك كنت محظوظة حين وقعت بين يدي رامش بابو دون سواء .. لكم أنا أسفة لخال ذلك الرامش بابو المسكين ! »

وكانت كالا ما تزال تحتفظ بالخطاب الذي كان رامش قد كتبه لهناليني . فلما أفضت (سايلاجا) لأبيها بالقصة في الصباح التالي ، قرأ الخطاب في إمعان ، ثم وضعه في مظلوف . وخلع نظارته عن عينيه . وقال لابنته : « وما الذي ينبغي عمله الآن ؟ » .. فقالت : « لقد أصيبت (أومي) ببرد في الليلة الماضية ، وأحب أن أدعو الدكتور (تاليناكشا) ، فإن المرء يسمع كثيراً عنه وعن أمه في (بتارس) ! » .

وأقبل الطبيب ، ففحص الطفلة .. وأظهرت (سايلاجا) تلهفاً إلى رؤيته ، وهتفت بكالا كي تصحبها . ولكن (كالا) التي لم تقو على مقاومة شوقها إلى رؤيته في دار تاليناكشي ، لم تقو في هذه المرة على رؤيته لفرط حياتها !

■ وفي ذات يوم ، سعى (العم) بنفسه إلى دار الطبيب . متخيراً وقتاً لا يجده فيه هناك . والتمس رؤية أم (تاليناكشا) . فلما اقتيد إليها ، قدم إليها نفسه قائلاً : « إن المرء يسمع عنك في بتارس كثيراً يا أماء ، ومن ثم جئت أتمس حظوة لقاتك . إن لي حفيذة مريضة . وقد جئت أنشد ابنك » فإذا هو غير موجود ، ولم أر أن أنصرف قبل أن أرفع

إليك احتراماتي » . وارتاحت إليه كشمكارى ، فدعته إلى الجلوس ريثما يعود ابنها .. وقالت : « يجب أن تأتى غداً لتتناول الغداء هنا ، إذ أنتى غير متأهية لاستضافتك اليوم ! » فقال العم : « أرجو أن لا تنسى الشيخ المائل أمامك ، حين تكونين في حاجة إليه .. بوسعى أن أصحب خادمك فأريه دارى .. وهى جده قريبة من هنا » . وبعد عدد من الزيارات . أصبح (العم) من أصدقاء الأسرة المتردين على البيت !

وظل الأب وابنته يرسمان خطتهما بدقة وحذر . إلى أن كان ذات صباح . إذ قال العم لـ (كالا) : « هيا يا فتاتى . يجب أن نذهب للاغتسال فالبروم عيد دساواميد » .

وتخلفت سايلاجا عن مرافقتها متعللة بتوعلك ابنتها . حتى إذا آن لها أن يعودا . سلك العم بكالا طريقاً غير التي سلكها في المجيء . والتقى في تلك الطريق بالسيدة العجوز عائدة من التهر . ترفل في غلالة من الحرير . وتحمل جرد ملينة بضاء (الجانيز) . فاعترض العم طريقها وقال لكالا : « هذه أم السيد الطبيب يا عزيزتى ، فحيها ! » .. وأجفت الفتاة مأخوذة . ثم سبلت عند قدمي كشمكارى ، ومست الغبار العالق بهما . فهتفت السيدة : « يا عجبا ! .. من هذه ؟ » .. يا لجالها ! .. واتزع النصاب عن وجه (كالا) . وسألها العجوز : « ما اسمك يا عزيزتى ؟ » . وقبل أن تجيب كالا . قال العم : « اسمها هاريداسى وهى ابنة ابن عمى . فقدت أبويها فكنفتم » .

ودعتهما إلى دارها . وهناك قال العم : « أحب أن أدعو لك أن

فريقى هذه كانت منحوسة الحظ . ففي صبيحة يوم زواجها ، زهد زوجها الدنيا ، وفارقها فلم تره منذ ذلك الحين . وقد اعترمت أن تكرر حياتها للعبادة في أحد الأماكن المقدسة . ولكنى لا أقم هنا ، ولا أستطيع أن أستغنى عن على في (غازي بور) . ولهذا سألك أن تسدى لى صليماً . لسوف أزيح عن رأسى عبئاً يشغلنى . إذا استطاعت أن تمكث معك وتغادر ابنة لك . فإذا سئمت يوماً عشتها « فرديا لى في غازي بور . ولكنى أؤكد لك أنك لن تلبى أن تنبئى - خلال يومين - أنها أكثر غال ، ولن تطيق فراقها لحظة واحدة ! .. فهضت السيدة : « هذا اقتراح طيب ، فكم من مرة سرف أن أنفط الغريبات من الطريق فكنت آتى بهن لأمنجهن السماء والقوت . ولكنى لم أكن أستطيع استبقاهن معى . أما وقد أسلمتنى (هاريداسى) ، فلا تحمل ظاهماً . ولا بد أنك سمعت عن تقوى ابنى .. وليس سوانا يقيم هنا ! .. فقال العلم : « كل إنسان سمع عن نالينا كشا . وأنى لمغتبط من صميم فؤادى إذ أعرف أنه مقيم معك . لقد سمعت أن زوجته غرقت بعد زواجهما ، وأنه يعيش ناسكاً ! »

وما أن انصرف (العلم) ، حتى أدت (كشمينكارى) الفتاة منها قائلة : « دعبنى أنظر إليك .. أنك طفلة .. أى زوج غيب هذا الذى فارقك ! .. إبنى لأدعو أن ترده إليك السماء ، فإن القدر لم يخلق مثل جمالك ليذهب هباء .. إنك لن تجدى لدات من سنك هنا - فهل تطيقين العيش معى وحيدة ؟ .. » فقالت (كالا) وعيناها الجميلتان تفيضان بالرضى : « أجل يا أماه .. وسوف أودى لك كل الأعمال ! .. »

وإذ ذلك هضت السيدة : « أهكذا ؟ ! .. » ونحوت تعدتها عن زهد ابنا ، وأنه لا يسر خاطرها مرة يطلب نوع من الأكل ، ثم قالت : « إذا كنت ستقتضين ساعات اليوم الأربع والعشرين معى ، فدعبنى أنفوك مقدماً بأنك لن تلبى أن تسألى ممهاى وأنا أنغنى بمديح ابنى . ولكن عليك أن تحتلى ! »

وسألها إن كانت تعرف الحياكة . فقالت كالا : « إلى حداما .. » قالت السيدة : « سوف ألقنك دروساً في ذلك . وهل تحبين القراءة ؟ » فقالت (كالا) : « أجل .. كذلك تعلمت الطهو والتدبير المنزلى . وأحست بأن أمامها فرصة لكي ترضى رغبة تملك فتأدها فهمست : « ألا دعبنى أقوم بالطهو اليوم يا أماه ! .. » فابتمت (كشمينكارى) قائلة : « إن غزن المون والمطبخ هما ملكة الزوجة الصالحة . ومن ثم انهمكت (كالا) في أعمال المطبخ . بينما آبت العجوز إلى الغرفة التى أعدتها لتعبد فيها .

وكان من عادة (نالينا كشا) - إذا ما عاد إلى البيت - أن يبادر إلى رؤية أمه قبل كل شيء ، إذ كانت حصتها شغله الشاغل . فما أن دخل الدار في ذلك اليوم ، حتى أنباه أنه وأذناه . بأن الطهو يجرى على قدم وساق في المطبخ . فظن أن أمه هناك . وسعى فوقف في مدخل المطبخ . وانتبى (كالا) إلى وقع قدميه ، فالتفت . وإذا بها تجد نفسها وجهاً لوجه مع (نالينا كشا) ، فتركت المفردة من يدها وحاولت أن ترخى القناع على وجهها . ولكنها أخفقت .. بينما استدار (نالينا كشا) وانصرف .

حتى أسلمت العجوز إلى سريرها . وجلست لتدلك لها قدميها . وقالت السيدة : « ما الذي فعلت لأكون جديرة بهذا ؟ » لقد فطرت بحيث لا أفتقر أن يخدمني غريب . ولكن لمسلكت تبعث القوة في كيانى ! .. ما أغرب أن أحس بأننى عرفتك منذ سنوات ، فليست أراك غريبة عني ! .. والآن . هيا إلى فراشك يا عزيزتى ، ولا تحفلى ! فإن غدع نالين لصق غدعى . وهو لا يسمع لأحد غيره بالسهر على أمه .. فن فضائله وميزاته أنه يستطيع أن يقضى الليل ساهراً » وأن يحتمل كافة المتاعب . دون أن يبدو عليه أثر لذلك . أحسبت ستضحكن في قرارة نفسك لأننى لا أكف عن الحديث عنه .. ولكنه ابني الوحيد . بل ابني أختل أحياناً أنه أبى . وأنتى عندما أكبر سأستطيع أن أجزيه عن كل ما يفتقنه من أبى !

واضحت (كمالا) في اليوم التالي على أعمال البيت . وعندما دخل (نالين) - جرحه مكنته في الصباح . وجدته حارئة النظافة . وقد أزيلت آثار من الكتب التي رثبت على الأرض بعناية . وكشفت أشعة الشمس الساطعة عن ماضي نظافة أرض الغرفة . كذلك وجدت كشمينكوى عند استيقاظها . أن كمالا نجم في انتظارها ، حاملة جرة من مياه (الجائيز) ، فتهتفت بعد أن غسلت وجهها : « هل دعبت إلى النهر وحيدة يا عزيزتى ؟ .. إنك صغيرة وما ينبغي ... » فقالت كمالا : « لقد عجز أحد خدم عمى يا أمه عن أن يكمي نفسه عن الخبى » لزيارتي ليلة أمس ، فاصطحبته إلى النهر .. وكان ذلك (الخادم) هو (أومش) ، الذي سرق السيدة العجوز : لم أره فسمعت

■ لم يمض وقت طويل حتى فرغت (كشمينكوى) من عبادتها ، وعادت إلى المطبخ ، فإذا كمالا قد فرغت من الطبخ . ونظفت المطبخ تماماً . وعندما أعد الطعام ، جلس ناليناكشا وأمه إلى المائدة ، بينما وقف شخص صغير ، منفعل ، يتسمع خارج الباب . وصحبت (كمالا) (كشمينكوى) تقول : « ما رأيك في الطعام اليوم يا نالين ؟ .. ولم يكن (ناليناكشا) شهما بطبعه . ولا كانت الأم قد عرفت أن ابنتها قد علم بوجود فتاة غريبة في المطبخ . وأنه سر لذلك ، إذ كان دائماً يسعى لإغراء أمه على استخدام طاهية . بعد أن ضعفت قواها . ولم يتألك الشاب أن قال : « إن الطعام رائع يا أمه ! » .. ولادت كمالا بأقرب غرفة . وعقدت ذراعيها على صدرها تحاول أن تخفف من تهديجه . وما لبث ناليناكشا أن لاذ بغرفة مكنته . فمكثت أمه على تنسيق شعر كمالا في فترة ما بعد الظهر . ثم راحت تدبر رأسها بمنة وبسرة . تتأمل منظرها . و (كمالا) في درجة من الخجل لا تقوى معها على التطلع . وأرسلت السيدة العجوز زفرة حوى . وصمت لنفسها : « آه ، ليتنى أجد لابنى زوجة مثله ! »

وفي تلك الليلة . اقترح (ناليناكشا) على أمه أن ترافقه بعيداً عن (بنارس) بضعة أيام للاستجمام . ولكن (كشمينكوى) هتت : « لا يا بنى .. إننى لا أضمن أن أعيش أياماً ، ولا أريد أن تقضى آخر عمرى في مكان غريب ! .. ثم التفت إلى كمالا ، قائلة : أسرعى يا عزيزتى إلى غرفتك ، ولا تضيعي شيئاً من وقت النوم . وأنت يا نالين .. إلى غرفتك ، فقد آن لك أن تنام ! » .. ولكن كمالا ظلت

لـ (كالا) بأن تستقيه في البيت ليساعدها في أعمالها . وهكذا استطاعت
كالا أن تخرج من أعمال البيت مبكرة بمساعدته . ثم تحولت فجمعت
ثياب (نالينا كشا) المتسخة فغسلتها وجففتها ونسقتها :

* * *

● أقبلت هناليني - بعد ظهر ذلك اليوم - تحمل باقة من الزهور -
فانحنت راکعة لـ (كشمنا كاري) . التي جلست في فراشها قائلة : تعالى
يا هم .. اجلسي .. هل أنادا بابو بخير ؟ .. فأجابته الفتاة : كان
متوعداً أمس . ولهذا لم أستطع الحضور . ولكنه نحنس اليوم ..

وتحولت السيدة العجوز تعرفها بـ (كالا) قائلة : إنك لتعرفين
يا عزيزتي أن أمي ماتت في طفولتي ، وها هي ذى قد بعثت بعد كل
هذه السنين ، فالتقيت بها في الطريق بالأمس . على غير توقع ..
لقد كان اسمها هاريياجيني ، فاتخذت في تقمصها اسم هارياداسي ..
أرأيت من قبل مثل هذا الجلال يا هم ؟ .. ونكست كالا رأسها في
استحياء ، ولم تستطع أن تتخلص من خجلها في حضرة هناليني إلا بعد
وقت . وسألت هناليني السيدة عن تحتها ، فأجابت : إن المرأة إذا
بلغ ما بلغت من السن ، لم تعد تمة حاجة للسؤال عن تحتها . والواقع
أنني قابعة بأني ما زلت على قيد الحياة . ولكني لن أستطيع أن أختدع
الزمن طويلاً .. وبهذه المناسبة . أحب أن أتحادث إليك في أمر طال
ترقبني الفرصة الملائمة للمباحثك فيه .. هل ذكر لك أبوك الاقتراح الذي
عرضته عليه منذ أيام ؟ .. فأجابت (هناليني) وقد غضت بصرها :
« أجل ، ذكره لي » .

فقالت كشمنا كاري : « ولكنك على ما يبدو لم توافق يا عزيزتي ،
لأن أنادا بابو لم يوافقني برد . لقد حسبت نالين ناسكاً يقضي نهاره وليله
مستغرقاً في العبادة ، فشعرت بأن لا قبل لك بالزواج منه . والواقع أن
من لا يعرفه يظنه عاجزاً عن الحب . ولكن الناس يخطئون في هذا ..
إن عواطفه لعارمة ، وهذا فهو دائماً يحرص على السيطرة على مشاعره ! .
إنك لست طفلة يا عزيزتي هم . بل إنك فتاة مثقفة . وقد ارجحت إلى
تعالم نالين . وأني لأموت راضية إذا وجدتك مستقرة في بيتك ! ..
سارحيني يا عزيزتي . ما الذي لا يروق لك منه ؟ » .. فقالت هناليني
وهي تقض بصرها : « ليس لدى اعتراض إذا رأيتني صالحة له
يا أماء ! »

وإذ ذاك ضمت كشمنا كاري الفتاة إليها ، وطبعت قبلة على جبينها
ثم التفت إلى (هارياداسي) . ولكنها لم تجد لها أثراً . فقد تسلمت الفتاة
من الحجرة وهما يتحدثان . وما إن انصرفت هناليني . حتى استدعت
السيدة العجوز نالينا كشا . وهاتئة . وتقبل الشاب النبا في كملوه ، وهو
يرجوها أن لا تتفعل . وأن تستسلم للنعام . وإذ خرج . نادى السيدة
(كالا) . وأسلمتها الزهور التي أحضرتها هناليني ، فوضعت بعضاً
منها في آنية للزهور على مكتب نالينا كشا ، كما وضعت بعضاً آخر في
مخدعها . ووضعت الباقي على نعلين كانا في صوان ملايسه ، ثم ركعت
أمامهما . والدموع تتحدر من عينيها ، وهي تفكر في أنها لن تمسود
تملك أن تعبد .. حتى النعلين ! .. وفجأة . سمعت وقع قديم نالينا كشا
فأسرعت تغلق الصوان . والتفت ، فإذا في يديها ثياب ونجست لونها

ذابت في أشباح الليل المقبل !.. أما هو ، فقد تحول عن الغرفة فجأة حين رآها . وإذا ذلك غادرتها كالآلة مسرعة ، فأسرع بدوره إلى الصوان يحده الفصول إلى معرفة ما كانت تفعل . وما إن أبصر النعيلين وقد غطتهما الزهور البانعة ، حتى تحول إلى النافذة . وكأنه يريد أن يعب من آخر أشعة الشمس المحتضرة !

الفصل السادس والخمسون

■ أخذت همناليني - بعد أن وافقت على الزواج من ناليناكشا - تحاول أن تقنع نفسها بأنها كانت سعيدة الحظ ، وشرعت تحاول التحرر من الماضي وأشجانه . ودخلتها السكينة التي تعقب اختتام فصل من فصول الحياة البشرية . حتى إذا عادت إلى دارها في ذلك المساء ، كانت تشعر براحة سابعة . ووجدت أباه قد أوى إلى مخدعه مبكراً ، فأوت بدورها إلى غرفتها ، وعكفت - حتى ساعة متأخرة - على تسجيل مشاعرها في مذكراتها ، فكثبت : « كنت قد قطعت كل الروابط الإنسانية ، واعتبرت نفسي ميتة بالنسبة للعالم ، وما خطر لي قط أن الله قد ينقذني ويكتب لي حياة جديدة ! » .

وكان أنادابابو وهمناليني يهمان بتمارحة دارهما - بعد ظهر اليوم التالي - قاصدين إلى دار ناليناكشا ، حين أقبلت على الدار عربة يقودها أحد خدام ناليناكشا : فهيبت منها كشمسكارى . وأسرع أنادابابو إلى استقبالها ، فبادرته قائلة : « لقد جئت أبارك ابتك ! .. وأنحاط معصبي الفتاة بزوج من الأساور الذهبية الثقيلة ، أركعت (همناليني) »



فوضعت بعضاً منها في أنية للزهور على مكتب (ناليناكشا) ،
كما وضعت بعضاً آخر في مخدعه ..

عند قدميها : وإذ ذاك احتضنت السيدة وجهيها بين يديها ، وضعت قبلة على جبينها .

وفي الصباح التالي ، جلس الأب وابنته في الحديقة يتناولان الشاي والشيخ في أقصى درجات الغبطة ، يتأمل وجه ابنته ، ويتخال أن روح زوجته المتوفاة قد هبطت على الفتاة وخنقت من فورة الفرح لديها . بمسحة من وجوم !.. وفجأة ، وقفت عرية أمام الباب الخارجي . وقد ظهرت فوقها بعض الحقايب ، فصاحت همناليني : « هذا جوجن ولابد ! » .. وخنقت إلى الباب . فإذا جوجندرا يبط من العربة . بادى البشر والسرور ، وسألته وهو يحيطها في مودة : « هل معك أحد ؟ » . فضحك قائلاً : « أجل . لقد أحضرت هدية عيد الميلاد لأبي ! » . وبرز رامش إذ ذاك من العربة : « فأن وقع بصر همناليني عليه حتى نكصت على عقبيها وأمرعت بالدخول . وأمرع جوجندرا خلفها يناديها ، ولكنها لم تحفل به .

ورفت (رامش) حائراً ، فارتد إليه (جوجندرا) قائلاً : « تعال يا رامش . فإن أبي يجلس في الحديقة » . وتباطأ ذراعه ، وقاده إلى (أنادا بابو) . ولم يصدق الشيخ عليه .. وأخذ يتمتم لنفسه في استياء : « ها هي ذى عقبة جديدة ! » .. وانحنى رامش أمام الشيخ . فدعاها هذا إلى مقعد . وقال لابنته : « جئت في موعد مناسب يا جوجن . فقد كدت أبقى لك » .. وهتف الابن : « لماذا ؟ » . فقال الشيخ : « لقد اعترفتنا تزويج همناليني من ناليناكشا .. قال جوجندرا : « أتقصده أنك اتخذت قراراً نهائياً يا أبت ؟ » .. أما كان ينبغي أن استشار في

الأمر ؟ » .. فقال الأب : « إن أحداً لا يعرف لك قولاً يا جوجندرا .. ألم تكن متحمساً لهذا الزواج ؟ » . قال الشاب : « هذا حق ، ولكن مع الماضي .. إن لدى حديثاً طويلاً ، فاسمعي .. » . فقال (أنادا بابو) وهو يتنفس عن مقعده : « سأسمعه فيما بعد . فلأني وهيم مدعوان لتناول الفطور لدى أم (ناليناكشا) » .

الفصل السابع والخمسون

■ كانت كشمكارى قد قالت لـ (كمال) في اليوم السالف : « لقد دعوت همناليني وأياها لتناول طعام الفطور غداً ، فإذا تعزم أن نقدم إليهما .. » على أنني أعرف أنك طاهية بارعة يا عزيزتى .. ما سمعت قط أبني يبدي رأياً في الطعام ، ولكنه لم يجده . أمس - العبارات التي يطرى بها طعامك !.. ولكن ، لم لا تبدين مشقة الوجه يا عزيزتى ؟ » . فاحتضبت كمالاً ابتسامة وهي تقول : « لاني بخير يا أمه ، فشكراً ! » . ولكن كشمكارى هزت رأسها قائلة : « بل أراك مهمومة من أجل أمر ما . لا داعي لأن تكتسى عني .. لا تعتريني غربة عنك يا عزيزتى فاني اعتبرك ابنة لي ! » .. ولما عجزت السيدة العجوز عن حملها على الكلام . قالت : « قد يكون من الخير أن تذهبي لعمك فتمكني لديه بضعة أيام . ثم تعودي إن شئت ! » ، فصاحت (كمال) في لوعة : « أمه !.. طالما أتيح لي أن أمكث معك ، فلست بحاجة إلى أن أرى في الدنيا سواك ! » .. فربقت العجوز خدوها قائلة : « هذا مما يجعلني أزداد اعتياداً بأنك كنت أرى في حياتك السابقة يا عزيزتى ! »

ليباركك . فلا تتأخر ! .. وسار نالينا كشاً خافض الرأس ، مستغرقاً في التفكير !

الفصل الثامن والخمسون

● ما إن فرت همناليني من أمام رامش ، حتى أوت إلى حجرتها ، وتوسدت بابها خلفها . وسألت نفسها بعد أن غابته انفعالاً : « لماذا عجزت عن أن أقابل (رامش بابو) دون أن أقعد جلدي ؟ .. لماذا أقدمت على هذا التصرف المؤسف عندما حدث الشيء الذي لم يكن مرتقباً ؟ .. » ونهضت . فاستجمعت جأشها ، وخرجت لتقابل (رامش بابو) وقد عولت على أن تصمد للموقف . ثم تذكرت أمراً « فعادت إلى غرقها وأحاطت معصمها بالسوارين اللذين تلقنهما من كشمناكارى . وهبطت إلى الحديقة . ولكن رامش وجوجندرا كانا قد انصرفا .. فتأهبت لمرافقة أبيها إلى دار (نالينا كشاً) .

ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف حين بلغا الدار . ولم يكن الطبيب قد عاد بعد . فتولت كشمناكارى استقبالهما والحفاوة بهما . وأدهشها أن لا ترى الفتاة بالغة الالتهاج في ذلك الصباح : فأنقل وجوم همناليني سبشار السيدة العجوز . إذ خيل إليها أن الفتاة غسيرة راضية عن الزواج من ابنها . وأنها ترى نفسها أهلاً لمن هو أفضل منه ! .. ورافقت منها عنان الحديث في عمرة أفكارها . وفجأة ألقت نفسها تقول : « لا ادعي هناك للتعجيل بالزفاف : فهي في سن يستطيعان أن يقررا فيها شؤنها » . ولا ينبغي أن نوجهها . ولست

وأوت (كمالاً) إلى غرقها في تلك الليلة : فأطغأت الصباح . وأغلقت الباب . وجلست على الأرض تفكر في الظلام . وانتهت بها أفكارها إلى هذه الصبغة : « إن أستطيع أن أوصل رعايته . إذا كانت السماء ستحرمني هذا الحق . يجب أن أروض نفسي على اليأس منه ، وأن أقنع بأن أودى له خدمة بين آن وآخر . فليبين الله القوة على أداء هذه الواجبات بوجه باسم ! .. ومن الغد ، يجب أن أتخلص من حسرتي وأن لا أبعد مطلقاً شقية . لن أسمح أبداً لزرقة حزينة بأن تبعث من صدري . سأقنع بأن أخدمه طوال أيام حياتي . وأن أطعم في مزيد أبداً .. أبداً .. أبداً ! »

وأخذت تردد هذه العبارة وهي تتقلب في فراشها . حتى إذا أسفر الصباح ، نهضت مستجمعة كل ما لديها من قوة الإرادة . وهي لا تزال تردد العبارة . وأمرعت تغفل في (الجانيز) . حتى إذا عادت . سعت إلى كشمناكارى بوجه باسم . فتهفت السيدة : « لماذا يكره وسبقني إلى النهر ؟ » ، فقالت : « لم يكن بوسعي أن أتلک يا أمه . فهناك عمل كثير لإعداد القطور للضيوف . » وخرج (نالينا كشاً) من غرفه إذ ذاك ، فقالت له أمه : « أخرج أنت الآن ؟ .. إذن لا تتأخر في الخارج ! » . فسأها : « ولماذا يا أمه ؟ » . قالت : « لقد نسيت أمس أن أنبئك بأن أناذا بابو قادم ليباركك ! » . فقال : « ليباركني ؟ كيف أصبح مبارکاً إلى هذه الدرجة فجأة ؟ .. فصاحت به : « لقد ذهبت أمس فأهليت (همناليني) سوارين وباركتها . وهو قادم يدوره

الشيخ - وقد استغرقت في التفكير ، إلى درجة أنها ذهبت حين فطنت
 إلى وجود السيدة العجوز ، ففكرت من مكانها وهي تبتسم في ارتباك ؛
 وسألها السيدة : « لماذا تجلسين هنا واجهة يا عزيزتي ؟ » (إن (هم)
 هنا - وأرى أن تصحبها إلى غرفتك فنجاذبها الحديث ، حتى لا تضجر
 من حديث عجوز مثلي ! » .. وأجبت السيدة بعد هذه العبارة بأن
 الغفور الذي بدا على همتاني قد ضاعف من عطفها على كمالا . وقالت
 هذه مراوغة : « ولكني لن أجد الحديث معها ، فهي متعامة وأنا
 لا أعرف شيئاً ! » .. فصاحت العجوز : « ماذا تعنين ؟ » إنك
 لا تفكرين عنها شيئاً . ومع ذلك . فإن الآتي يفخرن بتعليمهن كثيرات ..
 . الآتي أوتين مثل جمالك . فقليات ! » .. وعقدت (كشمكاري)
 عزمها على أن تظهر جمال (همناليني) بائناً إلى جوار الجمال الغض الذي
 أوتيه هذه الفتاة غير المتعلمة . فقادتها إلى غرفتها . وخلعت عليها ثوباً
 من الحرير الأصفر ، وعققت لها شعرها على أحدث نسق . وتماثلها
 ملويلا . ثم طبعت على خدها قبلة وهي تقول : « لعمرى ، أن لك من
 الجول ما يرضح لتضمر ملك ! » . حتى إذا فرغت من تزيينها . قالت
 لها : « ها هنا الآن يا عزيزتي ، ولا تحجل . إن فتاة الجامعة لن تلبث
 أن تشعر بالغيرة من رأتك . ارفعي رأسك عالياً أمامها ! »

● وكان نالينا كشاً قد وصل في تلك الأثناء ، واندمج في حديث مع
 نغينين . وما إن رأتها كمالا . حتى استدارت تهم بالفرار : ولكن
 أنه فسكت بها قائلة : « ليس ثمة ما يزعجك بالجميل يا عزيزتي ! »

أدري بالطبع ما تشعر به (هم) لزاء هذا الأمر : ولكني أستطيع أن
 أقول إن نالين لم يرض نفسه تماماً على تقبل الفكرة بعد ! .. وكان
 كلامها موجهاً إلى همناليني أكثر منه إلى أبيها . فقد رأتها موزعة البال .
 فشاعت أن تشعرها بأن ابنها لم يطر فرحاً بالزواج المرتقب !

والواقع أن همناليني كانت قد أقبلت في ذلك الصباح وهي تمسح
 الابتهاج اغتصاباً . ولكنها لم تكذب تمتاز عتبة دار كشمكاري . حتى
 دهمها دعر طارئ ، وبدت لها الطريق الجديدة -- التي وجهت إليها
 حياتها - مائلة بالصخور ، والمناور . وعندما أبدت السيدة العجوز
 فتورها نحو الزفاف ، استولى على الفتاة شعوران متضاربان : فتمدد
 رأت . من ناحية - أن التعجيل بالزواج يتيح لها التحرر الذي تشاءه
 من حالها الراهنة ، ومن تشتت بالها . وحيرتها ! ولكنها - من ناحية
 أخرى - وجدت راحة في الإشارة إلى احتمال العدول عن المشروع !
 وكانت العجوز ترمقها من طرف خفي . فحبل إليها أن أساور الفتاة
 اكتست هدوءاً وطسأينة عقب قولها ذلك ، فإذا قلبها يقسو عليها .
 وقالت لنفسها : « لقد أوشكت أن أبيع ابني الحبيب بشئ بخص ! » ..
 وسرها أنه تأخر عن الحضور . فتحولت إلى همناليني قائلة : « هكذا
 هو نالينا كشاً .. إنه يعرف تماماً أنكما قادمان اليوم . ومع ذلك فلم يبد
 له أثر » . ثم تعللت بتفقد العمل في المطبخ ، وغادرت الضيفين وقد
 اعترفت أن تستدعي كمالا لتشغل بها همناليني ، ريثما تخلو إلى الشيخ في
 حديث خاص .

ووجدت كمالا قد فرغت من إعداد الطعام وجلست في ركن من

وراحت كشمينكارى تغيط نفسها على جمال الفتاة ، وتغنى نفسها بأن ترى أثره على الآخرين . : فإن ما حالته من فتور لدى همنالينى ، أيقظ الأمومة فى أعماقها ، فرأت فى إظهار الفارق بين الفتاتين نوعاً من الثأر لما اعتقلته لإهمالاً نحو ابنها من ضيبتها .. وبالفعل : أدخل جمال كامالا الحضور !.. وشعرت كشمينكارى بالفوز . : فما كان أحد ليرى كامالا دون أن يؤمن فى قرارة نفسه بأن جمالاً هبة من هبات الآلهة . وما لبثت السيدة أن قالت لها : « خذى (هم) إلى غرفتك - وماعد المائدة بنفسى » . وكانت لحظة حرجة لـ (كامالا) . فقد راحت تسأل نفسها عما قد يكون رأى همنالينى فيها ، وهى التى لن تلبث أن تلتحل للدار وزوجة لـ (ناليناكشا) ، وسيدة للبيت ! وأبت أن تتر نفسها على أنها هى السيدة الشرعية للبيت !.. وأخذت أوصالها ترتعش وهى تبرج الغرفة مع همنالينى ، التى راحت تقول لها فى لطف : « لقد عرفت كل شيء عنك من الأم ، وأرجو أن تعبرينى أخيراً لك يا عزيزتى ! إبنى لم أحفظ بأخت ، وقد ماتت أبى فى طفولتى . وكم من مرة تمنيت لو كان لى أخت أبناً ما فى نفسى » سواء فى سعادتى أو فى حزنى !

وتطرقت فى الحديث إلى الزواج ، فسألتها عما كان عليه زوجها . ولم تشأ كامالا أن تجيب على السؤال مباشرة . بل قالت : « ما عرفت أننى يجب أن أذكره يا أختاه !.. وعندما ذهبت للعيش فى دار عمى ، توفقت المصلات بينى وبين ابنة عمى سايلاجا ، فرأيت بنفسى كيف تنكرس حياتها لزوجها ، وإذا ذلك فتفتحت عينائى إلى ما ينبغى على الزوجة نحو زوجها . إبنى لم أر زوجى حقاً ، ولكنى مع ذلك تعلمت

كيف أعيد به بكل قلبى . ولقد كافانى الله على هذا الولاء ، إذ أصبحت أتمثل فى ذهنى صورة واضحة لزوجى . إنه لم يحظ بزوجة فى شخصى - فى الواقع - ولكنى أرى الآن أننى قد عثرت على زوجى ! » : ووجد ولاؤها هذا استجابة من قلب همنالينى التى قالت : « إبنى أفهم ما تعنين . : إن الحصول على الشيء بالطريقة التى ذكرتها هو الفوز الحقيقى . : أما أى نوع آخر من الزواج ، فمجرد علاقة مادية لا يمكن أن تدوم ! » .. فأطالت كامالا النظر إليها لمدة دقيقة أو اثنتين ، ثم قالت : « إبنى لا أحزن لفقدته الآن ، فأنا جيد سعيدة . وأرى فيما حصلت عليه جزاء حقاً ! » .. فقالت همنالينى : « إن أستاذى يقول : إنه إذا استوى الكسب والخسارة لدى المرء ، فهذا هو الكسب الحق ! : لو أننى حصلت على قدر ما لديك من قناعة ورضى لكنت مجدودة حقاً أعلمين يا عزيزتى أن قلبى كان مثقالاً اليوم ، ولكن ألم زال عنه منذ رأيتك . وأصبحت أشعر بأننى أسترده قواى النفسية ! » .

الفصل التاسع والخمسون

■ عندما عادت همنالينى من دار كشمينكارى ، وجدت على مائدة غرفة الجلوس مقروفاً سميكاً يحمل اسمها بحروف عرفت فيها خط رامش . فتسارعت دقات قلبها ، وحلت المفرووف إلى مخدعها : حيث أغلقت الباب . وأقبلت تقرأ محتوياته . فإذا رامش قد أفضى إليها بكل قصته مع (كامالا) . دون أن يكتم شيئاً ، واختتم رسالته بقوله : « لقد فسخت المفرووف ذلك الرباط الذى وصلته الساعات حرقاً وسيلاباً ،

وها قد منحت قلبك لرجل آخر ، ولست ألوئك مطلقاً على ذلك . ولكن يجب أن لا تلوميني أيضاً . ومع أنني وكالاً لم نعش يوماً كزوجين إلا أنني أرى أن أعترف لك بأنني كنت أميل إليها مع مرور الزمن . ولست أدرى بالضبط حقيقة مشاعري اليوم . ولكن قلبي كان خديتاً بأن يمتنع إلى مرفأ حبك . لو لم نبديه . وبهذا الأمل هرعت إليك في حيرتي وأشجاني . فلما سمعت أنك قبلت الزواج من رجل آخر . عاودتني كل هواجسي وحيرتي . ووجدت أن ليس بوسعي أن أنسى كئلاً . ولكن أحداً في الدنيا لن يتعذب لذلك سوى . أما أنني أتعذب فلأنني لن أنسى المراتين الوحيدتين اللتين قدر لهما أن تعمرا قفاي . وستظل ذكرهما مبعث سعادة لا تقدر لي . طوال حياتي . ومن ثم فأنني أودعك وأنا قرير البال . فشكراً لك وخدا . وشكراً للقدر الذي يجعلني لا أحس شقاء في ساعة التفراق هذه . وإلى لأمتني لك كل سعادة وهناء . وأرجو أن لا تقسى علي في تفكيرك . لأنني لم أرتكب ما يدعو لك لهذا !

وانزعج أنادا بابو حين رأى همتاليني تدخل عليه فجأة . فسألها : « أنت بخير يا هيم ؟ » قالت : « أجل يا أبت .. لقد تلقيت خطاباً من رامش بابو .. وناولته الخطاب : فقرأه . ثم أعاد قراءته وكانت همتاليني قد عادت إلى غرفتها . فأرسله لها مع خادم . وجلس يفكر . وما لبث أن قال لنفسه : « لا بأس ! .. إن نالينا كشاً خير من رامش ! .. » وفي اللحظة التالية : أقبل نالينا كشاً بالذات : وعجب الشيخ مما دفع بالشباب إلى الخي . وقبل أن يرسل في استدعاء ابنته : بإدرك نالينا كشاً

قائلاً : . هناك مشروع لزواجي من ابنتك يا أنادا بابو ، على أنني أريد أن أروي لك - قبل أن تسير خطوة أخرى في هذا الصدد - حديثاً لا بد لك من أن تعرفه ! .. وعجب الطيب حين أجابه أنادا بابو بأنه يعرف قصة زواجه الأول ، فقال : « المهم أنكم تعتبرون زوجتي الأولى في عداد الأموات . ولكن ليس ثمة ما يؤكد ذلك . بل لأنني أعتقد أنها على قيد الحياة .. وحتف الشيخ وقد أومض في ذهنه خاطر : « أسأل النساء أن يكون هذا حقيقة .. هيم ! .. هيم ! .. » وأقبلت الفتاة مليحة نداءه . فقال لها : « أين الخطاب الذي كتبه إليك .. » فدفعت إليه الخطاب ، وناوله بدوره إلى نالينا كشاً . وحين مره هذا برمان ، سلبه الدهول كل مقدرة على الكلام ! .. وما لبث . بعد فترة وجيزة - أن نهض متصرفاً . ولمح في طريقه (همتاليني) واقفة في الشرفة ، فإذا منظرها يسترعي انتباهه . وسأله منه : كيف تغف هكذا هادئة . في الوقت الذي يجب أن يكون قلبها في عذاب عاصفة ! .. وحديثه نفسه بأن يذهب إليها فيواسيها . ولكن قلبه الحائر عنت به : لا .. إن الحواجز التي تقوم بين نفس بشرية وأخرى لا يمكن اختراقها .. يا للوحدة الرهيبة التي تحيط بالنفس ! .. وتعمد أن يحيط أمامها وهو في طريقه إلى عربته ، فإذا بها تبادر إلى دخول الغرفة . فقال لنفسه : « ليس من اليسير لنفس أن تلتقي بنفس أخرى . فإن الرابطة التي تقوم بين إنسان وآخر من أشد الروابط تعقداً ! .. » وسار إلى عربته بقلب مثقل !



● ولم يكده ناليناكشا بنصرف . حتى أقبل جوجندرا . فتهتف أبوه حين رآه : « أعدت وحيداً يا جوجن ؟ .. ولين رامش ؟ » . فأجاب الشاب : « إن لقاء مثل الذى استقبلته به كفيل بأن يجعله يدرك نفسه قدرها ، ولست أدرى ماذا فعل . اللهم إلا أن يكون قد فاز بالراحة الأبوية ، بأن ألقى نفسه فى (الجانج) . لئلى لم أراه ثانية . ولكنه ترك لى قصاصة قال فيها : « لئلى راحل - رامش » .. لئلى لم أقو فقط على استعراء هذه المسألة العاطفية ، وسأرحل أنا الآخر ! .. فصاح (أنادا بابو) : « وهيم ؟ .. يجب أن تقرر .. » . ولكن جوجندرا قال : « ما الذى يوسعى أن أفعله . وأنتا حرصان على أن نفسدا كل قرار أتخذه . أرجو أن لا تتفخانى فى الأمر مرة أخرى . لسوف أرحل فى صباح غد . وسأخرج فى الطريق على يانكيبور » . ولم يجد أنادا بابو ما يقعله سوى أن يمسح رأسه . وإن يتخبط فى أفكاره . كانت دنياه مليئة بالغاز عليه حلها !

الفصل الستون

● ذهبت (سايلاجا) مع أبيها إلى بيت ناليناكشا . بعد يومين أو ثلاثة وجلست سايلاجا مع كمالاتى إحدى الغرف الأجنبية . وأخذتا تهايمان بينما استغرق تشاكرابارتى فى الحديث مع كشمينكارى . فقال لها : « لسوف أعود إلى غازيبور غداً . فإذا كانت هاريداسى تضايقت .. » وصاحت السيدة : « ها أنت ذا تعود ثانية لهذا الموضوع . ما الذى ترى إليه يا سيدى العزيز ؟ .. أهى حيلة لتسرد ابنة ابن عمك ؟ .. لقد كنت

صريحاً معى حتى الآن . وأصابعك بأنه ليس أشبهى على النفس من أن يحظى المرء برة بيت شابة مثل هاريداسى . و ... » . فقال تشاكرابارتى : حسناً . لتكف عن هذا الموضوع .. إنها كانت حيلة منى لأجمع مديح هاريداسى على نسائك . بقى أمر واحد يشغلى . هو أن ناليناكشا بابو ربما وجدها مبعداً لفضيلة والحد من حريته فى البيت . ثم إنها مرهقة المشاعر . وأمر أن ناليناكشا أبدى آفته ما يتم عن غضب . لحز ذلك فى قلبها ! .. فصاحت السيدة : « عجيباً ! .. أيقضب نالين ؟ .. إنه لا يملك أن يقضب . فقال العم : « أصبت ! .. ولكنى كما تعلمين شلويا طلبت (هاريداسى) . ومن ثم لا يسهل على أن اطمئن إلى حالها . وليس يكفى أن تقول أن نالين لا يقضب قط . وأنه سيتجاهل الفتاة فلا يحس بوجودها مطلقاً . لن أهدأ حتى أعرف أنها - فى مقامها بهذه النار - تشعر كما لو كانت هى وهو فردين فى أسرة واحدة ! . إنها ليست قطعة من أثاث . وإنما هى كائن بشرى .. فإذا هو تجاهل وجودها ... » . ففتطعت عليه كشمينكارى استرساله قائلة : « لا تشغل بالك يا سيدى العزيز . لن أتردد فى أن أؤكد لك أن نالين يهدأ من أفراد الأسرة . وليست العبرة بالاهتمام الظاهرى . فانا واثقة من أنه بحث أمر هتاتبا وراحته . وليس من المستبعد أن يكون قد أهتم بعمل أشياء من أجلها . دون أن ندري ! » . فقال تشاكرابارتى : « يسرنى أن اسمعتك تقولين هذا . ومع ذلك فىلنى أرى أن أتحدث مع (ناليناكشا بابو) على حدة قبل رجلى . إن الرجال الذين يحملون مسئولية سعادة امرأة ما . قليلون فى الدنيا ! .. وإذا كانت السماء قد أنعمت بنى ناليناكشا بابو - ببلد الشيمة

التي تدل على رجولة حقة ، فأحب أن أوصيه بأنه ينبغي في البداية أن لا يبيي هاريداسي بنأى عنه ، تحت سلطان الحياة الكاذب . وإنما يجب أن يعتبرها ويعاملها كعضو حقيق في الأسرة ! »

وبعث هذه الثقة — من الشيخ — بـ (ناليكاشا) شعوراً من الزهو في صدر أمه . فقالت : « بل إنني كنت أتحشى أن لا تفر اختلاصها . فكنت أستقيي هاريداسي بهزل عن ناليكاشا إذا ما كان في البيت . وإن كنت أعرف ابني . وأنت في رجاحة عقله ! » فقال تشاكربارتي : « إذن . سأصارك بما في ذهني . لقد سمعت أن « ناليكاشا بابو » سيتزوج . وأن عروسه أكبر سنًا مما ألفنا أن تكون عرائسنا عليه . كما أنها أوفر ثقافة . لذلك ظننت أن هاريداسي . . . فقطعت عليه الحديث قائلة : « إنني أقدر هذا . لا بد أن ثمة داعياً بدعوك نلتقي في هذا الصدد ، ولكن هذا الزواج لن يتم ! » . وصاح الشيخ : « هل فسخت الخطبة ؟ » فأجاب : « أنها لم تتم حتى تفسخ . لم يكن نالين راغباً فيها على الإطلاق ، وكنت أنا التي أستعنه . ولكني عدلت عن الضغط عليه . إذ لا جدوى من دفع الناس إلى ما لا يحبون . . . وقد أفارق الحياة دون أن أراه متزوجاً ! » . وصاح تشاكربارتي : « لا تتحشني هكذا . » قالت : « إن نالين يكبر مع السنين . وقد أكرمني أن أشعر بأن عدم زواجه راجع إلى أنا ، ومن ثم اندفعت . في عجلة . أبعث له عن عروس . دون أن أجيل البصر حولي أولاً ، وأأمل ، وأفكر ! » . وقال الشيخ : « لسوف تقرى عيناً بشريكة حياته . وإنني لأعرف النوع الذي يروق لكما . . ليست صغيرة جداً ، ولكنها قادرة على أن تؤدّي

واجبة . وعلى أن تطيع . . دعينا نتحدث عن عروس من هذا النوع . لا تخشيك يا تشاك ! والآن اسمحي لي بأن أوصي هاريداسي قبل انصرافي . وسأرسل لك سايلاجا تؤتسك . . . فقالت العجوز : « بل تحدثوا ثلاثكم معاً . وسوف تؤدّي . بعض الأعمال » .

■ ووجدت تشاكربارتي الفتاتين معاً . والدموع تترقرق في عيني كمالا . وبادرت سايلاجا قائلة : « كنت أقول لك كمالا ! يا أبت أن الوقت قد حان للإقصاء (ناليكاشا بابو) بكل قسيتها . فإذا بها تتور على ! » . فهتفت كمالا : « لا ياديدى . أتوسل إليك أن لا تقضي بشيء ! » . وصاحت (سايلاجا) : « يالك من رعناء ! . كيف تملسين ساكنة وتكرهين (ناليكاشا بابو) يتزوج من (مهناليني) . . . لقد عانيت منذ روجت قطع التجارب . حتى أوشكت أن تلاقى حتفك . فكيف تربحين أن تجعل عذاباً جديداً ؟ » . . . وهنا قال تشاكربارتي : « حسناً ، لنينيك الإله . فإن الزواج الذي ذكرته لن يتم . لا تخشى شيئاً يا عجوز . . . فقال انتصر الحق ! » . . . وهاقت فيه كمالا . عاجزة عن أن تفقه ما كان يعنى . فعاد يقول : « لقد فسخت الخطبة . لا لأن ناليكاشا لا يوافق عليها فحسب ، وإنما لأن الأم أيضاً عادت إلى رشدها ! » . فهتفت سايلاجا في صوت متهدج : « لقد نجونا يا أبت ! . . . إنني لم أتم الليل بعد أن علمت بنأى الخطبة . ومع ذلك ، فهل ستظل كالا تعيش غريبة في البيت الذي هو بيتنا شرعاً ؟ » . . . فقال أبوها : « لا تتعجلي الأمور يا سايلاجا » .

وصاح الع : « عجباً يا أبناء العصر لتفكيركم . إذا كانت كمالا قد ماتت ، فقلت أرى داعياً لأن ترعجه بذكراها ، لاسيما وأنه لم يكن زوجاً لها لغير ليلة واحدة . أترى البيت القائم هناك ؟ .. إنني أنزل فيه ، فإذا جئتني صباح غد ، رويت لك كل شيء . على أن لا تسمى للقاء نالينا كشاً بابو قبل ذلك ! .. ثم عاد « الع » إلى كمالا فقال لها : « أولئك على أن تأتي لداونا صباح غد . فقد اعترفت أن أجعلك توضحين الموقف (رامش بابو) بنفسك .. إنني أؤمن بأن هذا هو الحل الأخير ، فإن شباب اليوم لا يراعون قيم الماضي وأساليبه . لا تحفلي يا عزيزتي ، إذ لا ينبغي أن ندعى سواك يستحل حقوقك ، ومن حقلك أن تنولي الإيضاح بنفسك ! .. ولم ترفع كمالا بصرها عن الأرض ، بينما استعطر الشيخ : « لقد طهرنا الأرض » فلا تردد في كنس العقبات القليلة الباقية ! .. »



■ وسمعت آتالا في تلك اللحظة وقع قدمي نالينا كشاً ، فرفعت بصرها ، فإذا نالينا كشاً واقف في فراغ الباب . والتفت عيناها بعينيها ، فلم يبادر إلى الإشاحة بوجهه كما كان يفعل في المرات السابقة ! ولم تدم النظرة لأكثر من لحظة ، ولكنها بدت وكأنها كانت تضم وجه كمالا بدلاً من أن تقصيه كما كان الحال من قبل ! .. ولمح نالينا كشاً في اللحظة التالية (سايلاجيا) ، ففهم بأن يتراجع . نولاً أن صاح به الع : « لا تهرب يا نالينا كشاً بابو ، فنحن نعتريك واحداً منا . هذه ابنتي سايلاجيا ، التي عالجيت أنت ابنتها منذ أيام .. وانحنت له سايلاجيا ، فرداها من مساندة عن الطفلة . وقال

وقالت كمالا : « ولكني قانعة بالوضع الحالي ، ولا بد تبديلاً .. أرجوك يا عمي العزيز أن لا تنهي أحد بشيء . كل ما عليكما هو أن تتركنا في ركن من البيت وننسياني .. فأنا سعيدة بهذا ! .. وتدفقت الدموع من عينيها ، فأخذت تشارك رابرتي يواسيها . وفي هذه الأثناء ، اندفع أومش إلى الغرفة مبتسماً وقد فغر فمه عن آخره ، فسأله الع عما هناك ، وإذا ذلك قال العبي : « إن رامش بابو في الطابق الأرضي يسأل عن السيد الطيب » .

وغاض الدم من وجه (كمالا) ، وقفز الع قائلاً : « لا تترعجي يا عزيزتي ، سأهبط وأسوي الأمر معه . وهبط السلم ، فتناول ذراع رامش قائلاً : « تعال نتمشي يارامش بابو ، فإن لي معك حديثاً .. وصاح (رامش) في دهشة : « من أين أتيت يا عمه ؟ .. قال : « إنما أنا هنا من أجلك ، وكلم يسرنى أن قابلتك . تعال ، فلابد من أن نسوي هذا الأمر قبل فوات الوقت » . وجر الشاب إلى الحديقة . ثم سأله : « ما الذي أتى بك إلى هذه الدار يارامش بابو ؟ .. قال رامش : « جئت أسمى للقاء نالينا كشاً بابو ، فقد قررت أن أصارحه بكل شيء ، عن كمالا . لأنني لا أكف عن الاعتقاد بأنها على قيد الحياة ! .. فقال الشيخ : « وهب أنها على قيد الحياة ، وإن نالينا كشاً التي بها ، فهل من الخير أن يسمع القصة من فمك أنت ؟ .. إن له أمراً عجوزاً : وقد يشق علي (كمالا) لو أن السيدة عرفت الحقيقة ! .. فقال رامش : « إنما أردت أن يعرف (نالينا كشاً) أن ليس علي (كمالا) ظل من شك أو لوم .. فإذا كانت غادرت الحياة ، فإن شهادتي ستجعله يقدس ذكراها ! :

الشيخ : « إنك لا تتيح لي مطلقاً فرصة للشعب من حيثك - فلتدع في هذه الفرصة الآن ! » . وحل على الجلوس : ثم التفت فإذا (كالا) قد تسالت من الحجرة .

كانت نظرة ناليكاشا قد بعثت في نفسها مالا قبل لها باحثه من الدمشة والفرح ، فسعت إلى خلوة تستوعب فيها المفاجأة على مهل ! .. وأقبلت كشمسكارى في تلك اللحظة تدعو تشاركبارنيه إلى أن يعود لجلساتها في غرفة الجلوس ، فصحبها مع ناليكاشا . وما أن وصلوا إلى الغرفة « حتى قال العم لصاحبيه : « سألق بك سريعا » .. وغاب دقيقة أو اثنتين ، ثم عاد ممكماً بيده (كالا) . تتبعهما سايلاجا . وشرح (تشاركبارنى) يقول : « يجب أن لا تعامل ابنتا هاريداسى كما لو كانت غريبة يا دكتور .. إن كل ما تشده (كالا) هو أن تتاح لها الفرص لتخاطبهما معاً . ولن ترتكب قط خطأ عن عمد ! » فصاحب كشمسكارى : « لا داعى لأن تتلقى يا سيدى الجليل . لقد أتزلنا هاريداسى منزلة الأبهة في دارنا . ولم يعد لي مكان في المطبخ وغيره المون اللذين ظلمت كل هذه السيدات لا أفرط فيها ! .. بل أن أتعبد لم يعودوا يعتبروني سيادة الدار ! إن هاريداسى قد سابتني كل سلقاً . فأى شيء آخر ترجوه هذه السارة ؟ .. فأجاب ناليكاشا : « وأنتا بلوركا فرضنا عليها سحراً أنساها وجود أى امرئ سواكما في الدنيا .. بالمسكينة . لقد عانت أوقات عصيبة . وأن لها أخيراً أن تطمئن ! .. واغرورت عيناها »

وكان ناليكاشا ينصت في صمت وهو شارد الفكر . فلما انقضى الجمع .

سار في تافل إلى غرفته . وكانت شمس ديسمبر تجتج للمغيب فتملاً الحجرة بخفض من الضوء الأرجواش الشبيه بحمرة الخجل على وجه عروس .. وكانت كالا قد بثت له الورد في أرجاء الغرفة ، فإذا أرجوانية الشمس وغير الورد يثيران أحاسيسه . لقد ظل طيلة السنين الماضية يرى الدنيا عالم زهد وتشف ، فما الآن . فقد سبل إليه أن أذنيه تمنعان بأنعام أخذت تتردد في الكون كله ، يخالطها صليل الصناعات (الصابجات) في أيدي راقصات مستترات ! .. وتحول ناليكاشا عن النافذة ، فوقع بصره على الورد المنسقة عند رأس سريره ، فبدت له كعبون تتطلع إليه في رجاء صامت من أبواب قلبه . وأمسك بوردة لم تفتح أكمامها ، وقد بدا لونها ذهبياً غير براق وإذا أخذ يداعبها بأنامله ، خيسل إليه أنها تستجيب له بلمس بشرى ، فسرت في جسمه رعدة « وضع الوردة في خشنه . ثم لمس بها جفنيه ! .. وعندما هم بأن يغادر الحجرة ، سار إلى السرير ورفع الغطاء . ووضع الوردة على الوسادة . وعندما رفع رأسه . وقع بصره على شبح منكش في أحد الأركان . كانت كالا » وقد غاب وجهها في طيات ثمارها ، وأوشكت أن تنهار على الأرض حياء فلقد كانت في الغرفة عند مقدمه . فلم تجد فرصة للتسلل ومن ثم ظلت مزودة في أحد الأركان والحياء يكاد يخنقها .. وأسرع ناليكاشا نحو باب الغرفة ليغيب من خجلها . ولكن فكرة خطرت له حين بلغ الباب ، فتوقفت لحظة متردداً . ثم استدار نحو (كالا) قائلاً : « انفضى ... لا تخجلني ! »

الفصل الحادى والستون

■ ذهبت كمالا فى الصباح التالى إلى منزل العم . وما أن سحبت خافرة حتى انتحيت بـ (سايلاجا) جانباً ، فسألتها هذه : « ما الذى يبعدك اليوم يا حبيبتي ؟ » .. فقالت الفتاة : « لست أدرى يا ديدى . ولكنى أشعر كأن متاعى قد انتهت ! .. إننى أشعر أنه قد صار رجلى الآن بالفعل ! لقد أشفقت على السماء أخيراً ! » .. قالت سايلاجا مداعبة : « ما ينبغى أن تخفى عني أمراً » . فقالت (كمال) : « لست أخفى شيئاً يا ديدى . لقد خيل إلى - عندما استيقظت اليوم - أن الحياة أصبحت تعمل معنى جديداً لى . شعرت أنى أكثر هشاءة . وإنى لا أطمع فى مزيد ! كل ما أخافه الآن هو أن أفقد ما حصلت عليه ! »

وأقبل العم عند هذا الحد من الحديث ، فقال لـ (كمال) : « يجب أن تأتى الآن لحظة يا عزيزتى - فإن رامش بابو هنا » . وكان (العم) قد تحدث إلى (رامش) عند وصوله فى ذلك الصباح ، وقال له : « إننى أعرف حقيقة علاقاتك بـ (كمال) ونصيحته لك أن تبدأ الحياة من جديد وأن تنفض يدك من هذه المسألة . وإذا كانت ثمة مشكلة باقية فضعها للقدر يحلها ، ولا تحاول أنت أن تعالجها ! » .. فأعرب رامش عن أنه إنما أراد أن يروى القصة كلها لـ (ناليثا كشا) - ليبرئ كمالا من أى ريب ، وليرضى ضميره . وهنا ذهب (العم) لينادى كمالا - كما أسلفنا - فوقف (رامش) فى النافذة يسرح بصره فى المارة وهو شارد الذهن ، حتى سمع وقع أقدام ، فالتفت . خلفه ورأى فتاة تتخنى أمامه

حمية ، حتى إذا رفعت رأسها . صاح مأخوذاً : « كمالا ! » .. وقال العم : « شكراً للسبب يا رامش بابو . لقد انتقضت متاعب كمالا ونحس طالعها » .. لقد انتقضت أنت حين كانت معرضة للأخطار ، فجلبت لنفسك النجاة ! .. أما وقد آن لكما أن تفرقا - فإنها لم تشأ أن تصمت على ما هى مدينة لك به ، فجاءت تودعك ! .. وجاهد رامش حتى انبعث صوته من حلقه قائلاً : « نيبارك الله يا كمالا ! اغفر لى ما قد أكون ارتكبت من أخطاء فظنت لها أو صادرت عفواً ! » .. فاستندت كمالا إلى الجدار . ولم تنبس ببنت شفة . واستطرد رامش بعد لحظة : « إذا كان ثمة سوء تفاهم أستطيع أن أبطلوه ، فليس عليك سوى أن تأمرينى ! » .. قضت كمالا راحتها إلى صدرها وقالت : « أرجو أن لا تنبس بكلمة لأحد » . قال : « لقد ظلمت زمناً طويلاً لا أبوح لأحد بكلمة عنك . ومكثت صامتاً . حتى عندما كان الصمت سبباً فى تماسى . ولم أرو قصتك إلا منذ أيام قلائل ، حين اطمأنت إلى أنك بئامن من كل سوء . وحتى إذ ذاك ، لم أروها إلا لأفراد أسرة واحدة . واعتقد أن هذا لن يضرک فى شىء ، بل أعتقد أنه قد ينفعك . فإن (العم) يدرك كل شىء . أما أنا يا بابو وابنته ... » فقال العم : « هل سمعا النجاة ؟ » . قال رامش : « أجل » وإذا كان ثمة شىء آخر تحبان أن أضيفه لهما ، فأنا على استعداد لأن أفعل . أما من ناحيتى ، فلست أرجو شيئاً . لقد فقدت قطعة من حياتى ، ومن عواطفى . وكل ما أصبو إليه الآن هو أن أخلص من أى شىء يثقل ضميرى ! »

فشد العم على يده قائلاً : « لا يا رامش ، لا تسبنا بغير حق »

منك . لقد تعذبت كثيراً . بل أكثر مما تحتمل : وأنى لأدعو السماء أن تجعل حياتك منذ الآن سعيدة لا تعترضها المتاعب أو الضموم :

قال رامش : « سأفارقكم الآن » .. وتحول نحو كمالا ، فلم تفتح فيها ، ولكنها انحنت أمامه في احترام . وانطلق رامش في طريقه وكأنه في حلم ، وقد راح يردد لنفسه : « لئني مغيب لأنى قابلت كمالا ، فإن هذا اللقاء خير ختام للفصل الذي انقضى ، والآن ، لم يعد هناك من يحتاج إلى ، ولا من يريدني . فلأطلق في الحياة ، ولأشق طريقى : ولا ضرورة لأن ألثف إلى الماضي كى أنظر إليه ! »

الفصل الثاني والستون

■ وجدت كمالا - حين بلغت البيت - أن أنادا بابو وهناليى كانا يجلسان مع (كشميكارى) . وقالت السيدة العجوز بمجرد أن رأتها : « ها هي ذى هاريداسى .. ثم التفتت إليها قائلة : « هلا اصطحبت صديقك إلى غرفتك يا عزيزتى ريثما أقدم الشاي (أنادا بابو) ! » .

وما أن أصبحت الثنائتان في غرفة كمالا ، حتى تحولت هناليى فطلقت عنق صاحبها ، وضمتها إليها هائفة : « كمالا ، ! : فسالها كمالا دون أن تبدى أية دهشة : « كيف عرفت أن هذا اسمى ؟ » : فقالت (هناليى) : « لقد روى لى شخص ما كل قصتك .. وما أن سمعتها حتى أيقنت أنك أنت كمالا ، وإن لم أدرك كيف أبرر يقينى ! » : وعندئذ قالت (كمالا) : « لا أحب أن يعرف أحد اسمى : فإن اسمى الحقيقى هو مبعث أساى ! » .. فجادلتها (هناليى) قائلة : « ولكنه

يسألك على إثبات حقوقك ! » . وهنا هزت كمالا رأسها ، وقالت : « لست أنظر للأمر من هذه الناحية .. ليست لى حقوق أئبتها ، ولا أنا رغبة فى أية حقوق ! » .. فصاحت هناليى : « ولكن ، أى مهر لديك فى أن يبقى زوجك فى الظلام ؟ .. لماذا لا تصارحينه بكل شيء ؟ .. ما ينبغي لك أن تكتمى عنه شيئاً ! » .

وغاض الدم من وجه كمالا دفعة واحدة . وتطلعت إلى هناليى فى حيرة وعجز . وكأنما كانت تبحث فى عيائها عن رد ، دون أن تجد . واستندت إلى السرير تشبث به . ثم قالت : « لا أعلم إلا السماء سر ما فى من تحجل . على أنى لم أرتكب ذنباً . فلماذا ألقى القصاص وأنا بريئة ؟ .. كيف أجسر على أن أروى له قصتى بأسرها ؟ .. فتناولت (هناليى) يدها ، وقالت : « إنه ليس قصاصاً : وإنما هو اختبار وتطهير . على أنك الآن مفيدة بأغلال غير حقيقية » ولن تنحدرى حتى تطلعي زوجك على كل شيء .. فتوكللى على القادر ، وحطى أغلالك ! »

وقالت كمالا فى حيرة : « إن ما يستل قواى هو الخوف من أن أفقد كل شيء الآن . على أننى أدرك ما تعنين . يجب أن لا أخشى ما يحبه لى القدر ، وأن أقص كل شيء عليه : هو ، إذ لا ينبغي أن يبقى فى الظلام بعد الآن ! » . وضمت يديها إلى صدرها فى حزم وعزيمة . فأتتها هناليى مداعبة : « وماذا كنت ترجين إذن ؟ .. أكنت رغبة فى أن يتولى سواك مصارحتي ؟ .. ولكن كمالا هزت رأسها بقوة ، وقالت : « لا ، لا .. يجب أن لا يصارحنى أحد سواى ! »

أنا التي سأخبره بنفسى ، فلا تظننى عاجزة ! .. فقالت هنالئى :
« هذا أفضل .. لست أدري إن كنا سنلتقى مرة أخرى ، أو لن نلتقى .. »
فقد جئت لأذكر لك أننا راحلون ! .. فسألها كمالا : « إلى أين ؟ » ،
قالت : « إلى (كلكتا) . والآن ، ما أرى أن أشغلك طويلا ، فليك
أعمال الصباح تنتظرك ، ولذلك يحسن في أن أنصرف يا عزيزتى »
ولا تنسى أنتى أخت لك ! »

وأمسكت كمالا بيدها ، وقالت : « لسوف تكثيرين لى .. ليس
كذلك ؟ .. فوعدها هنالئى بذلك .. وعادت الفتاة تقول : « يجب
أن تكبى لى ، وأن تنصحينى فى أمرى .. فلئى أعتقد أن خطاباتك
ستكون مبعث تشجيع لى ! .. » وابتسمت هنالئى قائلة : « آه ، حسنا :
ولكنك ستعاشرين من هو أسلم منى مشورة ونصحا ! » :

■ ولم يرتع بال كمالا إلى حال هنالئى .. كانت رغم الهدوء الظاهر
عليها ، لا تتألك من الإتيان ببعض حركات تم عن حزن دفين مما أثار ،
حنان (كمال) وإشفاقها . ولكن (هنالئى) كانت تحيط نفسها بجو يجعل
المرء يتردد فى مفاتها ، ويحجم عن سؤالها . ومع أن (كمال) فضفضت
لها عن كل ما كان فى صدرها فى ذلك الصباح - إلا أن (هنالئى)
غادرت الدار وهى ملتفة فى عين التحفظ والتكلم اللذين أقبلت بهما :
كانت تكسو عيها مسحة من حزن روحى رقيق ، بدا بالنسبة لحياتها
كشق دائم على قسائها !

وظلت كلمات هنالئى العذبة : وعيناها المادنتان . تلاحق كمالا

طيلة يومها ، كلما قرغت من أحد أعمالها : لم تكن تعرف عن ماضى
هنالئى شيئا ، اللهم إلا حقيقة واحدة ، هى أن خطبتها إلى ناليناكشا
قد فسخت :

وكانت هنالئى قد أحضرت معها فى الصباح سلة مليئة بالزهور ،
فجلبت كمالا - بعد أن اغتسلت فى الأصيل - وأخذت تنسق عقودا
من تلك الزهور ، وكشمتكارى لا تكف عن الحديث : « آواه ! ..
ليس بوسعى يا عزيزتى أن أصف ما خالجتني من شعور حين ودعتنى
هنالئى اليوم . ومهما يقال : فلانها فتاة لطيفة حقاً . إننى لا أملك نفسى
من التفكير فيما كنت أستشعره من سعادة لو أنها تزوجت من ابنى »
لا أحد سواه يعرف السر فى نحوه عنها ! .. والظاهر إن كشمتكارى
كانت لا تقوى على أن تصارح نفسها بأنها قامت بتصيب كبير فى
فسخ الخطبة !

وانبثت وقع قدمين فى الخارج « فصاحت السيدة العجوز : « أهذا
أنت يا نالين ؟ .. وأسرعت كمالا . تلف الزهور والعقود فى طرف
ثوبها ، وتسدل الحار على وجهها . ودخل ناليناكشا الحجره ، فقالت
له أمه : « لقد رحلت هم وأبوها .. ألم ترهما ؟ .. » فأجاب : « بل
قابلتهما حين انصرفا من هنا . فرافقتهما إلى دارهما فى عربى » . قالت
الأم : « قل ما شئت يا فتى ، ولكنى لا أعتقد أن فى الدنيا كثيرات مثل
هم ! .. » وكانت تتكلم وكان ناليناكشا لا يرى رأياها ، ولا يكف عن
معارضتها ! ولكنه لم يقل شيئا ، بل اكتفى بأن يبشيم . فصاحت :

« أو نبتسم ؟ .. لقد خطبت لك هم وباركتها ، ثم إذا بنحلة تظن في رأسك ، فتفسد كل ما أعددت .. أأست أسفاً عن ذلك ؟ »

وأجفل ناليناكشا ، وألقى نظرة على كمالا ، فلاحظ أنها كانت تنعم بالنظر نحوه — بخلاف خمارها — والتقت نظرتهما ، فودت كمالا لو أنها تضاملت حتى تتلاشى في الفضاء ، وأسرعت تغض بصرها : وقال (ناليناكشا) : « لماذا ظننت يا أماه أن ابنك أهل لتلك المتعلمة ؟ » ثم إن الناس لا تتساقى للحب بالعصا ! .. وهنارفعت كمالا بصرها ، وإذا به (ناليناكشا) يلقى إليها بنظرة أخرى مليئة بالحبور ، فشعرت بأن القرار من الغرفة خير مسلك تسلكه . بينما قالت كشميكاري لابنها : « أخرج إلى غرفتك ، ولا تتكلم ، فإنك تغضبني ! »

● عندما خلعت كمالا إلى نفسها ، أكلت تنسيق زهور همناليني في عقود ، ثم جددت العقود في إكليل كبير وضعته على الملة ، ثم رشته بالماء ، وجماعته بعد ذلك فوضعت في غرفة مكتب ناليناكشا ، واغرووقت عيناها حين ذكرت أن الإكليل الكبير صنع من زهور الوداع التي قدمتها همناليني ! .. وما أن عادت كمالا إلى غرفتها ، حتى استغرقت في نوبة طويلة من التأمل . وراحت تسائل نفسها : ما الذي كانت تحمله نظرات ناليناكشا إليها ؟ .. وما رأيها فيها ؟ .. لقد خيل إليها أن عينيه تغوصان إلى أعماق أفكارها الخفية . لقد كانت من قبل في راحة ، حين كانت تتفادى الوجود حيناً وجد هو . أما الآن ، فقد أصبحت تجسد

نفسها في مواقف حرجة متزايدة .. وكأنما كان هذا الحرج عقاباً لتسرها على حقيقة شخصيتها !

وقالت لنفسها : « لا بد أن ناليناكشا يسائل نفسه : (من أين أتت أي هذه الفتاة هاريدياسي ؟ .. لأنني لم أر أفل منها حياة !) .. أو اه ! لأنني لا أحتمل أن يداخله هذا الرأي لحظة واحدة ! » .. وعندما أوت إلى غراشبا في تلك الليلة ، كانت قد عقدت العزم على أن تنتهز أول فرصة في غدا ، فتكشف سرها ، وتحمل العواقب أياً كانت !

ونفضت (كمالا) مبكرة في الصباح ، فاغتسلت في (الجانجر) ، وأحضرت ملء جرة صغيرة من مياحه لتغسل بها غرفة مكتب ناليناكشا ، قبل أن تقوم بأى عمل آخر من أعمال البيت ! هكذا كانت قد اعتادت . ولكنها في ذلك الصباح ، فوجئت بناليناكشا يشغل الغرفة مبكراً ، على غير عادته . وأسفت كمالا لعدم استطاعتها أداء مهمتها ، فتحولت في سخطي بطيئة . ثم مرقفت في ذهنها فكرة كومبض البرق ، فوقفت مسمرة في مكانها !

وفي بطناء ، ارتدت عائدة إلى الحجرة ، ووقفت مرة أخرى لدى بابها ، إذ لم تقو على أن تضي خطوة أخرى ! ولم تدر ما الذي غشيا ، وإنما خالت أن الدنيا بأسرها تسبح أمامها في ضباب .. ولم تعد تشعر بالزمن في انصرامه !

وانتبهت فجأة إلى أن ناليناكشا قد نهض عن مقعده ، وأنه كان يقف أمامها .. وفقرت كمالا ، ثم جثت على ركبتيها ، وأحنت رأسها حتى مست قدميه .. وتهدل شعرها الناعم ، المختل — الذي لم تكن قد

راحة وادعة ، وسكينة كضوء الصباح . وملاً كل ركن من نفسها شعور بالتقوى الخالصة . وخيل إليها أن الخليفة بأسرها تحترق بخوراً لمعبودها !.. وانبثق جدول فياض من الدمع ، من عينيها ، فأخذت القطرات تتساقط دون رادع .. تلك كانت دموع الفرح تبدد غيوم الأسمى التي خيمت على حياتها من قبل !

ولم ينس (ناليثاكا) بيت شفة ، وإنما رفع الشعر الندي عن جبينها بحركة سريعة ، ثم غادر الغرفة . ولم تكن كالا قد استنفدت كل ما في قلبها من عبادة ، فتأقت إلى شيء تسكب عليه ولاءها .. ومن ثم سارت إلى مخدع ناليثاكا ، فعمرت نعليه القديمين بزهور من الإكليل ! الذي طوق زوجها عنقها به ، ثم ألصقت جبينها بهما في ورع وتبجيل ! وعادت إلى أعمالها المنزلية ، وكان كل عمل منها لون من العبادة تؤديه لإله معبود .. كان كالا منها صلاة ترفعها إلى السماء على أجنحة الفرح ! .. وهتفت بها كششكارى : « ماذا تفعلين يا عزيزتى ؟ .. إن الذى يراك تغسلين ، وتكسين ، وتنظفين ، يخال إنك تحاولين أن تجددى الدار كلها في يوم واحد ! » .. وما لبثت كالا أن فرغت من أعمالها المنزلية ، فاحتبست نفسها في غرفتها .

وألانها (ناليثاكا) هناك حين أقبل حاملاً ملء سلة من البنفسج ذى الأريج العطر .. وقال : « ضعى هذه في الماء يا (كالا) لتحتفظ بنضرتها .. فإذا حلل المساء ، فلتسقى بها إلى أوى وتطلب منها أن تباركني ! » .. قالت كالا وهي تغض بصرها : « ولكنك لم تسلم

عقيدته بعد الاغتسال .. حتى غطى قدميه . وما لبثت أن نهضت ثانية ، فوفقت أمامها جامدة ، وكأنها تمثال ، وقد نسيت أن قناعها سقط عن وجهها ، ولم تظن إلى أن ناليثاكا أخذ يتغرس بإمعان في ملاحظتها ؛ بل إنها لم تعد تعى شيئاً من العالم الخارجى . وفجأة ، مرق في فكرها قبس من الإلهام ، فقالت دون أن يتهدج صوتها : « أنا كالا ! »

على أنها لم تكذب تنطق بالكلمتين ، حتى يدد صوتها النوبة السحرية التي كانت قد أنستها الدنيا ، فسرعان ما ذابت عزيمتها . وأخذت كل جراحة في جسدها ترتجف ، وسقط رأسها على صدرها . ولم تستطع أن تخبر حراكاً ، رغم أن القرار كان غير مسلك يتخذها من الحرج !.. كانت قد جشدت كل قواها وعزيمتها في تلكا الكلمتين : « أنا كالا » .. فلما نطقت بهما ، تسربت معهما القوة والعزيمة !.. وأجست بخزى وحياء بالغين .. لم يبق لها ما توارى به خجلها عن ناليثاكا !

أما هو ، فقد رفع يديه في بطء إلى شفتيه وتمتم : « لقد عرفت ذلك ! .. أنت كالا .. زوجتى !.. تعالى معي ! » .. وأخذها إلى الحجرة ، فأحاط عنقها بأكليل الزهور الذى جدلته يديه ، وقال : « تعالى نسجد للإله ! » . وكان شعاع الشمس يسقط على صفحة من رخام ناصبة البياض في أرض الحجرة ، فسجد الزوجان ، وأسليا جبينهما إلى تلك الصفحة الرخامية .. والشمس تندفق على رأسهما ! وحين نهضا ، عادت (كالا) تركع عند قدمي (ناليثاكا) في توقير عميق . فلما استوت قائمة على قدميها ، كان خجلها قد كف عن تعذيبها . ولم يكن فرحها منفلاً ، مهتاجاً . وإنما عمزت كيانتها كله

المقصّة كلها بعد ! :: فأجاب (ناليكاشا) : « لا حاجة بك إلى أن تذكرى شيئاً ، فإننى أعلم كل شيء ! »

وأرخت كمالاً قناعها على وجهها قائلة : « ولكن الأم ... »
ولم تتم حديثها ، إذ مد ناليكاشا يده « فأزاح النقاب ، وهو يقول :
« لقد غفرت أذى في حياتها الطويلة كثيراً من الذنوب ، وليس من شك في أنها ستغفر لك ما لم يكن من الذنوب في شيء على الإطلاق ! »

(تمت بحمد الله)

● صدر من هذه السلسلة ●

- | | |
|-----------------------------------|-------------------------------------|
| ١ - وجوه الحب السبعة . | ١٨ - مركب النقص . |
| ٢ - الحب الأول . | ١٩ - غرام سوان (٣ أجزاء) . |
| ٣ - جريمة حب . | ٢٠ - كيف نجحوا في الحياة . |
| ٤ - أنا كارينا . | ٢١ - كيف تحصل على الثروة . |
| ٥ - الحسب والسلام (٤ أجزاء) . | ٢٢ - لماذا انت عصبي . |
| ٦ - الخاطئة . | ٢٣ - عش بحكمة تعيش سليماً . |
| ٧ - البؤساء (٣ أجزاء) . | ٢٤ - زواج الحب . |
| ٨ - مدام بوقاري (جزءان) . | ٢٥ - التحليل النفسي للأحلام . |
| ٩ - المفتون . | ٢٦ - حذار من الشفقة . |
| ١٠ - الحب هو الكنز . | ٢٧ - أمير الانتقام . |
| ١١ - فن الحياة . | ٢٨ - اعترافات جان رسو (٥ أجزاء) . |
| ١٢ - د. زيفاجو (٤ أجزاء) . | ٢٩ - مرتفعات ويذرنج (٣ أجزاء) . |
| ١٣ - محاكمة سقراط . | ٣٠ - قلوب ضالة . |
| ١٤ - الجريمة لا تفيد . | |
| ١٥ - نساء ومآسى في ساحة العدالة . | |
| ١٦ - تعلم كيف تسترخي . | |



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

إذا كان القدر قد اعتاد أن يختار الفلاسفة والمفكرين من الفقراء والمستضعفين ، إلا أن الهند شهدت مناسبتين حاد فيهما القدر عن هذه العادة : وكانت أولى المناسبتين يوم اختار القدر «بوذا» من قصر أحد الأمراء المالكين في الهند ليكون مبشراً بالحكمة والفلسفة .. ثم كانت المرة الثانية حين اختار «رابندراناث تاغور» حفيد الأمير «دواركاناث تاجور» ليكون من رسل الأدب والحكمة .

ولد «تاجور» في (كلكتا) في ٦ مايو ١٨٦١ ، وبعد أن درس في إحدى المدارس الخاصة بالهند ، رحل إلى إنجلترا وهو في سن ١٧ سنة ليدرس القانون ، لكنه لم يستغ هذا اللون من الدراسة ، فعاد إلى بلاده وتوفر على الكتابة في مجلات إقليمي (البنغال) وصحفها ، وما لبث اهتمامه أن اتجه إلى أحوال بلاده ومواطنيه ، فراح يسعى إلى رفع مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية في الهند ، وأنشأ في سنة ١٩٠١ مدرسة هذة في نوعها ورسالتها ، ابتعد فيها عن برامج التربية المألوفة ، ليعنى بالنواحي الروحية والإنسانية والقومية ، وتوفر على الإنتاج الأدبي في تلك المرحلة ، ففاز في سنة ١٩١٣ بجائزة (نوبل) للآداب ، وقام بعد ذلك بعدة رحلات إلى أوروبا ، واليابان ، والولايات المتحدة . وقد وضع «تاغور» مؤلفاته - من أشعار وتمثيلات وروايات - بوحى من جمال الكون وإدراك وجود الله ، وحب الأطفال ، والبساطة . وتبدو هذه المعاني في كل ماكتب ، وحين بلغ سن ٥٨ - وهي سن تفر فيها همم الكثيرين - وجد في مجال الفنون ناحية جديدة لنشاطه ، فشغف بالرسم والتلوين ، وأقبل على ممارستها . وفي ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ مات «تاجور» عن ٨٠ عاماً . وهذه الرواية من آروع ماكتب

كتابي